أمنيجيا

ندا سليمان



اسـم الكتـاب: أمنيجيا
التـأليـف: ندا سليمان
موضوع الكتاب: رواية
عـدد الصفحات: 328 صفحة
عـدد المـلازم: 20.5 ملزمة
مقـاس الكتاب: 20 x 14
عـدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقـم الإيـداع: 3378 /2017
التـرقيم الـدولي: 0- 606 - 278- 977- 878

١٤٣٨هـ
٢٠١٧م

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

darelbasheerealla@gmail.com
elbasheer.marketing@gmail.com
www.darelbasheer.com
01012355714 - 01152806533

إهداء وشُكر

رُزق النّاس بأب وأم، وأنا رُزقتُ بأُمّين هما للعينين ضياء، لولاهما لما استطعت كتابة حرف، لولاهما لما كنت «**أنا**»، أُهدي روايتي الأولى لأمّي وأختي «**نورا**»..

إهداء لـ «أبي»- رحمه الله- وإخوتي الخمسة..

إهداء خاص لأخي يحيى.

إلى من له الفضل عليّ بعد فضل الله، الشيخ: **أمينُ الرحمن.**

لرفيقتي الطفولة اللّتين آمنتا بحلمي، وقالتا لي- يومًا- ما ستصلين

«كاميليا، ودعاء».

لصديقاتي اللاتي تحمّلن نوبات غضبي وتقلّباتي المزاجية أثناء الكتابة،

أُهديها لمن استقام حرفي بهن، ولهن الفضل- بعد فضل الله- بكل صفحة من صفحات هذه الرواية،

أُهديها لهن دون ترتيبٍ للأسماء: «**ديما، أسماء، سماء**».

إلى: «**هبه، صفاء، منى، يسرا، نورهان**».

إلى: «**أ. هشام أحمد، أ. محبوبة محمد سلامة، الشاعر محمود علي، م. هاني أحمد، د.أحمد السعيد مراد**».

لُمتابعي صفحتي على موقع التواصل الاجتماعي»فيس بوك«، شكرًا لأنّكم أعطيتموني دفعة ثقة قويّة لأصمد وأشق طريقي.

* لو فكّرت في كتابة إهداء لكل مِن كان لهم الأثر والفضل في حياتي؛ فسأحتاج كتابًا آخر؛ لأحصر أسماءهم؛ لذا أُهدي هذه الرواية لكلِّ من شجّعني، وساهم في خروج هذه الرواية للنور..

ندا سُليمان

جرت العادة أن تكون هذه الصفحة للمقدمة، ربما جزء من الرواية أو نبذة عنها لكنّني لن أفعل، سأدعوكم للإبحار في سطورها واستكشاف معالمها وحدكم، سأترككم مع شخصياتها؛ لتتعرفوا عليها كيفما شئتم، وليضع كلٌّ منكم مقدمة مختصرة كما يحلو له.. أعلم أنّكم تكرهون الثرثرة، حسنًا لن أُطيل لكن دعوني قبل أن أذهب أدعوكم للعودة معي على بساط الذكريات ليوم ما لن أنساه، كنت جالسة أمام أستاذي ومُعلّمي «محمد رمضان»، والذي لم يكن فقط مُعلّم لغة إنجليزية، بل أخًا وأبًا مُثقفًا بدرجة كافية لجعلك تستلذ بأحاديثه المُثمرة، قرأ بضع سطور من أولى رواياتي ولم يُكمل، فقط سألني عن نوع الكتب التي أقرأها؛ فأجبت كتاب كذا.. وكذا.. وكذا، سكت هنيهة، ثم سأل:

_ الكتب الدينية فقط؟! ولِمَ توجّهتِ لكتابة الروايات إذًا؟

_ لأنني أحبها، وأجد نفسي بين سطور القصص التي أكتبها.

_ أعلم أن الله حباكِ موهبة الكتابة، لكن وحدها لا تكفي، هل قرأتِ يومًا لإحسان عبد القدوس؟

_ لا.

_ تصفّحتِ كتابًا لـ «توفيق الحكيم» «الرافعي» أو حتى «نجيب محفوظ»؟

نفت إيماءة رأسي، وصدّق عليها لساني بـ «لا»، عاد بجذعه للخلف، وقال:

_ الكتب الدينية من أساسيات قراءتك، لكن لا تُجبري عقلك على وضع قالب واحد للقراءة، تصفّحي شتى الكتب، اقرئي في

المجال الذي تكرهينه قبل الذي تحبين، اسمعيني جيدًا، وتذكّري حديثي هذا دومًا، ضعيه نصب عينيكِ.

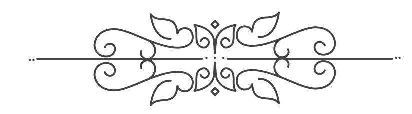
«إن الكاتب المحترف كالنحلة! النحلة تطوف بين الورود دون أن تُحدد لونًا أو شكلًا هي تمتص رحيق الزهور لتصنع عسلًا خاصًّا بها، والكاتب أيضًا يطوف بين الكتب بمختلف أنواعها، يمتص الرحيق ليصنع كتابًا خاصًّا به».

فعلت، وها أنا بعد ست سنوات في أولى صفحات كتابي الأول، أكتب امتنانًا وعرفانًا لأستاذي ومُعلّمي، شكرًا لك؛ فأنا بفضل نصيحتك- بعد فضل الله- استطعتُ أن أطوف بين الكتب، أمتص لذيذ رحيقها لأصنع «عسلي» الخاص.

والآن، أضعه بين أيديكم، وأتمنى أن يكون حلو المذاق فيه فائدة وشفاء..

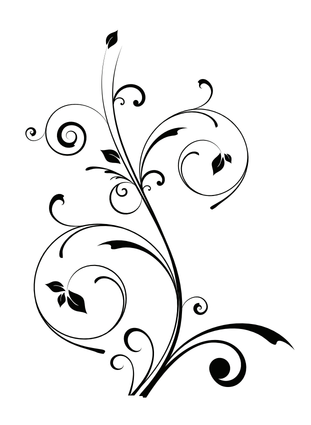
«بين أياديكم، ليستِ مجرد رواية، بل أنتم الآن تشهدون على أن الأحلام تتحقق، الآن أُخبر الطفلة الحالمة داخلي أن حلم طفولتها تحقق..».

ندا سليمان



« خذْ مِنْ حياتِكَ فرصةً واركضْ لها
غامرْ فعارٌ أن تكونَ جبانَا
زدْ في الحياةِ خميلةً فلربما
يومًا تراها في الفضا بُستانا
وانسَ الوجومَ ترى الحياةَ رفيقةً
إنَّ الحياةَ تُصاحبُ النّسيانَا»

الشاعر «محمود علي»



قال لهم:

«تعالوا إلى الحافة»

قالوا له:

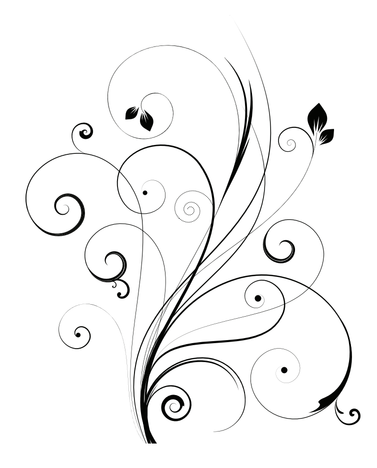
«نحن خائفون»

قال لهم:

«تعالوا إلى الحافة»

جاءوا ثم دفعهم.. فطاروا.

غيوم أبولينير



الساعة الآن السادسة صباحًا، الشمس لم تكتمل ولادتها من رحم السماء بعد، قدم حافية مُلطّخة بالطين تحمل جسدًا هزيلًا لطفلة ربما في العاشرة، ترتدي جلبابًا مُرقّعًا منقوشًا بشتّى ألوان البقع والأوساخ، لها شعر أشعث، لفح وجهها المكدود برد البكور، وجه اختفت ملامحه من أثر الغبار الذي يكسوه، عيونٌ حادةٌ لو نظرت لها لأقسمت أنها عيون كهل شرب من كؤوس الدنيا، وأَلِفَ مُرّها حتى أدمنها، تسير بهدوء بالغ، وكأنّها تخاف أن تُوقظ الإسفلت، وقفت عند أحد مكبّات النفايات، تأملته وأناملها الصغيرة تحك رأسها، اقتربت منه تُبعثرُ بعضَ ما وجدته على سطحه، تبتسم فَرِحةً وكأنّها حصلت على كنز ما، تبحث عن شيء حولها حتى وجدت ضالتها، صندوق مُهترئ من الكارتون، تناولته.. وعادت للمكب، وكأنها وجدت «بوفيه مفتوح» مليء بما لذ وطاب، انتقت بعض الأطعمة الفاسدة، مسحتها بجلبابها ظنًّا منها أن المشكلة فقط مسح الغبار، وضعتها في صندوقها، لمحت طوق شعر ربما كان ورديًّا، لكنّه اسْودّ من أثر بقائه وسط القمامة، كما اسودت أحلامها الوردية، تبتسم عيناها وهي تُبعد القمامة من حوله، تُحاول الإمساك به بحذر؛ كي لا تكسره، تناولته وفعلت به كفعلها بالأطعمة، مررت أناملها على «الفيونكة» المُهترئة في طرف الطوق، مسحت على شعرها مُحاولةً تهذيبه ثم وضعت الطوق على رأسها، أمسكت طرف جلبابها لتغيب في عالم الأحلام لبضع دقائق،كأميرة تُمسك بطرف فستانها مخافة أن تتعثر فيه، أو ربما لأنها صارت إحدى سمات الأميرات! لمست الطوق– الذي تراه الآن في حلمها تاجًا– تضحك وتدور حول نفسها مُتخيلةً أطراف فستانها

وهي تدور معها، بدأت ضحكاتها تعلو.. وتعلو حتى انتشلها من حلمها زمجرةُ أحد كلاب الشوارع، نظرت نحوه تُزمجر بأقوى من زمجرته لأنه اخترق عالمها الذي صنعته لنفسها فهرب حلمها، تمنّت لو تُكمله لبضع دقائق أخرى أو ليس هذا من حقها كطفلة أو كفتاة!

اتجهت نحوه حينما اقترب من صندوقها تهشّه ليبتعد، عاندها وظل يُزمجر ويقترب أكثر، مسحت المكان بعينيها حتى وقعت على عصا مُلقاة أرضًا، تناولتها لتُبعده بها، تنظر له بتحدٍ بالغ وبيدها العصا، ولكنّه سحب الصندوق بين أسنانه رغم أنفها، ورحل. ركضت خلفه، توقّفت حينما وجدت أمامها خمسة منه يُزمجرون فَعَلِمَتْ أنّها الخاسرة في هذه المعركة، رفعت الراية البيضاء وعادت للمكب حزينة، تلوم نفسها؛ لأنها غفلت وعاشت حلمًا، كان السبب في خسارتها لكنزها!

ربضت على الرصيف، تضع يدها على خدها، وتتأمل الطريق وقد بدأ يستيقظ وتدب فيه الحياة، تحسست الطوق تُواسي نفسها أنّها لم تخسر كل شيء في معركتها، مطَّت شفتيها بسخرية تردُّ على نفسها التي كانت تواسيها للتو.. أيُسمن هذا الطوق أو يُغني من جوع! جذبت أنظارها سيارة فارهة تسير في الطريق، وقفت واستعدت لمحاولة أخرى للحصول على فطورها وفطور إخوتها، اقتربت من السيارة التي هدأت سرعتها لوجود مطب صناعي، وقفت السيارة جانب الطريق لمّا اقتربت منها الفتاة، تابعت وجهها يتلاشى على صفحة الزجاج «الفاميه» وهو ينزل ببطء، نظرت للرجل الجالس خلف المقود نظرة مسكينة، وقوّست شفتيها قليلًا لأسفل:

ـ والنبي يا بيه، حاجه لله؛ أفطر أنا واخواتي، وكتاب الله ما دوقنا الزاد من امبارح، ربنا يخليلك عيالك.

أمال نظارته السوداء قليلًا يتفحصها من رأسها حتى أخمص قدميها، ثم ابتسم:

ـ اسمك إيه يا شاطره؟

ردت بحماسٍ بالغ، وبسمة أمل:

ـ «ورده».

ـ طيب افتحي باب العربية اللّي ورا، واركبي يا ورده.

نظرت له بريبةٍ، ثم صوّر لها عقلها أنه ضابط شرطة، فرجَتْه بخوف:

ـ خلاص يا بيه، والله آخر مره، مش هشحت هنا تاني، بس ماتودنيش القسم، والمصحف الشريف ما هتشوفني هنا تاني.

قهقه، فنظرت له بتعجب، ابتسم مرة أخرى، ورَدّ:

ـ ما تخافيش يا ورده، أنا مش ضابط، مش إنتِ عاوزه تجيبي فطار؟

ـ أيوه.

ـ وأنا هخليكِ تجيبي فطار، وغدا، وعشا كمان.

تساءلت ببراءة:

ـ إزاي دي؟!

رد الجالس جانب مقعده:

_ عندنا ليك شغل هيساعدك تجيبي فلوس لأهلك، اركبي يلا بقى عشان ما نتأَخرش.

اتسعت ابتسامتها، مسّدت جلبابها، وشعرها، تُحاول هندمة مظهرها، حاولت فتح باب السيارة؛ فلم تستطع، فتحه لها أحدهما، وقبل أن تجلس نظرت للمقعد، ثم تجوّلت بعينيها في السيارة حتى وقعت على علبة محارم موضوعة أمام السائق، فنظرت له بحرج:

_ ممكن تجيب منديل كبير يا بيه؟

نظر إليها كاتمًا ضحكته، ثم علّق بسخرية:

_ وهتمسحي بيه إيه واللّا إيه ده؟!

_ لأ. بس هحطه تحتي عشان العربية ما تتوسخش.

_ لأ، اركبي مش مشكلة؛ المشوار مش بعيد.

عاد بريق الأمل يلمع في عينيها، ركبت السيارة، ظلت تُعدد لهم مزاياها، وكم هي على حد قولها «لهلوبة» في الأعمال المنزلية، ولمّا لاحظت صمت الرجلين، راقبت الطريق في صمت من نافذتها حتى ملّت، فسألت بريبة:

_ هو مش إنت قلت إن المكان مش بعيد! إحنا كده بعدنا أوي، وعوّقنا، وأمي هتزعقلي.

رد الجالس جانب كرسي السائق:

_ ما تخافيش يا ورده، قربنا نوصل، خدي كلي الساندوتش ده عشان ما تتعبيش معانا في المشوار اللّي هنروحه.

لاح الفرح في عينيها وهي تنظر للشطيرة، تناولتها منه، وعلى الفور دفعتها بين أسنانها خوفًا من أن يُغير رأيه. ظلت تلوكها بنهمٍ،

وهم يبتسمون لها، التهمتها سريعًا وبدأت تمسح فمها من بقايا الطعام بظهر يديها النحيلتين، ناولها زجاجة ماء فرفعتها لفَمِها، وشربت حتى الثُّمالة، ناولته الزجاجة وشكرته داعيةً له، تتأملَ الطريق من خلف نافذتها مُحاولةً قتل الملل حتى تصل للمكان المزعوم، شردت وشرعت في بناء أحلامها، مرَّت دقائق وبدأت تشعر بثقل جفنيها، هزت رأسها ولا فائدة! عادت تهزها بعنفٍ لكنّ الخِدر بدأ يسري في جسدها، وجفونها تُطبق على عينيها، لا تدري ما الذي حدث لها، لم تكن ناعسة ولم تشعر بهذا الضعف من قبل! شُوّشت رؤيتها، ظلت تُغلق وتفتح عينيها، بدأ كل شيء يبيضّ من حولها، ثم يعود للون الأسود تدريجيًّا حتى غابت عن الوعي، وسقط جسدها النحيل على الأريكة الخلفية للسيارة، نظر الراكب جانب السائق لزميله، وكأنه يُعطيه الإشارة فتوقّف على جانب الطريق، نزل ودسّ جسدها أسفل أريكة السيارة بعد أن أخرج شريطًا أسودًا من جيب سُترته، وغطّى عينيها.



يومًا ما قُلنا لن نفترق إلّا بالموت، تأخّر الموت وافترقنا..!

محمود درويش



ليلة حالكة، السماء خالية من نجومها وقمرها مُحاق، طريق من الإسفلت على جانبيه تراصَّت الأشجار متلاصقةً، تتشابك أغصانها وكأن كل شجرة تمد ذراعها لأختها بحثًا عن الدفء والأمان في هذا الطريق الموحش، الصمت يحفُّ المكان إلا من صوت رياح كعويل الأيامى، حفيف الشجر، عواء ذئاب تسكن الجبل الممتدَّ بطول الطريق، صرصور الليل ونقيق الضفادع، أو صوت بعض السيارات التي تشق الطريق مُسرعةً؛ أملًا في أن تنتهي ظُلمته، فجأةً شقَّت هذا الصمت طلقات رصاص تبعتها صرخة، إنّها قادمة من وسط الأشجار، هناك فتاة تجري بكل ما أوتيت من قوة، وقفت لاهثةً، نظرت خلفها ثم تابعت الركض حينما لمحت الرجلين اللّذين يحاولان اللحاق بها، ترتعد فرائصها راكضةً بلا هدف، اختبأت لاهثةً مصدومةً خلف إحدى الأشجار الضخمة، مازالت لا تُصدق ما رأته للتوّ، تمنّت لو ماتت قبل هذا اليوم، تبكي بخوف وألم، ارتفع وجيبُ قلبها، وظلت تدعو الله أن يُنجيها حينما سمعت وقع أقدامهم تدكُّ الأوراق الذابلة، وكأن خطواتهم تدكُّ قلبها، اقترب الصوت منها، هرولت مُسرعة فسمعوا خطواتها، أطلق أحدهما رصاصةً في الهواء؛ فصرخت ومازالت تركض، خارت قوتها، وقعت أرضًا، اقترب أحدهما من الإمساك بها؛ فأمسكت في قبضتها حجرًا وألقته في وجهه، صرخ مُتألمًا فزحفت واستطاعت النهوض، خرجت من بين الأشجار، ونظرت خلفها فوجدتهما على مقربة منها، وبدون تفكير هرولت مُرتاعةً نحو الطريق غير عابئة بطلقات الرصاص،

التي تُلاحقها فإذا بصوت فرملة، وصرختها الأخيرة قبل أن تصدمها سيارة مُسرعة على الطريق.

***

في قسم الشرطة بإحدى قرى صعيد مصر، يقترب عسكريّ من أحد المكاتب حاملًا كوبيْن أحدهما به عصير ليمون والآخر قهوة. طرق الباب حتى أتاه الإذن بالدخول، أدّى التحية، وضع الكوبيْن على المكتب، ثم خرج بعد أن كرر ما فعله حينما دخل، ضابطان جالسان منهمكان بقراءة بعض الملفات، يرفع أحدهما ساقيه، ويسندهما على المنضدة الصغيرة الموضوعة أمامه، يتناول كوب العصير، ويرتشف منه رشفة، ثم ينظر للآخر قائلًا بلهجة صعيدية:

_ اشرب قهوتك يا عمّنا، هتبرد زي اللّي فاتوا.

دون أن يُجيب، رفع كوب القهوة لفمه، وأنزله فارغًا، فدُهش زميله:

_ القهوة مولّعه، وبعدين دي بالذات حلاوتها إنها تتشرب بمزاج واحدة.. واحدة.

ضحك وهو يُجيب:

_ طبْ قوم يا بتاع المزاج إنت، روّح كفايه كده سهَّرتك معايا.

_ طبْ وإنت هتروّح إمتى؟

_ بعدك على طول، هرتّب بس الملفات دي، وأرجّعها مكانها.

_ طيب هقوم أنا عشان خلاص فعلًا دماغي قفّلت.

نهض، تمطّى ثم تناول سترته، ورحل بعد أن ودّع زميله الجالس خلف المكتب، شاب جاوز عقده الثالث بعامين، ذو وجه بلون

قمحيّ، لفحته أشعة الشمس الحارقة، فتركت بصمتها لامعة عليه لتُكسبه وسامة فوق وسامته، عيون سوداء ثاقبة تتربع تحتها الهالات لتُوحي بمدى إرهاق هذا الوجه وسهره ليالٍ طوالاً. عبث بشعره الأسود الكثيف، أغلق ملفّاته ووضعها جانبًا، تمطّى ثم نظر لساعته، فرك عينيه بأنامله برفق ثم نهض، حينما وقف تبيّن أنّه فارع الطول، عريض المنكبين، تناول سترته وارتداها، ثم طقطق رقبته وأصابعه، يُحرّك كتفيه وذراعيه كممارسة لبعض التمارين الخفيفة، ليخفّ ألم ظهره ورقبته، تناول أغراضه وغادر إلى سيارته، وصل إلى استراحته مكدودًا، يتجه نحو الباب بتثاقل، يفتحه.. ويده تحفظ طريقها نحو مفتاح الإنارة، ضغط الزر فتبددت الظلمة التي كانت تسود المكان، كم يتمنى أن يكون هناك زر بسهولة.. زر الإنارة هذا في قلبه، فقط بضغطه من أصبعه تتبدد العتمة التي تسكنه!

ألقى مفاتيحه وهاتفه، خلع سترته، حذاءه، وحامل مسدسه، وألقاهم على أحد الكراسي، ثم فرد جسده على الأريكة، شرد في سقف الصالة، يُحاول دومًا إقناع نفسه أن كثرة ساعات العمل بلا انقطاع هي سبب الألم الذي ينخر في عظامه، لكنّ أحدًا لم يجبره على هذا الاختيار! هرب بروحه المتعبة من واقعية الحياة وزخمها إلى أحضان الألم والوجع ذاته «كالمستجير من الرمضاء بالنّار»! رفع كفّه أمام وجهه، وتحركت كرتا عينيه السوداويين نحو الخاتم الذي يُطوّق بِنْصره، خاتم فضّي كُتب عليه «صِباي» التمعت عيناه وهو يتأمله، هَا هي الأوجاع- كعادة كل ليلة- تتكالب عليه، وتتربص به ريب المنون، شرد وغاب، تحديدًا إليها، يتذكر يوم أهدته الخاتم، كان

هديتَها بعد ثاني نجمة اعتلت كتف حُلّته. يوم صرّحت بموافقتها على الزواج منه؛ وعدها ذلك اليوم أن الخاتم لن يخرج من أصبعه حتى يموت، ضحكت وأخبرته أن روحها ستظل تسكن روحه طالما أن الخاتم يُطوّق أصبعه، تواعدا يومها ألّا يفترقا حتى الموت، يتذكر حينما التقاها أول مرة بعد زواجها، نظرت للخاتم ثم لعينيه بحيرة وتساؤُل.. لمَ لَمْ يخلعه؟! هي الآن لم تعد له، رحلت من حياته وانتهى الأمر! أجابَت عيناه ربما تكون القصة انتهت إلى هذا الحد عندها لكنّه لا، فقد شَربَ من كأس الحب حتى الثمالة و «من يشرب الحب يظل طول العمرَ سكرانًا»، لن يخلعه فهو لا يُريد لروحها أن تُفارقه، يراها أمامه ككل ليلة تتجلى بطيفها، يشعر أنّه جالسٌ بحقل من «اللافندر»، وأنفه تلتقط عبقها الذي يستنشقه الآن، ويكاد يُقسمٍ أنّها معه بالمكان! تُغادر روحه جسده، وتضم طيفها بقوة خشية أن يهرب، قبّل الخاتم وأغمض عينيه مخافةَ أن يتركها مُنتظرة في حلمه، فبدأ يستدعي سلطان النوم كي لا يتأخر عليها! غاص في أحلامه حتى منتصف الليل، صدح رنين هاتفه، لم يستيقظ فعاد الهاتف ليرنَّ مرة أخرى، استيقظ هذه المرة، ضغط الزر، ورفع الهاتف لأذنه مُغمض العينين، رد بصوتٍ ناعس، فجاءه صوت صديقه:

ـ أيوه يا عمر، أنا سالم تعالي حالًا على طريق الجبل حصلت حادثة.

ـ حادثة على طريق الجبل، ودلوقتي!

ـ أيوه، يلّا، الله يخليك ماتتأخرش.

_ حاضر مسافة السكة، سلام.

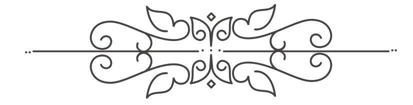
نهض بتثاقل، ووجد أنه كان ينام على الأريكة بملابس العمل، تمطّى ثم هنْدَمً ملابسه، تناول أغراضه ورحل مُسرعًا إلى مكان الحادث، وصل بعد ثُلث ساعة؛ فوجد سيارتيْ شرطة، وسالم يقف مع أحدهم، اقترب منهم فعلم أنه السائق المُتسبب في الحادث. الرجل يُقسم- وقد انتفخت أوداجه- أنّه لم يقصد، وهي التي خرجت فجأة من بين الأشجار، نظر سالم لعمر قائلًا:

_ عمر، أنا هفتح التحقيق معاه، وإنت روح ع المستشفى شوف اللّي اتخبطت دي حالتها إيه؟ ودوّر في هدومها يمكن تلاقي معاها بطاقة واللّا أي حاجة تعرّفنا هي مين، أو توصّلنا لأهلها.

قاد سيارته إلى المشفى، وجدهم هناك يُسعفون الفتاة، أمسكت إحدى الممرضات قطعة قطن كبيرة، وبدأت تمسح وجهها المُضرج بالدماء، كان يتحدث لسالم بالهاتف حينما نظر لوجهها خلال فتحة الباب الزجاجية بعد أن بانت ملامحها، تسمّر مكانه، أغمض عينيه ربما مازال نائمًا ويحلم! فتحها فوجد الأمر حقيقة، اهتز جسده فسقط الهاتف من يده، ونظر لوجهها مصعوقًا، دقات قلبه بدأت في الخفوت، يُحاول أن يتنفس لكنّ الأكسجين مُنع عنه، يُحاول دخول الغرفة.. وكأن الشلل استوطن أطرافه!

جلس على أقرب كرسيّ؛ فقدمه لم تعد تتحمل ثقل الصدمة، مازال لا يُصدق أن الأمر حقيقة يُخبر نفسه أن «لا مستحيل فكيف وصلت إلى هنا!». وقف ليتأكد إذا كان الأمر حقيقة أم أنه يتوهم

ويرى وجهها في كل امرأة من فرط اشتياقه لها، دفع باب الغرفة فوجد الأطباء والممرضات منهمكين يحاولون إنقاذ حياتها. دقق النظر فتأكدت عيناه، اقترب منها أكثر، يهز رأسه ويُتمتم كالمحموم «مش ممكن!، مستحيل!». بدأ يغيب عن الوعي، شُوّشت رؤيته وخارت قوته حتى أنه لم يشعر بالممرضين وهم يدفعونه لخارج الغرفة، يشعر أنّ ثمة سمًّا زعافًا يتسرب الآن إلى ثنايا جسده! سقط أرضًا، وأظلمت الدنيا من حوله..



سأل الممكنُ المستحيلَ: أين تُقيم؟

فأجاب: في أحلام العاجز ...

رابندراناث طاغور





في أحد مستشفيات القاهرة الخاصة، تقف امرأة أربعينية أمام غرفة العناية المشددة، تنظر من الفتحة الزجاجية لباب الغرفة، ولا تستطيع التصديق أن صغيرتها هي الجسد المسجى على الفراش، والخراطيم موصولة به من كل جانب، تشعر أن روحها شاخت فجأة، الدموع تسيل من عينيها بلا توقف، وأذنها تلتقط ضحكات طفلتها، غنائها ومرحها، حتى بكائها. يتجلّى أمام عينيها المشهد الذي لم تنساه يومًا حينما اقتلعها من بين ذراعيها، وهي تشد على يدها، وتصرخ «ماتسيبنيش يا ماما لوحدي؛ عشان خاطري». لا تعلم لم الآن تذكرت هذه اللحظة؟! ألأن الأحزان تكالبت عليها واتفقت مع الذكريات أن يجمعا جُلّ اللقطات الموجعة في حياتها لتمر أمامها الآن؟! أكان ينقصها وجعًا على ما فات فوق وجعها الذي يعتري قلبها لحال ابنتها! تنهدت بحرقة، ووضعت يديها على قلبها؛ تتضرع إلى الله بالدعاء، قطع دعاءها يدُ ابنة أخيها تربِتُ على كتفها وتواسيها، نظرت بعيون دامعة:

_ عشان خاطري يا عمتو، روَّحي إرتاحي شوية، من وقت ما نقلناها هنا مابتتحركيش من جنب العناية.

_ لأ يا منى مش هتحرك من هنا غير وبنتي واقفة على رجلها.

_ والله أنا مش همشي، هفضل جنبها لحد ما تفوق، وهبلّغك. ماتقول حاجة يا بابا!

رد أبوها الواقف جانبها:

_ يلا يا هدى، كفاية إني خليتك تباتي هنا امبارح، وبعدين مش عاوزين حد من ولاد عمّها ييجي يشوفك وتحصل مشاكل،

وخصوصًا جوزها. كفاية إننا نقلناها من المستشفى العام من غير ما نقولهم.

_ وهمَّا فين؟! واللّا فين جوزها! بقالها أسبوعين ع الحال ده ماشفناش حد منهم، وبعدين ييجوا أهلًا وسهلًا بيهم، مش هاممني حد، المهم عندي بنتي وبس.

_ طيب يلّا عشان خاطري، الدكتور قال قعدتنا دي ملهاش لازمة، ومفيش جديد.

_ لأ. هيبقى فيه إن شاء الله، قلبي بيقولي بنتي هتقوم وهتبقى بخير، أنا عارفه إني هضمها لحضني تاني، ده أنا اتْحرمت من حضنها سنين، واللّي كان مصبرني إنها عايشة مبسوطة، ونَفسْها في الدنيا، مش هستحمل بنتي تروح منّي يا عبد القادر! مش هستحمل.

اقترب من أخته، وأحاط كتفيها بذراعه، نظرت نحو الغرفة فسَرَى ألم في قلبها، وضعت يدها عليه علّ الألم يتوقف، دارت الأرض بها، وكادت تسقط لولا أن أسندها أخوها، وأصرّ أن تعود معه للبيت، لم تكن بحالة صحية تسمح لها بالجدال، انصاعت لأمره ورحلت معه بعد أن أوصت ابنة أخيها أن تُخبرها فور استفاقة فلذة كبدها.

وقفت أمام غرفة العناية تتأمل ابنة عمتها وصديقة طفولتها، أربعة عشر يومًا مضت، وهي هكذا مُسجّاة على فراش المرض، غائبة عن الدنيا، رغم كل ما حدث ظلت علاقتهما وثيقة، تخبرها بتفاصيل حياتها، وتستشيرها في أمورها.. لكن لم تخبرها- يومًا- عن المكان الذي وقعت فيه الحادثة، كل ما تتذكره أنها أخبرتها بإعدادها مفاجئة لزوجها لاقتراب ذكرى ميلاده، تُرى لِمَ كانت هناك في مكان بعيد

كهذا؟! أخرجها من تساؤلاتها وشرودها صوتُ قدمٍ تُهرول بحذاءٍ أنثويّ أصدر صوتًا مُزعجًا في ممر المشفى. نظرت ناحية الصوت لتجدها قادمة نحوها، وقدَمُها به عرجٌ بسيط، زفرت بضيق وتمتمت ببضعِ كلمات لا يتضح منها سوى «ربنا يستر!»، ثم نظرت لها وحيّتها باسمةً، نظرت لها الأخرى من رأسها حتى أخمص قدميها:

_ إزاي ماتبلّغوناش باللّي حصل!، وتنقلوها المستشفى دي بدون إذننا؟!

حاولت أن تُسيطر على أعصابها، وتتحدث بهدوء:

_ أظن مش منتظرين إذن حد عشان ننقل بنتنا من المستشفى العام؛ لأن أكيد هنا في رعاية أفضل ليها.

_ والله إحنا قادرين ننقلها أحسن مستشفى، ونسفّرها بره، مش محتاجين أي تدخل منكم، وياريت تبلغي عمتك ماتفكرش تيجي هنا.

صكت أسنانها بغيظٍ، ثم تبعتها بابتسامة سخرية:

_ أنا حاولت أبلغك بعد ما عرفنا باللّي حصل على طول لما لقيت موبايل أخوكِ مقفول، لكن إنتِ ماكنتيش بتردّي، وبعدها قفلتي الموبايل؛ لذلك اضطريت أبعتلك رسالة، وكنت فاكره إنك جايه تطَّمِّني عليها بعد غياب أسبوعين لا حسّ ولا خبر!، بس ما شاء الله جايه تتخانقي كعادتك! عمومًا هعتبر نفسي ماسمعتش كلامك. وبخصوص عمتي، فهي أحق واحدة المفروض تكون جنبها؛ لأنها أمها مهما حصل، وعمتي هتيجي ولو حد بس حاول يضايقها بكلمة؛ أنا اللّي هقفله.

أنهت كلامها ولم تنتظر الرد، دفعتها قليلًا لتزيحها عن طريقها، ذهبت لتُحضر كوبًا من القهوة، رمقتها «ميرال» بنظرات حادة، ثم اقتربت من الغرفة، نظرت إليها بحزن، كانت مريضة وقدَمُها مُلتوية، تعجّبت حينما وصلها اتصال من منى، ولأنّها لا تُطيقها؛ أغلقت الهاتف، وحينما فتحته؛ وجدت رسالة منها تُخبرها بما حدث. كاد قلبها ينخلع على ابنة عمها وزوجة أخيها، حاولت الاتصال بأخيها مرارًا فوجدت هاتفه مُغلقًا، أرسلت إليه رسالة عبر البريد الصوتي، لم تكن تقوَ على إخباره، فتح هاتفه فوجد رسالة تُخبره فيها أن زوجته مريضة بالحُمّى، ويجب أن يحضر فورًا، ولكن كذبتها لم تنطلِ عليه، لمّا ألحّ عليها؛ أخبرته بالأمر فكاد يُجنّ، قطع سفره واتصل بهاَ ليُخبرها أن موعد طائرته غدًا، وها قد حان الموعد، اليوم سيصل، تدعو الله أن تتعافى قبل وصوله فهي تعلم كم يعشقها ولا يقوَ على الحياة بدونها.

***

أحضرت كوب القهوة؛ فوجدتها تقف شاردةً أمام الغرفة، شعرت «ميرال» بقدومها، نظرت لها شذرًا، ثم إلى الساعة الذهبية التي تُطوّق معصمها، خطت بضع خطوات، ثم توقفت، ونظرت لـ منى:

ـ أنا رايحة استقبل «مازن» من المطار، يُستحسن تسمعي اللّي قولتلك عليه، عشان إنتِ عارفه كويس أوي إن مفيش أي اتفاق بين مازن وعمّتك!

نظرت إليها بِذَنَبِ عينيها، ثم ولّتها ظهرها دون أن تُعير اهتمامًا لما قالت توًّا، تمتمت «ميرال» غيظًا، وهي ترحل: «قليلة ذوق».

***

وصلت للمطار مع وصول الطائرة إلى أرض الوطن، ساعة أخرى وكان أخوها أمامها، شاب جاوز عقده الثالث بسبعة أعوام، متوسط الطول، له جسد رياضي، على قدر كبير من الوسامة، بشرة بيضاء، شعر بني كثيف وطويل، ذقن غير حليقة بعض الشيء، وعيون حادة رغم زُرقتها الملفتة، هرولت نحوه وارتمت بين ذراعيه، ضمّها بحنانٍ، ثم طبع قبلةً حانية على جبينها. وبعد السلام، سألها مُتلهّفًا عن زوجته، لم يكن ردّها مُطمئنًا، حاولت إقناعه بالذهاب للبيت أولًا؛ ليستريح من وعثاء السفر، إلَّا أنّه رفض، لن يهنأ قلبه براحة قبل أن يطمئن برؤيتها؛ لذا طلب أن تصحبه إليها، قادت سيارتها إلى المشفى، كانت منى جالسةً جانب غرفة العناية، تارة تطمئن عليها بنظرة خلال النافذة الزجاجية التي تنتصف الباب، وأخرى تجلس جانب الغرفة، كانت تتحدث إلى والدتها بالهاتف حينما لمحت «ميرال» قادمة وجانبها مازن، استأذنت وأنهت المكالمة، اقتربت منهما، بابتسامة هادئة:

_ حمدًا لله ع السلامة يا مازن.

_ الله يسلمك.

قالها مقتضبًا، وهو يخطو نحو الغرفة، وقف أمام النافذة مذهولًا ينظر لحبيبته، أغمض عينيه فلا يتحمل رؤيتها هكذا، يودُّ لو يفديها بروحه، فتح عينيه حينما أتاه صوت منى:

_ ماتقلقش؛ إن شاء الله هتبقى بخير.

سألها ومازال ينظر نحو حبيبته:

_ إيه اللّي حصل يا منى؟

_ معرفش! آخر مرة كلمتني كانت من ٣ أسابيع تقريبًا، قالتلي إنها بتحضرلك مفاجئة لإنك راجع قبل يوم ميلادك بيوم، وما قالتش أي تفاصيل تانية بعدها موبايلها اتقفل قلقت عليها جدًّا، روحتلها الفيلا وشقة باباها كمان، ما لقتهاش، قلت يبقى أكيد ده من ضمن المفاجئة. وبعدها بيوم، عمر بلّغنا بالخبر، استغربت إنها تكون موجودة في الصعيد، وعلى طريق سريع في نص الليل!

_ الصعيد! ده أنا ماصدقتش «ميرال» وهي بتحكيلي قلت سمعت غلط! إيه اللّي هيوديها هناك!

_ معرفش! إحنا وصلنا الخبر، وسافرنا الصعيد، بعدين نقلناها على مستشفى خاص عشان العناية هنا أفضل.

_ خير ما عملتم، طيب واللّي خبطها؟

_ عمر مهتم بالموضوع ما تشيلش همّ.

أومأ برأسه، وابتسم بامتنان، ابتعد نحو النافذة الموجودة بآخر البهو، شرد قليلًا، ثم عبثت أصابعه في جيبه بحثًا عن علبة سجائره، أخرجها، نظر لها مُبتسمًا وهو يفتحها ويُخرج ورقة ملفوفة داخلها، قرأ المكتوب فيها بعيون دامعة:

«ممنوع التدخين يا أفندي، التدخين يدمر الصحة، وأنا محتاجة لنَفَسك في الدنيا عشان أعيش، إنت سندي، فيا ريت ماتملّش عشان أنا سانده عليك».

لا تعلم أنه الآن ظهره محنيًّا، اتضح أنه من كان يستند عليها والآن مال لميلها، يتذكر كيف كانت تُفتّش ملابسه وأغراضه، وحينما تجد علبة سجائر تُفرغها وتترك له رسالة بدلًا من الأعقاب، هو الآن ما

عاد يهمه إن كانت سيجارة ستحرق نفسه، فهي- بالفعل- تحترق بغيابها، ما عاد يهمه أن يموت ببطء، فها هي روحه تخرج منه رويدًا رويدًا، اقتربت «منى» وتنحنحت لمَّا وجدته شاردًا، مسحت أنامله عبراته سريعًا، ثم التفت إليها، تلعثمت قليلًا، ثم تشجّعت وهي تطلب منه أن يترك الخلافات جانبًا، ولا يُضايق عمتها حينما تزور ابنتها، فردّ بسخرية:

_ ويا ترى.. كانت فين الأم دي لما خانت جوزها، وسابت بنتها، واتخلت عنها عشان تعيش حياتها؟!

_ حرام عليكم يا مازن، كفاية بقى ظلم لعمتي.

_ بصّي يا منى، أنا دلوقتي لا فايق لعمتك، ولا لحوراتها- الله يكرمك- أنا فيا اللّي مكفّيني، وأظن بنتها- نفسها- أول ما تفوق مش هترحب بيها، ولا هتكون مبسوطة بشوفتها، وإنتِ عارفة كده كويس.

_ عارفة، بس أرجوك سيبها تيجي تشوفها من غير مشاكل، على الأقل لحد ما تفوق ونطَّمِّن عليها.

زفر بضيق:

_ ربنا يسهّل يا منى.

بعد مرور ساعتين، حضرت هدى تتوكأ على ذراع أخيها، حينما وصلت للغرفة نظرت لميرال ومازن بحنق، فبادلاها نفس النظرات النارية، ثم نظر مازن لمنى فوجدها ترجوه ألّا يفتعل الخلافات، فلا وقت لها الآن، زفر، ثم قال:

_ هنزل أشرب قهوة؛ عشان مصدع، تعالي معايا يا ميرا.

نزلت مع أخيها مُتعجبة من ردّة فعله الباردة، كانت تتوقع أن يطردها لا أن يترك لها المكان! لامتْه فطلب أن يضعوا الخلافات جانبًا، قلبه قلق على روحه الغائبة ليس هناك مُتّسع في قلبه الآن ليكره هدى.

***

عسعست ليالٍ وتنفّست أصباح، ومرَّ شهر دون جديد، حالتها كما هي، وحزنهم كما هو، بل زاد والأمل يخبو من روحهم يومًا تلو الآخر، كانوا مُجتمعين أمام غرفتها إلى أن جنّ الليل، وانتهت الزيارة، وكعادة كل ليلة يرحل الجميع تاركين «مازن» جانبها آملًا في أن يأتي صباح مُعطر بأنفاسها يقتل الظلمة التي أصبح يعيش فيها، أصبح أشعثًا وطالت لحيته، كسَا الهمُّ ملامحه، واختفى بريق عينيه، سحب كُرسيًّا، جلس جانب سريرها، وظلَّ يتحدث إليها، وهناك من يراقب الغرفة مُختبئًا، وصله اتصال، رفع الهاتف إلى أذنه، ومازالت عيونه مُتربصة:

_ لسه ما فاقتش.

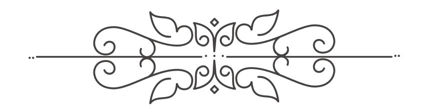
_ نفذ المهمة، وصفّيها لو فاقت مش هيكون من مصلحتنا.

_ تمام يا فندم.

أغلق الهاتف، وضعه في جيب سترته، أخرج من جيبه قُفازيْن من الجلد، ارتداهما، ووقف مُنتظرًا يُراقب الغرفة.

***

غفا مُمسكًا بيدها، استفاق في منتصف الليل، لم يعد يحتمل ألم رأسه، تمطّى وفكّر في شراء كوب من القهوة. طبع قبلة على جبينها، خرج وأغلق الباب وبعدما اختفى من الممر، كانت هناك قدم تخطو بتأنٍّ نحو الغرفة. فتح الباب بهدوء ودخل، أخرج مُسدسًا كاتمًا للصوت، وصوّبه نحو رأسها، وضع أصبعه فوق الزند، وقبْلَ أن يأذن للرصاصة بالخروج عدَلَ عن الفكرة، أعاده إلى جيبه واقترب من الأجهزة المتّصلة بجسدها، أنهى مهمته وخرج مُسرعًا، ثوانٍ.. وبدأ جسدها يهتز من أثر انقطاع الأجهزة عنه.



قبل ذلك بثمانية أشهر..

إنّها الصدمات!

كخناجر تُطعن خِلسةً في ثنايا القلب؛ فتعجز كل الكلمات عن وصف الألم، وتبرعُ لغةُ الصمت، تلك اللغة التي تحكي ما لا تستطيع الكلمات وصفَه؛ فلذا نقرر- أحيانًا- أن نرتدي عباءة الصمت؛ لنستر عورةَ أحزاننا.

ندا سليمان



ظلّت تجري ولا تعلم ما الذى يُخيفها، ولا مِمَّ تهرب؟! الظلامُ دامسٌ حولها، تبحث عن شيء تجهله، ظهر بصيصُ ضوءٍ من بعيد، هذرمت نحوه وهو يقترب منها كلما اقتربت، توقّفت حينما سمعت صوتًا يُصاحب الضوء، دققت أكثر، يا إلهي إنه قطار! حاولت أن تهرب.. ولكنّ الشلل استوطن أطرافها فتسمّرت مكانها، تصرخ ولكنّ صوتها محبوس داخلها، صُمّت عن الأصوات من حولها خلا صفير القطار القادم نحوها مُسرعًا، اقترب القطار أكثر.. وأكثر، وفجأة.. رنّ جرس المنبه للمرة الثالثة، إنّها الحادية عشر صباحًا، ومازالت في سريرها، ضربت رأس المنبّه ولا تدرى أهي هكذا تشكره؛ لأنه انتشلها من غياهب كابوسها، الذي أصبحت تراه باستمرار، أم تلومه لأنه أفاقها من نومها الذي صارعت طوال الليل؛ كي يزورها طيفه! اختارت النوم للهروب من صدمتها، ولكنّه يُجافيها وإذا أتى تكون بصحبته الكوابيس، تتقلب في سريرها، وتتحايل عليه؛ ليعود إليها، ولو لدقيقة أخرى ولكن دون جدوى، رفعت يدها ومسحت حبات العرق اللامعة على جبينها، ابتلعت ريقها فتقلّصت ملامحها وكأنما ريقها علقم في حلقها! تنهدت، وحاولت النهوض بجسدها المُثقل بالهموم والأوجاع، حملت المنشفة، ومضت تجر قدميها في بطءٍ معتاد لمستيقظ لتوّه، استوقفها وجهٌ غريب، دققت بصورتها في المرآة، وكأنما تتعرف على وجهها من جديد، صارت كغُثاءٍ أحوى! هرب جمالها، لم يبقَ لها سوى وجه كئيب، عينان حمراوان، السُّمرة تفترش تحتهما مُعلنةً الحداد على بسمتها، التي ماتت منذ ما حدث، عينٌ جفاها الكرى؛ فأصبح جفناها يقتربان من الإطباق على عينيها، تفرّع التشقق

في شفتيها، واختفت الحُمرة التي كانت تُزيّنُ خدّيها، أغمضت عينيها لثوانٍ، ثم تركت صورتها في المرآة، وخرجت إلى المطبخ باحثة عمَّا تُسكِت به صراخ معدتها، أصبحت لا تجد طعمًا لشيء، فقط تأكل لسدِّ حاجة جسدها! حملت كوب الشاى وشطيرة الجبن، وسحبت نفسها إلى الصالة، تأخذ قضمةً من الشطيرة ورشفةً من الشاي، فتحت التلفاز، تُقلب من قناة لأخرى بلا هدف. وفى النهاية، أغلقته بملل، قلّبت بصرها بين الجدران الأربع، والسقف الذي بدأت تشعر أنه سينطبق عليها، لمحت شاشة هاتفها تُضيء، أحدهم يتصل لكنّها كعادتها لم تُولِهِ اهتمامًا، نهضت إلى الشُرفة تُراقب الحركة المستمرة والصخب الذي يعجُّ به الشارع حتى شعرت بدوّار فعادت إلى الصالة، رمت جسدها على الأريكة، فإذا بجرس الباب يرن، لم تكن لتفتح لولا أن أزعجها صوت الجرس، اقتربت من الباب، وبصوتٍ يكاد يُسمع سألت من الطارق، فجاءها صوت امرأة قائلةً: «أخيرًا يا «صِبا»، افتحي أنا «منى». فتحت الباب، ودون أن تنظر لها عادت كما كانت، واستلقت على الأريكة.

ـ إيه يا بنتي! ما بترديش على الموبايل ليه؟ بتِّصل من يومين، وإنتِ ولا على بالك، إفتكرت لا قدَّر الله حصلك حاجة.

ردَّت بسخريه:

ـ ما تخافيش، مش هنتحر، لو عاوزه أنتحر كنت عملت كده من زمان، وريّحت نفسي.

ـ صِبا، ما تقوليش كده، حرام تقلقينا؛ مش كفاية بقى؟ وبعدين حرام عليكِ، مامتك هتموت من القلق.

تنهدت، ثم ردت دون أن تنظر لها:

_ والله أنا ما قُلتش لحد يقلق عليّا، وخصوصًا عمتك، دي بالذات آخر همّي، أنا تمام ومرتاحة كده، سيبوني في حالي بقى.

_ مرتاحة؟ إنتِ بتضحكي على نفسك، واللّا على مين؟! إنت مش شايفة منظرك بقى عامل إزاي؟ فين «صبا» المرحة، القوية اللَّي مفيش حاجة تهزمها!؟ فين «صبا» اللّي بتحب الحياة بروح صافية؟!

ردَّت سخرية:

_ هه، خلاص «صِبا» اللّي بتقولي عنها دي انتهت، ماتت.

_ تفتكري دكتور «زين» لو عايش ومعانا دلوقتي هيبقى مبسوط بمنظرك ده؟، واللّا كان هيسمحلك تعملي في نفسك كده!؟

نبشت بجرح قلبها حينما نطقت اسم «زين»، سرت رعشة في جسدها، للحظة كادت أنفاسها تهرب منها، نظرت إليها وردّت:

_ منى، ممكن تريّحي دماغك، وتريحيني، وتمشي من هنا؟، ما تشغليش بالك بيّا، وبلاش تروحي وتيجي عليّا لو سمحتِ يا منى، روحي؛ أنا كويسة.

_ طيب يا صِبا، بـــس

قاطعتها:

_ أنا محتاجة أكون لوحدي، روحي أرجوك.

لم تجد بُدًّا من الرحيل؛ فطبعت قبلة على جبينها، ثم رحلت وأغلقت الباب خلفها، عاد الصمت يحوم في المكان، أمّا عن «صِبا» فقد غادرت هذا العالم، وذهبت في رحلة مع الخيال مقتفيةً أثر زَين

العابدين، كوّرت نفسها وشعرت بلمسة يده يمررها على شعرها، قبلتُه الحانية على خديها وجبينها، سمعت صوته يُطمئنها «أنا جانبك يا «صبا» روحي»، فتجمّد جسدها، وأصبحت لا تشعر بأطرافها، كوّرت نفسها أكثر، تريد أن تعود جنينًا، لا يرى من هموم الدنيا وأوجاعها شيئًا، فقط ينام مُطمئنًّا في حصنه المنيع، انخرطت في البكاء، لم تهدأ إلّا عندما رأته واقفًا أمامها مُبتسمًا، فعدّلت وضعها وجلست على الأريكة، تقوّست شفتيها لأسفل، ومسحت دموعها بظهر كفّها كالأطفال تنظر إليه قائلةً:

_ سبتني ليه فى الدنيا دي لوحدي!؟ علّمتني كل حاجة، ونسيت تعلّمني أعيش إزاي من غيرك! أنا عارفة إني أنا السبب، كان ممكن ألحقك بس أنا ضيعتك وسبتك تفارقني قدام عنيّا، أنا مش عارفة أعيش! ليه مشيت؟ ليه!؟

أخذت تُعاتبه، وتصرخ حتى وقعت مغشيًّا عليها.

***

خرجت «منى» باكية، تشعر بالأسى لحالها، وقفت قليلًا أمام باب الشقة تُفكر في العودة إليها، لا تود تركها وحيدة، حسمت أمرها، التقطت الهاتف من حقيبتها، واتصلت بعمَّتها، أخبرتها بما حدث وشكت لها حال ابنتها، رجتها أن تُحاول مرة أخرى وتأتي إليها، أنهت المكالمة، ولم تستطع إيقاف سيل دموعها المنهمرة، قلبها ينفطر على حال ابنتها، توضأت، صلّت، وظلّت تناجي ربّها أن يُثلج صدر صغيرتها ويحميها، أخذت تدعوه أن يُفرّج كربها، ويمنحها سعادة تُنسيها ألمَ تلك الشهور التي مضت بكل ما فيها،

وأن يغفر لزين ما فعله بها، ها قد زارها طيفُ الذكريات، نهضت مُتوجهةً نحو خزانتها، أخرجت جُعبة الذكريات القديمة، وعادت بها إلى سريرها، بدأت بصور زفافها، ترى نفسها فتاة عشرينية ترتدي فستانها الأبيض، وزينُ العابدين مُمسكًا بيدها، تبسّمت وهي تسترجع ذلك اليوم بكل تفاصيله، وكأنّه يحدث أمامها الآن، عادت لخزانتها وفتحتها؛ فإذا بفستانها كما هو غيْر أن الزمن غيّر فيه شيئًا، أو ربما تلوّن بالحزن لفراقه،لم تكن تعلم أنّها تُحبّه لهذا الحد، ظنّت بعد ما فعله بها أنّها كرهته، لامست فستانها بأناملها، وشريط الذكريات يمرُّ أمامها، تذكّرت ملابسه التي وضعتها خفية وسط ملابسها قبل أن تُغادر البيت بعد طلاقها، فتحت الناحية الأخرى من الخزانة؛ فانتشرت رائحته في المكان، ملابسه كما هي، وكأنه خلعها البارحة، تحتضنها وتشم رائحته فيها، ربما تكون الرائحة قد اختفت مع مرور الزمن، لكنّها محفورة في ذاكرتها، وقد استحضرها أنفُها الآن حينما تجلّت ذكراه، جال بخاطرها اتّهامُه لها بالخيانة، ومعاملته لها بقسوة، حتى اضطرها لطلب الطلاق، تشعر بمرارة الظلم الذي تعرضت له، أغمضت عينيها، وتمتمت.. «الله يسامحك، ويغفر لك يا زين».
تذكّرت شيئًا ما؛ ففتحت درج صِوانة سريرها وأخرجته، عادت بجذعها للخلف مُتّخذةً وضعًا أكثر راحة على حافة سريرها، وتأمّلته في حيرة، عقلها الآن مشغولٌ بذلك اليوم، حينما اتصل بها قبل وفاته بأسبوع، وطلب مقابلتها، تعجّبت من اتصاله المفاجئ، ولكنّها بدّلت ملابسها، وذهبت لمقابلته على الفور. وصلت للمكان فَلَاحت على شفتيها ابتسامةٌ مريرة، تغيّر بعض الشيء، ولكن مازالت عيونها تحتفظ

بملامحه القديمة، وتراها أمامها الآن رغم التعديلات الطارئة عليه.. تمسح المكان بعينيها، وينتابها إحساس الراحة الذي كان يجتاحها كلما أتت معه، تنهّدت وأكملت طريقها للداخل، لمحته فسَرَت قشعريرةٌ في جسدها، كانت تظن أنه أعدى أعدائها حتى لمحته عيناها، فنزلت سكينة، افتقدتها كثيرًا على قلبها، وتيقّنت أن لم يكن لها صديقٌ غيره، حتى وإن لم يكن وفيًّا، تجاهلت إحساسها وأخفت اللهفة التي تملأ عينيها، اقتربت.. وسألت بوجهٍ مُتجهّم:

_ خير؟

_ ممكن تقعدي عشان نعرف نتكلم؟

جلست ومازالت تُحافظ على عبوس وجهها، ساد الصمت لدقائق، حتى تنحنح ثم تحدث- والندم يكسو صوته:

_ مش عارف أبدأ منين!، قبل ما أكلمك كنت بدوّر على كلمة تعبر عن أسفي، وما لقتش.

ضحكت بسخرية:

_ أسفك؟! لا.. هو إنتَ أهنتني! واللّا مدّيت إيديك عليَّا مثلًا!! واللّا حتى عملت حاجة بسيطة يداوي وجعها الأسف! إنت ناسي إنت عملت فيّا إيه يا دكتور!؟

ردّ، وقد ازداد الندمُ والرجاء في صوته:

_ والله ما ناسي ولا عمري نسيتك في لحظة يا هدى، أنا بجد آسف.

كانت تُحاول مستميتةً أن تأسر عتابها داخلها، ولكنّها فشلت هذه المرة، وردّت مُنفعلة:

ـ آسف على إيه واللّا إيه؟! على إنك في الأساس جيت اتجوزتني عشان بس شبه حبيبتك؟ واللّا على إهمالك ليّا بعد ما حققتلك الحلم، وخلفت، فبقيت أنا خلاص ولا حاجة في حياتك غير خدامة؟ واللّا آسف على اتِّهامك ليّا بالخيانة، وضربك، وقسوة قلبك اللّي خلتني عاوزه أهرب منك، ومن ظلمك بأي طريقة!؟ واللّا يمكن آسف عشان أخدت بنتي، وهربت، وحرمتني منها؟، وياريتك اكْتفيت بكده!! لأ. فضلت تزرع في قلبها الكره ليّا، أنا آذيتك في إيه يا زين؟! سألت نفسي كتير.. يمكن أكون عملتلك حاجة تديلك مبرر لكل ده! لكن مالقتش! كنت ساذجة، ولسه بحبك، لكن إنت عمرك في يوم ما قدّرت مشاعري، وأنا عارفة كويس أوي إن عمرك ما حبتني، بس ده مش ذنبي، ها.. شيفاك ساكت، ما قولتليش جاي تتأسف على إيه بالضبط؟!

صُدم من رد فعلها، كان مُعتادًا على أن يعتذر؛ فتقبل اعتذاره دون جدال، وأحيانًا لا يُصرّح به، تقرأه في عينيه فتقبله دون أن يتكبد عناء البوح بتلك الكلمة الثقيلة على نفسه، ابتسمت بسخرية وكأنّها قرأت ما يدور في خلده:

ـ إتغيّرت مش كده؟! كنت الزوجة المُسالمة، المطيعة اللّي تلّبي رغباتك من قبل ما تنطقها، وتيجي على نفسها، وتبلع مرارتها من غير ما تسمع آسف، بس عشان جوزها مابيحبش يعتذر!

ـ وهي دي المشكلة!

ـ نعم؟!

ردّ كمن يُحاول تبرئة نفسه:

ـ وإنتِ عملتي إيه؟ ما إنت أثبتّي شكوكي، وبعد سنة من طلاقنا.. إتَجوزتيه!

ـ حرام عليك يا زين، كفاية ظلم بقى، ربّي وحده يشهد إن عمري ما خنتك حتى بتفكيري، وأنا على ذمتك، إتجوزته بعد ما انت هربت ببنتي، عشان مالقتش غيره يساعدني أقف قصادك، وأرجّعها لكن ربنا ما أردش، والله يرحمه مات قبل ما نكمّل المشوار، ليه عملت فيّا كده يا زين؟ وراجع ليه بعد السنين دي كلها تقول آسف! عاوز مِنّي إيه؟!

ندم على ما قاله للتوِّ، وشعر بحماقته؛ فقد أتى هنا لتُسامحه لا أن يُعيد الكرّة ويتهمها!

ـ عاوزك تسامحيني، إنتِ أكتر واحدة في حياتي جيت عليها وظلمتها، بطلب منك تسامحيني؛ عشان أقدر أقابل ربنا، بصي أنا مش هقدر أقولك تفاصيل، لكن كل اللّي أقدر أقوله.. إنّي اتورطت في موضوع كبير، وممكن في أي لحظة تحصلّي حاجة، فعشان كده؛ أرجوكِ ريحي قلبي، وقولي إنك مسمحاني.

سألت بهلع:

ـ زين، في إيه؟ فهّمني!

ـ صدقيني، لو ينفع كنت قولتلك، مسمحاني؟!

ـ هبقى كدابة لو قولتلك دلوقتي إنّي مسمحاك من قلبي، أنا قلبي مش قادر يصفالك.

نظر لها بإحباط:

ـ طيب، توعديني لو حصلّي أي حاجة تسامحيني من قلبك بجد؟!

ردت بخوف:

ـ بعد الشر عليك.

أخرج من جيب سُترته مُغلّفًا أصفر، ونظر حوله بريبة، ثم تناول حقيبتها بهدوءٍ، ووضعه فيها، فسألته مُتعجبة:

ـ إيه الظرف ده!؟

ـ الظرف ده تحافظي عليه كويس، وضروري تسلّميه لـ«صبا» في إيديها لو حصلتلي حاجة.

ـ طيب أقدر أعرف فيه إيه؟ وليه أنا أديهولها! وإنت عارف إن بنتك بتكرهني بسببك!

ـ هدى، أرجوكِ كفاية مفيش وقت نجيب سيرة الماضي، ونفتح أبواب هتاكلنا نارها.

ـ طيب مادمت متورط في حاجة هتأذيك، «صبا» دخلها إيه؟!

ـ إزاي عقلك يصورلك إني هأذي صبا! ماتقلقيش «صبا» ملهاش دعوة بأي حاجة، ده جواب عادي كتبتهولها يمكن مالحقهاش لما ترجع من السفر، بس أرجوكِ يوصل لـ«صبا» في إيديها. بصّي أنا هقوم دلوقتي حالًا أمشي، وإنت إطلعي بعدي، بس مهما حصل حافظي ع الظرف.

ـ حاضر، بس أنا..

قاطعها:

ـ مفيش وقت يا هدى، وماتنسيش لو حصلّي حاجة؛ قولي لربنا إنّك مسمحاني.



وقف وتركها دون أن يُوضّح سبب توتّره الذي تجلّى على وجهه حينما لمح رجلين جالسين على مقربة منهما، كما أن بالها مشغولٌ منذ أخبرها بتورطه، تذكّرت المُغلّف، وشعرت بخوف شديد على ابنتها، لاحظت بعد خروجه أن نفس الرجلَين نهضا وذهبا خلفه، فعلمت أن الأمر ليس بهيّن. ذهبت إلى المرحاض، غسلت وجهها وأخرجت المُغلّف من حقيبتها، قلّبته بين يديها، ثم خبّأته في ملابسها خوفًا من أن يكون قد رآه الرجلان وهو يضعه في حقيبتها، ظلّت خائفة من الخروج، وبعد مرور نصف ساعة عادت مُسرعةً إلى بيتها، ولم تكن تخرج منه، حاولت الاتصال بـ «زين» كثيرًا؛ لتخبره أنّها سامحته، وتودُّ الاطمئنان عليه، ولكن هاتفه كان مُغلقًا، مر أسبوع وعَلِمَت بموته بعد أن صدمته سيارة، ظن الجميع أنه محضُ حادث، ولكن حدّثها قلبها أنه قُتل كما أخبرها في آخر لقاء، ذهبت للعزاءِ وطردتها ابنتها بعد أن جرحتها أمام الجميع، حينما جال بخاطرها ذلك اليوم وكفّ دمعها، كانت تؤجل إعطاء المُغلّف لها خوفًا من أن يكون له علاقة بمقتل زين، وتتورط هي الأخرى، لكنّها آثرت إعطاءها إياه؛ ربما يكون فيه سلواها، وأقنعت نفسها بأنّه كما أخبرها خطاب عاديّ، كتبه قبل موته ليُخفف عنها، وضعته في حقيبتها، بدّلت ملابسها وقررت الذهاب لابنتها.

***

تشعر أنّها في قعر بئر عميق، تسمع صوتًا يُنادي باسمها من بعيد، هناك زلزالٌ ضرب البئر، شيء يهزّها ويقترب الصوت الذي يُناديها أكثر، التقط أنفها رائحةَ عطر بدأت تزداد قوتها مع اقتراب الصوت

شيئًا فشيئًا، ها هي ظُلمة البئر تتبدد من حولها، وأصبح الصوت أكثر وضوحًا، رفعت جفنيها ودارت كُرتا عينيها حتى استقرتا على وجهه، ناظرًا لها بخوفٍ، حاملًا في يده زجاجة عطر، يرش على طرف كفّه ويُقرّبه من أنفها ليُساعدها على استعادة وعيها. أصبحت الرائحة تُزعجها؛ فهمست له أن يكُفّ ويُبعد الرائحة عنها، أغمضت عينيها قليلًا، فتحتهما ورفَعَت كفّها تفرك جبهتها من ألم الصداع، نظرت حولها فوجدت نفسها نائمة على سرير غرفتها، حاولت أن تعتدل، أسرع وساعدها، نظرت له بتساؤلٍ، فردَّ مُجيبًا على سؤال عينيها:

_ أنا جيت لقيتك واقعه في الأرض، إيه اللّي حصل!؟

ربتت على كفه؛ لتُطمئنه:

_ ماتقلقش، أنا بس دُخت شوية ووقعت، ما حصلش حاجة.

لم ينبس ببنت شفة، تأمّل ضعفها لبرهة، ثم ضمّها بين ذراعيه بقوة؛ ليبثّها ولو قليلًا من قوّته، فبدأت أمطار عينيها في الهطول حتى صارت سيلًا، ضمّها أكثر، يُربت على ظهرها، ويُطمئنها بكلماتٍ حانية، لم ترد، وربما لم تكن تسمع كلماته، هي ليست بحاجة لكلمات، فقط تحتاج ضمّةً من أيٍّ كان، ضمةٌ تُلملم شتات قلبها المكلوم، تعالى صياحُها كصياح طفل ضائع عاجز، سكتت قليلًا ثم رجَتْه، ومازالت تختبئ فيه:

_ ودّيني شاليه بابا في إسكندرية.

سأل مُندهشًا:

_ إسكندرية دلوقتي يا صبا؟!

ردّت صارخة:

_ أيوه، أنا عاوزه أروح، ودلوقتي حالًا.

ردّ ليهدّئ من رَوعها:

_ حاضر، حاضر، اللّي تشوفيه، بس إهْدي عشان خاطري.

حاول تهدئتها بشتى الطرق، لكن دون جدوى؛ فتركها تبكي بين ذراعيه حتى استكانت، مسح دموعها وطبع قبلة على جبينها، ساعدها لتُريح جسدها على سريرها، ثم تناول أغراضه، ورحل؛ ليُجهّز لرحلتهم، تمددت وظلّت شاردة حتى رنّ جرس الباب، تجاهلته، رنّ بإلحاح فتأففت، نهضت بوهن ربما نسى زوجها مفاتيحه، فتحت باب الشقة وتسمّرت مكانها لمّا رأَت الطارق!

تتأملُها هدى بحنان، وهي تنظر لها واجمةً، مضت بضع دقائق.. وهما واقفتان أمام الباب، تتفحص كلٌّ منهما الأخرى، حتى نظرت هدى نظرة تُذكّرها بدعوة ضيفتها للدخول، ولمّا لم تفعل أعطت لنفسها الحق في توجيه تلك الدعوة التي بخلت بها ابنتها عليها، أبعدتها قليلًا عن الباب، ودخلت تُقلّب ناظريها في أرجاء المكان، التمعت عيناها وهي تُسلّم على كل ركن في الشقة، حتى انتشلها سؤال «صبا» بصوتٍ شابته بعض الحِدّة «خير؟!».

أجابت دون أن تلتفت لها:

_ أكيد خير، إن أم جايّة تطّمّن على بنتها.

تعالت ضحكات «صبا» الساخرة:

_ أم؟! وكانت فين الأم دي من زمان يا ترى!

_ طول عمرها موجودة، وبتدّور عليكِ يا «صبا»، بس إنتِ ما حاولتيش تدوّري عليها.

اقتربت «صبا» بعينين مُغرورقتين:

_ تعرفي! حاولت أفتكرلك حاجة حلوة تشفعلك عندي مالقتش، كل ماتيجي على بالي أفتكرك بمشهد واحد مش قادرة أنساه.. وأنا بنت ١٢ سنة، وماسكة فيكِ وبصرخ «ماتسيبنيش يا ماما لوحدي عشان خاطري»، ساعتها.. كنت مُتخيّلة إنك هتضمّيني وترجعي، لكن فُقْت على صوت الباب وإنتِ بتقفليه وراكِ.

من المتوقع أن تُدافع عن نفسها لكنّها لم تتفوه بكلمة. وبدون سابق إنذار، ضمّتها لتمنحها الضمة التي تمنَّتها. في البداية، تصلّب جسدُ «صبا» ولم تتجاوب معها، بل حاولت إبعادها، لكنّ هدى أحكمت ضمتها حتى استسلمت في النهاية لها، وذابت في كينونتها. انصهرت بين أحضانها، فشدّت هدى ضمتها أكثر تستنشق رائحة صغيرتها، تشم رائحتها رضيعة تنام في سكينة بين ذراعيها، بدأتا في البكاء. يقولون إن ضم المشتاقين بعضهم لبعض يُنسى البُعد ولو كان دهرًا، لكنّ قلبها لم يستطع النسيان، كان أضعف من أن يمتلك قوة الغفران. دامت الضمّة لدقائق حتى انتزعت «صبا» نفسها باكيةً:

_ فات الأوان ع الضمه دي، بابا- الله يرحمه- قالي إن الحاجة اللّي بنتمناها لو ماجتش في وقتها في أي وقت تاني هتيجي فيه مش هيبقى ليها طعم ولا لازمة، وحضنك جاي متأخر أوي يا مدام هدى، اتفضلي من هنا، وجودك مش مُرحّب بيه.

حاولت الدفاع عن نفسها، أن تحكي لها عن مقابلتها بأبيها قبل وفاته، لكن لم تمنحها هذه الفرصة، ابتلعت هدى مرارتها، ولم تجد بُدًّا من الرحيل. وقبل أن ترحل أخرجت المُغلّف من حقيبتها، وضعته

على أقرب كرسي قابلها، وأخبرتها أنّ «زين» قبل وفاته أوصاها أن تُحافظ عليه حتى تُسلّمه لها.

قالت جملتها سريعًا، وهربت قبل أن تنفجر في البكاء أمامها، صكّت الباب، ووقفت خلفه تبكي بحرقة، وضعت كفّيها على فمها؛ لتحبس نحيبها داخلها، وفي الناحية الأخرى من الباب تقف «صبا» ملتصقة بِه، تبكي مُتذكّرة كم عانت في غياب والدتها، لا تُنكر أنّها كانت في أَمَسّ الحاجة لضمّتها وتمنّت لو تَطُول أكثر، أو يتوقّف الزمن عندها للحظة، نهضت، خطت خطوتين ولم يحملها قدمها فجلست أرضًا، رحلت هدى تمسح دموعها حينما رأت مازن واقفًا أمامها، فتح باب الشقة فوجد «صبا» تبكي بالأرض، ضامّة قدميها إلى صدرها؛ فأسرع إليها وضمّها، قالت وهي تمسح دموعها:

_ أنا عاوزه أسافر دلوقتي، هقوم أجهّز شنطتي بسرعة، ورجعالك.

دخلت غرفتها وكانت تعد حقيبتها حينما دخل حاملًا المُغلّف يسألها لمن هذا؟ أجابت ومازالت مُنشغلة بملء الحقيبة:

_ معرفش ما...

بترت كلمتها حينما شعرت بِثِقَلِهَا على نفسها، فلم تعتد قولها، زفرت ثم أكملت:

_ مدام هدى كانت عندي، وسابتهولي.

_ آه.. ما أنا شُفتها واقفة عند الباب، واستغربت وجودها!

لم تُجبه؛ فترك المُغلّف على صِوانة السرير وخرج. ملأت الحقيبة، وقبل أن تغلقها نظرت للمُغلّفَ، التقطته، ووضعته فيها.

***

الجوُ متناقضٌ كتلك التناقضات التي تعصف برأسها، الرياح غاضبةٌ تضرب كل ما يُقابلها بعُنف؛ فصار عزيفها مُخيفًا، السماء حزينة لحزنها، تحبس دموعها في غيومها، ورغم تلك الغيوم الشمس ساطعة في الأفق، اتجهت نحو البحر، وتحدَّت ثورة غضب الرياح بارتدائها فستانًا أصفر، يصل لما بعد رُكبتيها بقليل، ينحصر عند خصرها بحزام أبيض، وتنتهي أطرافه بنفس لون الحزام، كانت في تلك اللحظة تُشبهً «الأقحوان» زهرة النقاء والبراءة تمامًا كبراءتها. زهرة رغم روعتها مُرّة كمرارة أوجاعها، أسدلت شعرها البُندقيّ الطويل، فأخذ يتمايل ويطير بفعل تيارات الهواء الباردة التي تضربه بعنف، قد يُفضل البعض العيون الخضراء، الرمادية أو الزرقاء، ويرون أن لها جاذبية مُلفتة، لكن مساكين هم فلم يتأمّلوا يومًا أصحاب العيون العسلية وهم ينظرون للشمس! نظرت للسماء نظرة خاوية، وشردت بعيدًا، صوّبت الشمس سهامها نحو بؤبؤ عينيها العسليين؛ فأضرمت فيهما خيوطُ النيران لترسم مشهدًا لا يُبدَع في صنعه سوى خالق الأكوان، لوحة فنّيّة تأسر كلَّ من ينظر إليها كما أسرت ذاك الواقف يُراقب معشوقته من بعيد، تتخبطها الرياح بلا هوادة، بدأت تشعر بالبرد؛ فاحتضنت نفسها بذراعيها، تُمرر كفّيها أعلاهما بحثًا عن الدفء؛ فاقترب منها، خلع سترته وغطّى كتفيها العاريين، وهو يُمازحها:

_ مش قدّ البرد بنتحداه ليه؟

التفتت إليه دون أن تُعلّق على مزحته، ثم خلعت سترته، ومدّتها نحوه:

_ الْبسه عشان ما تبردش أنا لو متضايقة من البرد هدخل ألبس هدوم تقيلة بس أنا مرتاحة كده.

قالت جملتها، ولم تعطه الفرصة ليرد. عادت تنظر نحو البحر لتُخبره بطريقة غير مباشرة أنّها تود الجلوس منفردة؛ فآثر أن يُلبّي رغبتها ولا يقتحم حاجز العُزلة الذي وضعته بينها وبين عالم البشر، بحث عن جملة مناسبة يُخبرها بها بنفس طريقتها الغير مباشرة أنه لن يقتحم عزلتها، فلم يجد أفضل من:

«أنا بفتح التلاجة لقيتها فاضية، هنزل أشتري شوية طلبات، عاوزه حاجة معينة أجيبهالك معايا؟»

همست دون أن تلتفت «شكرًا»، ظلّ واقفًا في صمت لبضع دقائق يتأملها، مطَّ شفتيه، ثم رحل وتركها على حالها الصَّمُوت، وعزوفها الزاهد عن الحياة. خلعت حذاءها، اقتربت من البحر بخطواتٍ هادئة وقدمين تغرزين في الرمال فتلتصق بهما، شعرت براحة.. والرمال اللّينة تُداعب قدميها على الشاطئ، ضرب الهواء جسدها، وغمرت موجة قدميها، فابتسمت وأغمضت عينيها، تجلّى وجهه أمامها، ففتحتهما سريعًا، دائمًا تلجأ للهروب حينما تقبض على نفسها مُتلبّسة بجُرم التفكير فيه، تراه خائنًا كما خانت أمها أباها، نادمة على تحدّيها لوالدها دفاعًا عن حبها رغم رفضه له، وفي النهاية خانها لتترسّخ لديها قناعة أن كل ما يتعلق بوالدتها تشوبه الخيانة، حاولت أن تصرف نفسها عن التفكير فيه بـ «مازن»، لا تُنكر أنّها أحبّته، أو ربما أحبّت عشقه لها وحنانه عليها. على الأقل، هو لم يُفكر في خيانتها، كُلما فكّرت بـ «عمر» تؤنّب نفسها وتُعنّفها، مازن لا يستحق أن تخونه حتى ولو بالتفكير. تُحبّه لكن تشعر أنّ حبّها له ينقصه شيءٌ لا تعلمه، شيء لم تشعر به سوى مع «عمر»!

ها هي الذكريات- كعادتها- تُلقي بها بين براثن العذاب، ثمّة بكاء عالق في حلقها والحزن في جوفها يعوي كذئب جائع يأكل في قلبها ولا يشبع، تنهّدت بحرقة.. وهي تشهد معركة حامية بين السماء وشمسها، تأبى الشمس الغروب، ولكنّها لم تصمد أمام غضب السماء، ابتلعتها؛ فسالت دماء الشمس وخضّبتها بحُمرة الغسق، سُويعات وجشأ الليل؛ فألبسها ثوب حدادها الأسود، وكأنما السماء ندمت على فعلتها فندفت بالمطر، لم تبكِ لحظة وفاة أبيها، وبعد موته بأشهر!، كانت مدفوعة لأن تتحدث معه في عالمها الخيالي لا لأن تبكي، والآن شآبيب المطر أخبرتها أنّه حان وقت البُكاء لتُعوّض اللحظات التي كبّلت فيها دموعها. كم تُثيرها رائحة التراب المُوحلِ بالمطر! أغمضت عينيها وظلّت تستنشقها، زاد بُكاء السماء. وعلى هدير البحر العاصف، رفعت وجهها فصفعتها قطرات المطر بعنف. فردت ذراعيها، واستسلمت لتلك الصفعات، وكما كانت تفعل في طفولتها، فتحت فمها لتبتلع بعضًا من قطرات المطر؛ لعلّها تغسل الهموم العالقة بداخلها.

جلست أرضًا، وضمّت ركبتيها إلى صدرها بيديها، تتأمل البحر في سكون غريب غير عابئة بزخّات المطر، هدأت ثورة شعرها الهائج الذي كان يُقاوم الرياح منذ قليل، ابتلّ والتصق بها كما دبق فستانها بجسدها، شرودها لم يجعلها تنتبه إلى أنّ المطر ملّ غسل الأرض وهمومها، فتحوّلت زخّاته إلى قطرات رقيقة ناعمة حتى توقّف، ولم يبق منه سوى رائحة عشقه للتراب!

كم هي جائعة للدفء الآن، ولكنّها لا تقصد دفء الأغطية،

تقصد الجوع الذي ينتابنا حينما نشعر ببرد القلوب، حينما تعلو صرخات الوجع داخلنا، ونود غطاءً يكتم أنفاسه وصرخاته التي تصم آذاننا وحدنا. إنّه الحضن، غطاء القلوب الجائعة للدفء، ذلك الدفء الذي لم تجده سوى بين ذراعي «زين العابدين». قبضت على حفنة من الطين، قرّبتها من أنفها، وأخذت تستنشق فيها رائحة المطر، ثم نامت مُتكوّرة على نفسها كالجنين بين أحضان الأرض؛ لعلّها تُشعرها بضمةِ من صارَ يسكن في باطنها الآن!

***

لم يستطع العودة سريعًا بسبب زحام المرور وغرق شوارع الإسكندرية، ولمّا استطاع العودة إليها، بحث عنها في أرجاء البيت ولم يجدها، لم يتوقع أن تكون بالخارج في هذا البرد القارس، ولكن ما حدث بالفعل هو ما لم يتوقعه!

خرج، فجحظ عينيه لمّا لمحها على الأرض بالقرب من الشاطئ، هرول نحوها بهلع، كانت مُغمضة العينين تعيش في عالم الأحلام حتى اقتلعها منه وهو يرفع جسدها عن الأرض، نظرت له بانزعاجٍ وحينما لمحت نظرة الخوف في عينيه؛ ردّت بحنان:

_ ما تقلقش يا حبيبي، أنا كويسة.

تنفّس الصعداء وجلس جانبها، مرّر أصابعه بين خصلات شعره، ودُون أن ينظر لها تحدّث بنبرةٍ حادة:

_ ممكن بقى كفاية؟ لو سمحتِ يا «صبا»، قومي ادخلي معايا جوّه.

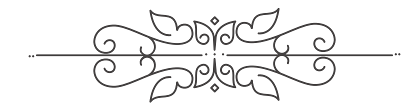
اقتربت والتصقت به، أسندت رأسها على كتفه؛ فهدأت ثورته، خلع سترته، وضعها على كتفيها ثم أحاطها بذراعه، طبع قُبلة حانية على جبينها، وظلّ جالسًا جانبها حتى عادت السماء لبكائها، فوقف وأسندها للداخل.

***

خرجت من المرحاض تشعر بقسطٍ من الراحة والاسترخاء، جلست أمام مرآتها، رفعت المنشفة عن رأسها، ثم أمسكت مُجفف الشعر، وشرعت في تجفيف شعرها، انتبهت في مرآتها إلى هاتفها المُلقى على سريرها وشاشته مُضيئة، يبدو أن هناك اتصالًا ما. أوقفت المُجفف، وقفت وتناولت الهاتف، وجدت ثلاثة عشر مكالمة من رقم غير مُسجّل بهاتفها، رفعت أحد حاجبيها وتأمّلت الرقم؛ لعلّها تتذكّر لمن يكون، فأضاءت الشاشة واهتز الهاتف في يدها، وصلتها رسالة من نفس الرقم، فتحتها لتجد «أنا دكتور إبراهيم نصّار، من فضلك يا مدام «صبا» لما تشوفي الرقم ده اتصلي بيه ضروري جدًّا، الأمر يخص دكتور زين- الله يرحمه».

فتّشت في زوايا ذاكرتها عن هذا الاسم؛ فلم تتذكره، بل لم تسمع به من قبل، ولمّا لاح أمام ناظريها اسم والدها اتصلت بالرقم. أتاها صوت أحدهم يتحدث بحذرٍ شديد، وسألها عن أمانةٍ ما يُريدها بأسرع وقت، ولا أحد يعرفُ المكان سواها. أنكرت، فسألها عن المُغلّف، شردت قليلًا ثم أنهت المكالمة بعد أن أخبرته أنّها ستتصل به في وقتٍ لاحق، ضاقت عيناها مُتذكّرةً شيئًا ما يتعلق بهذا المُغلّف واتسعت شيئًا فشيئًا.. وهي تتذكر يوم حادث أبيها. في ذلك اليوم،

كانت عائدة من رحلة صحبت فيها زوجها إلى باريس، خرجت لتتناول العشاء مع والدها، كانت تقف عند باب المطعم حينما رأته يُغلق سيارته، ويقترب منها مُبتسمًا، مُقبلًا نحوها فاردًا ذراعيه، كم هي مشتاقة لضمّته! وقفت تنتظره في لهفة، وفجأة صدمته سيارة مُسرعة أمام ناظريها، فغربت البسمة التي أشرقت منذ قليل على وجهها، هذرمت نحوه،كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، ظلّت تصرخ «إسعااف، باباا!»، أمسك يدها بوهن وكان يُغمغم بكلمات غير مفهومه، احتضنت رأسه، تبكي.. وتضّغط أزرار هاتفها في محاولة مُستميتة لتذكُّر رقم الإسعاف، شد خصلة من شعرها بوهن لتُقرّب أذنها من فمه؛ ففعلت، لم تفهم من غمغمته شيئًا سوى كلمة «الّظرف»، حينما تذكّرت الحادثة أمسكت رأسها بألم، تناولت حقيبتها مُسرعةً، وفتشت عنه، قلّبته في يديها، هناك رغبةٌ جامحة تجتاحها لشم المُغلّف وتقبيله، رغبة في اللّحاق بآخر شيء يحمل رائحة والدها، اختنقت دموعها في عينيها وهي تستنشق المُغلّف، تُجاهد في خنقها أكثر حتى أصبحت عيناها كالألق، سماء تبرق بلا مطر! مُتلهّفة لأن ترى ما كتب. فتحته؛ فوجدت أوراقًا مُرقّمة، وورقة صغيرة مطوية، فتحت الأولى وابتسمت حينما رأت خطه المُنمّق، تنهدت وبدأت القراءة.



لولا النسيان لمات الإنسان لكثرة ما يعرف، لمات من تخمة الهموم، والعذاب، والأفكار التي تجول في رأسه.

عبد الرحمن منيف



يرتشف قهوته على مهل، ويُفكّر فيها مُمنيًا نفسه أنّها ستستفيق صباحًا، ولا يدري أنّ أنفاسها تنسحبُ منها بالأعلى، جسدها مازال يهتز، والأجهزة لا تعمل، بدأ يخمد رويدًا رويدًا، واقترب رسمُ قلبها من الاستقامة. كانت إحدى الممرضات مارّة من جانب الغرفة ورأتها. دخلت مُسرعةً، واكتشفت أنّ الأجهزة الموصولة بجسدها مفصولة، أسرعت تُعيد تشغيلها بعد أن استدعت صديقاتها الساهرات تلك الليلة معها؛ ليُساعدنها.

***

يرتشفُ قهوته مُتأملًا في السماء، يشهق ويزفر ببطءٍ أملًا في التّخلص من الثقل الجاثم على صدره، كانت دائمًا تُخفف عنه وطأة أحزانه، تضمّه فيختبئ بين ذراعيها حتى يطمئن، تنهّد بحرقة، هو الآن في أمسّ الحاجة إلى ضمّتها، أصبحت- بعد وفاة أبيها- تستيقظ فزعةً ولا تطمئن إلا عندما يبني ذراعيه سدًّا منيعًا يحميها من فيضان الخوف. نهض إليها ربما تستيقظ ليلًا كعادتها وتفزع إن لم تجده، ذهب إلى المصعد؛ فوجده مُتوقّفًا بالطابق الأخير، ضغط الزر ليستدعيه مِرارًا لكن دون جدوى، رجّح أن أحدهم نسي غلق الباب جيدًا؛ فعلق المصعد هناك. انتظر قليلًا ثم ملّ الانتظار، خطى نحو السُلَّم وصعد درجاته بهدوءٍ لا يتناسب مع النيران المُتأجِجة داخله!

حينما وصل؛ وجد الممرضات يتدافعن نحو الغرفة، وهناك طبيب اصطدم به، ثم أكمل طريقه وهو يعتذر سريعًا نحو غرفتها. بدأت دقّات قلبه تهرب منه كما بدأ البرد يسري في جسده، وتجمّدت أطرافه، خائفٌ من أن يقترب فيُصدم بخبر لن يتحمّله، تحامل على نفسه



وهرْول نحو الغرفة، أخرجوه منها وأغلقوا الباب، ظلّ يُتابع عبر النافذة وهُمْ كخلية نحل، كلٌّ يعبث بجهاز من الأجهزة الموصولة بجسدها. بدأ الصفير يرتفع من جهاز القلبٍ، والرسم في طريقه نحو الاستقامة، ومعه تسكن دقات قلبه شيئًا فشيئًا، هناك ممرضة مُسرعة تدفع عربة موضوع عليها جهاز علم ماهيته حينما وجدهم يضعون أقطابه على صدرها فينتفض جسدها، ظلّ الطبيب يُجرب صدمها بالكهرباء، يفتح عينيها ويُسلّط كشافًا رفيعًا كالقلم، ثم يُعيد محاولة صدمها مرة أخرى، مُحاولة كادت تنجح في قتلها، ولكنّ الله أراد لها الحياة؛ فهو الذي يقول للشيء كن فيكون، صدمة أخرى بالكهرباء، وبدأ خط القلب يظهر اعوجاجه بالشاشة، ثوانٍ.. واستقرّ كل شيء، عادت لسكونها وغيبوبتها. تنفّسوا الصعداء، وخرج الطبيب ليُطمئن ذاك الواقف مذعورًا في الخارج. كان «مازن» يُتابع ما يحدث بتوتر بالغ، وترقُّب مرير، ومع عودة استقرار قلبها عادت دقات قلبهً تشتًعل من جًديد، جلس على أقرب كرسي فلم تعد قدماه تحملانه، وقف حينما رأى الطبيب خارجًا من الغرفة قادمًا نحوه، سأله عن حالتها، فطمأنه وعندما عَلِمَ أن الأجهزة فُصِلَت عنها؛ صرخ بعنفٍ في وجه الطبيب:

_ لا.. ده إنت جاي تهزر بقى!، دي روح، إزاي مستشفى محترمة وخاصة تسيب أجهزة ولو احتمال ١ ٪ إنها تفصل! لو كان حصلّها حاجة.. والله ما كنت هرحمكم.

_ يا فندم، إحنا مُتأكدين من سلامة أجهزتنا، ومع ذلك بنعتذر لحضرتك، هنتصل بفنّي يتأكد من سلامة الأجهزة مرة تانية، وأكيد اللّي حصل ده مستحيل يتكرر تاني.

_ من مصلحتكم إنّه مايتكررش.

قال جملته بنبرة تهديدٍ، ثم اتّجه نحو غرفتها، دخل فوجد ممرضتين تعتنيان بها، شكرهما وجلس جانبها كما كان، خرجتا وتركتاه حاضنًا كفّها بين كفّيه، تمرّدت الدموع على عينيه، دائمًا يرى الدموع ضعفًا، وهو يمقتُ أن يكون ضعيفًا، الآن يشعر أنّه أضعف مخلوق؛ لذا انفجر بالبكاء، يُقبّل يدها، ويرجوها أن تستفيق، يعتذر لها أن تركها تُقاسي وتتألم. يعتذر أن ترك طفلته تُواجه كلَّ هذا الخوف وحدها، ظلّ يبكي جانبها حتى غلبه النُّعاس، فأسقط رأسه جانب يدها.

***

أسفر الصبح، وأشرقت شمس يوم جديد، استيقظ وشمس الأمل تشرق داخله، قَدِموا جميعًا لرؤيتها، لم يخبرهم بما حدث ليلة البارحة، لا يودُّ أن يُثير قلقهم. وكعادة كلِّ يوم.. كلٌّ منهم يجلس قُرب الغرفة يُمارس الانتظار مُمسكًا بمصحفه، تناغمت أصوات الهمهمات بالدعاء، وآيات الله؛ فرسمت مشهدًا يُخشع القلوب ويُدمع العيون، كتلك العيون السوداء الدامعة تُراقب المشهد من بعيد، خطى ببطء نحوهم، تنحنح ليحثّ صوته على الخروج، ثم حيّاهم، ردّوا جميعًا تحيّته، ثم نهضت «منى» نحوه تستقبله بودٍّ، سألها هل من جديد؟ فتلاشت ابتسامتها، ونكّست رأسها تُغمغم:

_ للأسف، مفيش جديد.

حيّاهُ «مازن» باقتضابٍ، فردّ تحيّته بتحفُّظٍ، ثم سأله مازن:

_ عملت مع السواقٍ إيه؟

_ ماتشغلش بالك بالموضوع ده أنا خلّصته، المهم دلوقتي أنا

عاوز أعرف منّك إيه اللّي ودّاها الصعيد؟ وإيه اللّي خلّاها تتواجد في نص الليل في طريق.. محدّش بيمشي فيه على رجليه؟

_ والله أنا زيك نفسي ألاقي إجابات للأسئلة دي! حتى ما قالتليش إنّها مسافرة!

تدخّلت منى:

_ إن شاء الله تفوق يا جماعة، ونعرف منها الحكاية.

عادوا لانشغالهم بتلاوة القرآن. قبّل عمر رأس عمّته، حاول أن يبثّ الصبر في قلبها ويُهوّن عليها، ثم نهض. وقف جانب النافذة الزجاجية، نظر لها فالتمعت عيناه، نتأ في قلبه الوجع، لم يعد يتحمّل مصيبته. كان لا ينام، يظل جانبها طوال الليل، حتى أتوا ونقلوها للقاهرة، لم يستطع زيارتها بالأيام الماضية، يهرب من رؤيتها بهذا المشهد المُوجع، لكنّه لم يصمد كثيرًا، وهروبه لم يطل، ها هو حملته قدماه إليها، خاف أن يُفتضح سرُّ قلبه، فتركهم وذهب. جلس بالسيارة خلف المِقْود، أغلق الزجاج، يبكي بحرقة، ويضرب المقود بقبضته، حتى وجد أحدَهم يطرق زجاج النافذة برفق، مسح دموعه وفتح السيارة لـ «منى»، جلست جانبه دون أن تتفوّه بكلمة، أشاح وجهه عنها يمسح آثار العبرات، تنهّدت، حاولت التخفيف عنه بكلماتها الحانية إلّا أنّه الآن لا رغبة لديه لسماع أي كلمات تواسيه؛ لذا طلب منها أن تدعه يجلس وحده لبعض الوقت. رقّ قلبها لحاله، لكنّها لم تجد بُدًّا من تركه، هبطت من السيارة بهدوءٍ، وعادت للمشفى ولا يعلم قلبها أيبكي من أجل ابنة عمتها ورفيقتها؟ أم من أجل أخيها الذي كُسر قلبه مرة حينما تزوّجت حبيبته غيره؛ فعافت نفسه النساء،

وعزف عن الزواج، وها هو ينكسر، وهي بين الحياة والموت. أُتراه يعزف عن الحياة الآن؟!

انطلق بسيارته يجوب شوارع القاهرة بلا هدف، أينما ذهب يجدها أمامه، لا يعلم أين المفر؟ مجنون هو، أهناك من يهرب من روحٍ تسكنه؟!

***

ـ أيوه يا زفت، هو ده تمام المهمة اللّي ادتهولي امبارح! البنت لسه عايشة!

ـ والله يا فندم أنا عملت اللّي عليّا، وكنت فاكر إن بعد لحظة من خروجي، هتكون خلاص ماتت!.

ـ في شغلتنا مفيش حاجة اسمها كنت فاكر، ماكنش لازم تخرج قبل ما روحها تخرج من جسمها، اتفضل صلّح غلطتك، ونفّذ المهمة.

ـ بس يا فندم دول.. ما بيـ

قاطعه بحِدّة:

ـ مفيش حاجة اسمها بس، يومين بالكتير ويوصلني التمام. مفهوم؟

ـ مفهوم.

أغلق الهاتف، ثم زفر بضيق، يُفكر في خطة أخرى لتنفيذ مهمّته..

***

تذكّر «داووا مرضاكم بالصدقة»؛ فشرع يتصدق هنا وهناك، حتى نفد جُلّ ما بجيبه؛ طامعًا في أن تتنزل الرحمات على قلبه، ويقرُّ اللهُ عينه

برؤيتها سالمة، نادم على كلِّ لحظة مضت وهي بعيدة عنه، نادم على عناده أمام عنادها الذي أودى بحبهما في النهاية، أو ربما خُيّل له ذلك، فهي لم تغب عن باله لحظة واحدة. قرر ألّا تدخل امرأة لقلبه بعدها، لم يتحمل أن يكون معها بمكان واحد وهي مع غيره، فتقدّم بطلب لنقله للصعيد أبعد ما يكون عنها، وها هي جاءت خلفه ويا ليتها لم تأت. كان يظن أن يوم زفافها أكبر فجيعة بحياته، ولكن لحظة رؤيته لوجهها تُغطيه الدماء ليلة الحادثة؛ كان أكبر فجيعة كادت تُودي بقلبه، لمح شاشة هاتفه تُضيء برقم والدته. أشعل المحرك، ومضى عائدًا للبيت مُتناسيًا شجونه.

***

عسعس الليل، فحان وقت ذهابهم إلّا أن هدى أبت أن ترحل، أصرّوا عليها ولكنّ اليوم إصرارها أكبر، ألحّت «منى» على «مازن» أن يتركها، رغم كرهه لها لم يصمد أمام إصرار أمومتها، وحتى لا يحتك بها بعد أن رحلوا؛ جلس أمام باب الغرفة، وتركها بالداخل جانب ابنتها تتحسس وجهها وتُقبّل أناملها، تنثر القبلات على وجهها وجسدها، تضمها إلى صدرها، فربما بعدما تستيقظ تحرمها حتى من النظرة إليها! فرشت سجادة الصلاة جانب سرير ابنتها، تُقيم الليل وتتضرع إلى الله أن يُنجيها، فلتكرهها كما تشاء، لكن لتحيا أولًا، فهي تستمد قوتها من تلك القطعة، التي نبتت في حشاها، جلست بعد صلاتها وأذكارها على السجادة تتأمل ابنتها باسمة، والدموع تُغرق وجهها. تراها الآن تجري بالغرفة طفلة بفستانها الوردي وضفائرها البُندقية الطويلة، تضحك وتلهو وتتغنى بألحان الحياة، تتذكر يوم

خيّرها زوجها بين ابنتها والطلاق. يعزُّ عليها أن تتركها لكنّ عذابها يومها كان أكبر، هي الآن نادمة على طلاقها، تودُّ لو تعود بها الأيام فترضى بعيش الذل والقهر؛ فقط كي لا تُحرم من صغيرتها. سحبت كُرسيًّا وجلست جانبها تقرأ القرآن على رأسها، ومازالت تتضرع إلى الله بالدعاء، قبّلت يدها وسيل الدموع لا يتوقف حتى غفت ممسكة بيد صغيرتها. ومازن يُراقبهما من النافذة إلى أن أسفر صباحٍ جديد ربما يكون مختلفًا عن سابقاته، استيقظت «هدى» باسمةً، وكأن الله ألقى في قلبها سكينة واطمئنانًا. قبّلت يد ابنتها مُتأملةً وجهها بحب،لم يسبق أن تأملتها عن قربٍ هكذا. فجأة، تحرّكت أصابعها فظنّت أنّها محض تهيؤات، ولكنّها تحًركت مرة أخرى بل وبدأت تفتح عينيها، صرخت ثم هرولت نحو «مازن» الذي كان نائمًا على أحد الكراسي الموضوعة جانبٍ باب الغرفة تُناديه، نهض مفزوعًا وهَرْول نحوها. وجدها بالفعل تُحاول فتح عينيها، فخرج مُسرعًا ينادي الطبيب. وهبطت «هدى» ساجدة؛ شكرًا لله، قدِمَ طبيبان ومعهما طاقم التمريض، أخرجوا «مازن» و»هدى» من الغرفة، بدءوا بعمل اللازم لها، وهما يترقبّان بالخارج، حضرت «منى» و «عبد القادر» تبعتهما بدقائق «ميرال»، تعجّبوا من مشهد وقوفهما وتلك الممرضات الخارجات والداخلات من وإلى الغرفة. أسرعوا نحوهم، وكانت المفاجأة، بالفعل بعد طول انتظار استفاقت، غمرت الفرحة قلوب الجميع، ابتعدت «منى» عنهم قليلًا تُمسك هاتفها، ضغطت أزراره، ثم وضعته على أذنها، مُترقّبة.

***



كان يغطُّ في نوم عميق،كأنّما يُعوّض سهره طيلة الأيام الماضية، وحقيقةً لم يُرد الاستيقاظ؛ فقد زارته في حلمه بفستانٍ أبيض، تفردُ جدائل شعرها وتضحك له، يجري خلفها حتى اقتربت من الماء، ركبت قاربًا كان موضوعًا على الشاطئ؛ فناداها مُحذّرًا، وكأنها لا تسمعه. بدأت تُبحر مُبتسمة، يُناديها

راكضًا نحوها، أمسك يدها وجذبها بين ذراعيه، ظلّ ممسكًا بها بقوة حتى لا تُفلت منه، هدأت واستكانت إلى أن ظنّ أنّها نامت، أبعد خصلات شعرها عن وجهها؛ فابتسمت له، وتمتمت بعيون لامعة «أنا رجعت يا حبيبي!». ابتسم وكان على وشك أن يُقبّل رأسها إلّا أنّ والدته انتشلته من حلمه:

_ عمر، عمر، قوم موبايلك بقاله كتير بيرن، ومش عارفه أقرأ الاسم من غير نضارة، قوم ليكون تليفون مهم من الشغل.

فتح أحد عينيه وهو يزفر بضيق، ضغط الزر الأخضر، وضع الهاتف على أذنه دون أن ينظر للاسم وردَّ بصوت ناعس. فجأةً، انتفض واقفًا كالملسوع، قائلًا:»إنتِ بتقولي إيه؟!». ألقى الهاتف على سريره، وسجد شكرًا لله؛ فبللتَ دموع فرحِه الأرضَ. تناولت والدتُه الهاتف وتحدّثت للمُتّصل، فوجدت التفسير لحالة ابنها. نهض من سجدته، كاد يخرج من باب الشقة بمنامته، لولا أن أوقفته «هتنزل كده؟ طيّب غيّر هدومك». ضرب رأسه براحة يده وعاد لغرفته، ارتدى بنطالًا من الجينز كان مُعلّقًا خلف باب الغرفة، بدا تائهًا يبحث عن ملابسه، ساعدته والدته وناولته قميصًا، ارتداه دون أن ينظر إن كانت ملابسه مُهندمة أو لا!، تناول أغراضه سريعًا، وقبْل أن ينزل، جذبت ذراعه:

ـ عمر، ماتنساش إن «صبا» دلوقتي مش ليك، وماتنساش إنّها متجوزة، بلاش مشاكل يا ابني.

زفر، أطرق لثوانٍ، ثم نظر لها:

ـ عارف يا أمي، ودلوقتي مابقاش مهم عندي تكون ليّا أو لأ. المهم تكون عايشة، المهم نَفَسْها في الدنيا.

ابتسمت بارتياح، فقبّل رأسها قبل أن يخطو نحو المصعد، لم يستطع انتظاره، مُشتاقًا لرؤيتها؛ لذا هبط درجات السُّلّم عَدْوًا. ركب سيارته مُتّجهًا نحو المشفى، والبسمة لا تُفارق مُحياه.

***

تعجّبوا من تأخر الأطباء بغرفتها، خرج أحدهم وطلب من الجميع أن يستعدّوا لرؤيتها، ولمّا سأله «مازن» عن سبب قلقهم البادي على وجوههم؛ طلب الطبيب تأجيل التوضيح إلى أن يتأكدوا من شكوكهم، سبقتهم «ميرال» إليها ثم «عبد القادر»، و«منى» أمسكت بيد عمتها، وقبل أن يدخلا توقّفت «هدى» قائلةً:

ـ مش مهم أدخل يا «منى»، «صبا» مش هتحب تشوفني،كفاية إنّي اطّمّنت عليها.

قبّلت كفها، ثم جذبتها نحو الغرفة:

ـ يلّا يا عمتو، ماظنش «صبا» لمّا تعرف اللّي عملتيه عشانها هتكون لسه ظلماكِ، أفتكر هتديلك فرصة، وتسمع اللّي عندك.

دخلت معها بوجل، وقفوا أمامها، كانت نائمة على فراشها، أجلستها إحدى الممرضات، فحصها طبيبٌ، ثم ابتعد وأفسحِ الطريق لأهلها. في هذه الأثناء، وصل عمر للمشفى، قبل أن يدخلَ نظرَ من

النافذة؛ فوجدها تجلس على سريرها، مُفَتَّحة العينين، وخصلات شعرها مفرودة كما زارته في حلمه، أتكون قد سمعت نداء روحه؛ فأجابت؟! ها هي عادت كما أخبرته. شهق وزفرَ حتى يُسيطر على مشاعره، ويُذكّر نفسه بتحذير والدته. أمسك مقبض الباب، وأماله بهدوء.

تنظر إليهم بذعر، تُحملق فيهم وفي الغرفة من حولها، نظرت للطبيب الواقف جانبها، وسألت بخوف- رُدّ عليّا أرجوك، أنا إيه اللّي جابني هنا؟!

ثم إليهم:

_ إ.. إ.. إنتوا مين؟!

نظر الجميع لبعضهم بدهشة؛ فردّت «منى»:

_ أنا منى يا حبيبتي، بنت خالك.

_ ....

عقّبت ميرال:

_ وأنا ميرال، بنت عمّك، وأخت جوزك.

_ جوزي! جوزي مين؟!

نظرت «ميرال» نحو «مازن» فوجدته يتحدث إلى طبيب في أحد أركان الغرفة، جذبته من ذراعه، بدا واجمًا بعدما تحدّث للطبيب، فنظرت «ميرال» لصبا:

_ أهه.. مازن جوزك يا صبا!.

_ أ.. أنا معرفهوش، معرفكيش، صبا؟!، أ.. أنا.. أنا

أمسكت رأسها قليلًا، ثم جحظت عينيها، سائلةً «أنا مين؟!»

نظروا للطبيب مُنتظرين تفسيرًا، فطلب منهم الخروج، وأخبرهم أنّها ستخضع لبعض الفحوصات. كان «عمر» على وشك الدخول، فوجدهم خارجين من الغرفة مُحبطين، خائفين. دفعتها ممرضتان على محفّةٍ نحو غرفة الأشعة، وهُم بالانتظار. ضمّ عمر عمّته، وكفكف دموعها، كان يتنهد بحرقة، يخاف أن تُكسر فرحته، يود قلبه الاطمئنان عليها. مازن واجمًا، تتحدث إليه «ميرال» فلا يُجيبها، وكأنّه في عالم آخر. كان اليوم مشحونًا حتى المساء، خضعت «صبا» لفحوصات وأشعة، وهُمْ مُترقّبين. استدعاهم الطبيب بمكتبه، أمسك بعض الأشعة والأوراق الموضوعة أمامه، أمعن النظر فيهم غير عابئ بجوِّ التوتر الذي يحوم حولهم. حكّ ذقنه، مطّ شفتيه وهو يعدل من وضع نظارته، ثم نظر إليهم، وقال:

_ الأشعة اللّي قصادي دلوقتي، بتثبت إن مفيش أي حاجة في المخ تؤدي لفقدان الذاكرة.

ميرال بتعجّب:

_ أُمّال حضرتك تفسّر حالتها دي بإيه؟!

_ والله تفسير حالتها كالتالي، مدام «صبا» اتعرضت لصدمة نفسية شديدة قُبيل الحادثة، والصدمة دي خلّت المخ مُهيأ لفقدان الذاكرة، ونتيجة للحادثة حصل ارتجاج في المخ، هو اللّي أدّى للغيبوبة، وجزء بسيط من الارتجاج ساعد على فقدان الذاكرة. لكن حاليًا الأشعة والفحوصات بتقول إنّها سليمة. السبب هو الصدمة النفسية.

تبادلوا النظرات لبعضهم في وجوم، ثم سأل عمر:

_طيب والحل؟ عشان ترجعلها الذاكرة المفترض نعمل إيه؟

حكّ رأسه، ثم مرَّر أصابعه على جبهته:

_ الحل إن حضراتكم تبدأوا تعرضوها على طبيب نفسي. أكيد هيفيدكم أكتر مني؛ لأن زي ما قلت لحضراتكم سبب فقدان الذاكرة هنا سيكولوجي، وأنا تحت أمر حضراتكم في أي وقت.

سأل مازن:

_ شكرًا يا دكتور، نقدر نخرّجها إمتى؟

_ يُستحسن لو بكره إن شاء الله، عشان نخلّيها تحت الملاحظة شوية، وكمان لحد ما تخرج هخلّي طبيبة نفسية تقعد معاها.

شكروا الطبيب، وخرجوا من غُرفته مُتخبّطين، حيارى، لا يدرون ماذا يفعلون! اتّجهوا نحو الغرفة فلم يجدوها، أخبرتهم الممرضة أنّه تم نقلها لغرفة عادية بالطابق الأعلى، صعدوا للغرفة ودخلوا إلّا عمر لم يحتمل، تركهم ووقف عند النافذة بنهاية الممر. دخلوا فوجدوها جالسة على سريرها، والرعب جليٌّ في عينيها، نظرت لوجوههم ففزعت أكثر، وتقلّصت ملامحها إلّا عندما نظرت لـ هدى، اجتاحها الأمان فوقفت واقتربت منها، تحسّست وجهها، ثم اعتصرت رأسها، أخذت تتأملها لبرهة، ثم سألت:

_ أ.. أنا أعرف حضرتك، صح؟!

أومأت، وبدأ خيط الدموع ينسلُّ من عينيها، فسألت صبا:

_ هو حضرتك مين؟!

وقبل أن تُجيب، دخلت طبيبة نفسية تعمل بالمشفى، وطلبت منهم

الخروج من الغرفة، جلسوا بالاستراحة، وهدى مازالت مبتسمة بعيون دامعة، تتحسس وجهها ولا تُصدق أن أنامل «صبا» كانت تتحسسه الآن!

الجميع جالسون في وجوم، «مازن» ما عاد يعلم ماذا يفعل؟ قرر أن يعرضها على أكبر الأطباء، لا يُصدّق أنّها لم تتعرف عليه، وعمر مازال مُنفردًا بنفسه، نزل لحديقة المشفى وشَرَدَ بصبا، أسند رأسه للخلف، أغمض عينيه لربما يكتمل حلم الصباح الآن!

قلبه لا يستوعب أن «صبا» فقدت الذاكرة أي نسيته ! أتنسى من كان يوماً حبه يسكن قلبها ؟! يهرب من رؤيتها حتى لا يرى الذعر في عينيها تختتمه بسؤال «إنت مين؟!» نعم هو يهرب من هذا السؤال تحديدًا، أصبحت صفحة بيضاء سيُلوّنها «مازن»، ويملؤها بما شاء. ومن الطبيعي ألّا يذكره بحياتها، حينما التقى بها لأول مرة بعد زواجها، لمعة عينيها أخبرته أنّها لم تنْسَه. أخبرته أنّها كاذبة، قالت أحببت غيرك ورؤيتها له فضحت كذبتها. لم ينقطع أمله بعودتها حتى بعد زواجها، فقد كان موقنًا أنّه حي داخلها. والآن، انقطع الأمل؛ فقد نجتْ من الحادث ومات هو داخلها، ذهب مع ذاكرتها. أيُّ مصائب تلك التي تتنزل على قلبه! فتح عينيه، أحرقته نسمات الهواء، فوجدها حجةً مُقنعه ليترك العنان لدموعه، نظر للسماء يطلب العون من جابر المنكسرين.

وبالأعلى، «مازن» يقطع الممر ذهابًا وإيابًا، وقف جانب النافذة، اعتصر جبهته من شدة الصداع، مازال لا يستوعب أن حبيبته نسيته، ينتظر خروج الطبيبة لعلّه يكون فقدانًا مؤقتًا من أثر الحادث، أو

علّهم أخطئوا بتشخيص حالتها. ظلّ يضع الاحتمالاتِ عدا الاحتمال الصحيح؛ فقلبه لا يستطيع قبوله أبدًا. بعد مرور ساعة، خرجت الطبيبة، فقدموا مُسرعين نحوها، سأل «مازن» مُتلهّفًا:

ـ الدكتور شخّص غلط، و هو فقدان مؤقت من الحادثة، وهترجع صح؟

ـ بالعكس، تشخيص الدكتور مضبوط جدًّا، هتحتاج تتابع مع طبيب نفسي، وحضراتكم هتتابعوا كمان معاه عشان تعرفوا الطريقة اللّي هتتعاونوا بيها، وتساعدوها لرجوع الذاكرة.

بادرت «منى»، قصّت لها ما حدث حينما رأت «صبا» والدتها، وسألتها عن التفسير!

ـ هي بالفعل حكتلي جوّه عن الموقف، هي كمان مش لاقيه تفسير، مجرد إن قلبها حس باطمئنان وراحة تجاه شخص معين.

نظرت لهدى، وسألت:

ـ حضرتك والدتها، صح؟

أومأت بلهفة، فأكملت الطبيبة:

ـ ده أمر طبيعي إنّها تحس براحة ناحية أشخاص مُعينين، وخصوصًا لو كانوا مُقرّبين جدًّا من قلبها قبل فقدان الذاكرة.

رمقت «ميرال» «منى» و«هدى» باستهزاء قائلةً:

ـ بس يا دكتور، هي ماكنتش عايشة مع أمها، ولا شافتها بقالها كتير، حضرتك تقدري تقولي بقالهم سنين بعيد عن بعض، يعني يُعتبر ماتعرفهاش، وكمان العلاقة كانت مُتوترة جدًّا بينهم.

كلماتُها نكأت جراح «هدى»، فنظرت بالأرض خجلًا، صوّبت «منى» نظراتها الغاضبة نحو «ميرال»؛ فالوقت غير مناسب لذكر هذا الأمر! ردّت الطبيبة باسمة:

ـ لو زي ما حضرتك بتقولي.. مامتها كانت بعيدة عنها مدة كبيرة وصلت سنين، فدَهْ الطبيعي إنّها تفتكرها لأنّها عاصرت طفولتها، قلبها قدر يتعرّف عليها، زي لو كانت حافظة سور من القرآن أو حاجات حفظتها وهي طفلة هتفضل لأنّها اتحفظت في جزء اسمه الـ «long memory»

والجزء ده في المخ ثابت وراسخ، هبسّط لحضرتك الأمر.. في حاجات كتيرة حصلت لنا من زمان جدًّا، ومع ذلك فاكرينها خصوصًا لو كانت بتتكرر كتير في يومنا أو اتكررت في طفولتنا بتتحول في المخ لبروتين، وبتبقى جزء من المخ، هنا مُخّها سليم. الأمر سيكولوجي أكتر من كونه عضوي؛ لذلك ممكن تكون ناسية الناس اللّي حواليها، اللّي حصلها قبل الحادثة، لكن مع الوقت ولمّا تتعرّض لمواقف أو صور أو أماكن مرتبطة بذكرياتها هترجع الذاكرة، أنا اتكلمت معاها شوية، وهي نامت دلوقتي تقدروا تشوفوها بعد ساعة إن شاء الله. بس ياريت تاخدوا بالكم إن أهم شيء تدعموها نفسيًّا، لازم تكون مُستعدة لرجوع الذاكرة، وأكيد الدكتور اللّي هتتابعوا معاه هيفيدكم أكتر.

رحلت الطبيبة، فوقفت «ميرال» جانب أخيها، وهمست:

ـ مازن، إنت ساكت وسايبهم كده واخدين راحتهم أوي!

زفر بعصبية:

ـ ميرال، أبوس إيديك أنا مش مستحمل، كفاية المصيبة اللّي أنا فيها.

_ آسفة يا مازن، ماقصدش، بس أصل اللّي اسمها «هدى» دي ما صدقت إن «صبا» مش فاكرة حاجة.. وعاملة فيها الأم المثالية!

لم يجبها، فقط ولّاها ظهره، مُتّجهًا نحو غرفة صبا، وجدها تنام باطمئنان فابتسم، قبّل رأسها، وأبعد غُرّتها عن عينيها، أمسك يدها وقبّل أناملها باكيًا يُعاتبها على نسيانه، يرجوها أن تعود إليه؛ فلم يعد يحتمل دنياه بدونها، احتضن كفّها وغفا جانبها.

***

أكله القلق، قرر أن يصعد إليها، لا يهم إن كانت لا تتذكره، ما يهمه أن يراها ويطمئن بوجودها، فربما يُحرم من رؤيتها بعد الآن. تقدّم نحو المصعد؛ فوجد أباه حاملًا أكوابًا من القهوة، ساعده في حملها وصعدوا سويًّا. احترق قلبه حينما عَلمَ أنّ «مازن» في غرفتها. انفرد بـ «منى» في أحد الأركان البعيدة وسألها عمّ قالت الطبيبة، ظلّا يتحدثان عن حالة «صبا»، وما قالته الطبيبة حتى استقبل عمر مكالمة من عمله اضطرته للرحيل بعد أن طلب منها موافاته بكل جديدٍ عن صبا. لمحت «منى» «ميرال» تقترب من عمّتها، خافت أن تؤذي مشاعرها بكلامها الجارح كعادتها؛ فأسرعت وقطعت عليها الطريق جالسةً جانبها تُحدّج «ميرال» بغضب. تجاهلت «ميرال» نظرتها وتخطتها واقفةً جانب النافذة، لمحت عمر يخرج من بوابة المشفى، ويركب سيارته فالتمعت عيناها حينما هبّت رياح الذكريات على قلبها، أغمضت عينيها تبحث بأنفها عن عطره وأنفاسه التي كانت هنا منذ قليل. يحترق قلبها كُلما رأت نظرة العشق في عينيه حينما ينظر لصبا، تلك النظرة التي تمنّت لو تراها في عينيه يومًا لها، انتشلها من شرودها صراخٌ قادم من غرفة صبا؛ فاتّجهت مُسرعةً نحوها.

***

كانت نائمة في هدوء، استفاقت لتجد رجلًا نائمًا جانب سريرها، ارتجفت وحاولت أن تُفلت يدها من بين يديه فاستيقظ، ابتسم لها بحبٍّ فتمعّر وجهها، أفلتت يدها من يده، فاقترب منها:

_ ماتخافيش يا «صبا»؛ أنا «مازن» جوزك.

كان على وشك أن يضمّها لولا أن قفزت هاربةً واحتمت بأحد أركان الغرفة، اقترب ينظر لها بألم:

_ حبيبتي، ركّزي شوية، اسألي قلبك، قلبك هيفتكرني، أنا «مازن» يا «صبا».

أخفت وجهها بيديها، ولمّا اقترب منها صرخت. سمعوا صراخها؛ فأسرعوا نحو الغرفة، وجدوها تقف بخوف في أحد الأركان، تُخبئ وجهها بذراعيها، ومازن ينظر لها مذهولًا، رفعت ذراعيها عن وجهها ومازالت تتفحص وجوههم بخوف، اقتربت «منى» وربتت على كتفها، فارتجف جسدها وابتعدت عنها خائفةً. اقترب منها «مازن» في محاولة أخرى لتهدئتها، لكنّها هربت وابتعدت عنه حتى التقت عيناها بعينيّ والدتها، وكأنّها غارق وجدَ طوق النجاة، ارتمت بين ذراعيها، و»هدى»- كالباقين- مذهولة، لم تعرِ اهتمامًا لنظرات «مازن» و»ميرال»، يكفيها أنّ ابنتها الآن تحتمي بهاَ، رفعت ذراعيها وضمّتها بقوة لتُهدّيء من روعها. دخلت إحدى الممرضات تُخبرهم بانتهاء موعد الزيارة، وطلبت أن يبقى مُرافق واحد معها، رفعت «صبا» رأسها، ونظرت للممرضة، ثم لهدى برجاء:

_ خليكِ معايا، ماتسيبنيش.

مسّدت شعرها بحنان:

_ ماتخافيش؛ أنا هفضل جنبك.

ردّت الممرضة:

_ بما إن المدام هتفضل معاها؛ ياريت حضراتكم تتفضلوا.

حدّجهم مازن بغضب، ثم خرج فتبعته ميرال، اقتربت منه وربتت على كتفه برفق:

_ ماتزعّلش نفسك، «صبا» بتتصرف كده عشان بس حاليًا مُشوّشة من الحادثة، وبعدين إنت ناوي بجد تمشي وتسيبها مع «هدى»!

_ ميرال، مش هنبدأ. إنتِ شُفتي الوضع عامل إزاي!، «صبا» خايفه منّي يا «ميرال»، فاهمةَ يعني إيه؟ «صبا» مش حاسة معايا بأمان، أنا دلوقتي كإنّي واحد غريب عنها.

_ أها! برافو، والحل إنّك تستسلم؟! دي مراتك يا مازن، وبعدين إنت ازّاي هتثق في هدى! مش يمكن في الليلة اللّي هتبات فيها معاها تشحنها ضدك وضدي؟ دي ما صدّقت إن بنتها مش فاكره حاجة، ومش بعيد تحكيلها كلام غلط عن الماضي، وأكيد مش هتقولها إنّها خانت عمو زين- الله يرحمه- ولاحظ إن عمر هنا رايح جاي، مش يمكن ماتفكّرهاش غير بحياتها معاه؟

نظر لها بدهشة، سكت هنيهة، ثم عاد للغرفة، فتح الباب بعنف؛ فنظروا جميعهم صوبه، نظر لصبا بألم، ثم لهدى ومُنى بغضب، قائلًا: «تسمحوا لحظة برّه!».

تبادلوا النظرات لبعضهم ثم لعبد القادر، وقبل أن تخطو «هدى» نحو الباب، أمسكت «صبا» بيدها، فربتت «هدى» على يدها بحنان:

_ ماتخافيش، دقيقة وهكون عندك، ارتاحي في سريرك.

أخبرهم عبد القادر أنّه سيُجهّز سيارته بالأسفل، وخرجت «هدى» بجوار «منى» لـ «مازن» المُنتظر بالخارج، نظرتا له بنفادِ صبرٍ منتظرتين حديثه، حدّجهما بنظراته الغاضبة، ثم قال:

ـ بصّي بقى باختصار، إوعي تفتكري إنّي عشان سمحتلك تباتي معاها النهارده واللّا تقرّبي منها تستغلي ده وتقوّميها عليّا، واللّا تقوليلها كلام غلط عنّي، خصوصًا إنها مش عارفة أي حد وإنت عارفة كويس أوي إنّها لو ماكنتش فاقدة الذاكرة حاليًا مش هتحب حتى تسمع اسمك.. مش بس تشوفك.

ردّت «منى» باستنكار:

ـ إيه شغل الأطفال ده! معقولة اللّي بتفكّر فيه ده يا «مازن»! عمتو مش كده ولا ده أسلوبها.ـ

قاطعها، وهو يصوّب نظراته النارية نحوها:

ـ وبالمناسبة، ياريت أخوكِ يخف رجله من هنا شوية، انصحيه ماينساش نفسه، ويبعد عن «صبا» أحسن له.

أنهى كلماته، ثم رحل برفقة أخته، ومازالت «هدى» تنظر نحو أثرهم، الذي يبتلعه الممر شيئًا فشيئًا بخوفٍ حتى اختفوا عن ناظريها، ربتت «منى» على كتفها، فأومأت تتصنع الابتسام، ودّعتها ورحلت، فعادت لغرفة صبا، وجدتها جالسة على سريرها تنتظر عودتها، اتسعت ابتسامتها، تقترب منها وتُقبّل رأسها. جلست جانبها مُحتضنةً كفّها، فاغرورقت عينا «صبا»:

ـ أ.. أنا آسفة، مش فاكره أي حاجة، وحتى مش عارفه إنتِ مين بس حاسة إن قلبي يعرفك.

قبّلت راحة يدها، ثم مسحت على شعرها، أمالت رأسها على صدرها، ومازالت تُمسّد شعرها بحنان:

_ قلبك عرفني عشان أمك يا حبيبتي، أنا ماما يا «صبا».

انفجرت «صبا» باكية:

_ أنا خايفه أوي.

_ ماتخافيش؛ أنا هفضل جنبك، وهتفتكري كل حاجة، بس لازم تكون عندك عزيمة زي ما الدكتورة قالت.. لازم تساعدينا.

رفعت رأسها، ونظرت بعيون دامعة:

_ حاضر. بس ممكن تحكيلي أي حاجة عنّي، قوليلي أي حاجة.

مسحت دموعها:

_ ممكن النهارده بس ترتاحي؟ أجهدتِ نفسك كتير، واليوم كان صعب أوي، نامي بس شوية، وبكره- إن شاء الله- أول ما نخرج من المستشفى؛ هحكيلك كل حاجة، يلّا يا ماما نامي شوية.

أومأت، ساعدتها لتفرد جسدها، ثم دثرتها بغطائها، وقبّلت جبينها، جاءت إحدى الممرضات أوصلت بيدها المحلول وخرجت. جلست «هدى» واضعةً يدها على رأس «صبا» تُرتل القرآن بصوتٍ عالٍ؛ ليطمئن قلبها.

***

عادت «ميرال» للبيت بصحبة «مازن»، الذي لم ينبس ببنت شفة منذ خروجهم من المشفى، حتى أنّه لم يستطع القيادة؛ فطلب منها أن تقود السيارة للبيت:

_ ثواني، والعشا هيكون جاهز.

_ لأ. لأ، اتعشّي إنتِ بالهنا والشفا، أنا مليش نفس، هدخل أرتاح شوية.

تركها وصعد لغرفته، دخلت للمطبخ، فتحت الثلاجة، نظرت للأطعمة بشرود، ثم أغلقتها وصعدت لغرفتها، بدّلت ملابسها بمنامتها، ثم أسندت رأسها على وسادتها، وتأمّلت سقف الغرفة، دفنت أحلامها في قلبها، ولكنّها تجلّت أمامها كابوسًا حينما رأته لأول مرة بعد طول غياب. لم يلفت انتباهها رجلٌ مثله، ولم ترَ- يومًا- فارس أحلام غيره، تذكر الآن صدمتها يوم علمت بحبّه لـ«صبا»، تشعر بنفس الغصّة في قلبها، ضميرها أحيانًا يؤنبها، لا تعلم أكان صائبًا ما فعلته أم لا؟! ابتسمت بسخرية «وياريته في الآخر حس بيكِ برده اللّي فاز في الآخر صبا» زفرت بملل وحدّثت نفسها «الأحسن تنامي يا «ميرال» إنتِ مش ناقصة صداع»، رفعت الغطاء حتى رأسها، أغمضت عينيها في محاولة منها لاستحضار النوم، وبالغرفة المجاورة هناك من جافاه الكرى، ظلامٌ دامسٌ بالغرفة، ورغم الظُّلمة تَبْرُقُ عيناه الدامعتان، جالسٌ في سريره، يشعر أنّه يعيش بكابوس لا يعلم متى يستفيق منه؟ إلى متى سيستمر الوجع الذي ينخر في قلبه؟، وإلى متى ستظل «صبا» خائفة منه إلى هذا الحد؟!

أرخى جسده، وبدأ يُواسي قلبه بذكرياتهم التي تمر أمامه الآن حتى غاب في عالم الأحلام.

***

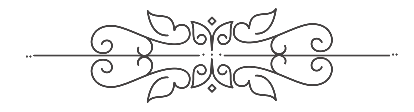
مازالت تقرأ القرآن على رأسها رغم أنّها نامت، رنّ هاتفها، رفعت يدها عن رأس «صبا» بهدوء، وتناولت حقيبتها، أخرجت الهاتف، ضغطت الزر الأخضر، ورفعته إلى أذنها فوجدت «منى» تطمئن عليها وعلى «صبا»، وبعدما طمئنتها، قالت:

_ بقولك يا عمتو، عمر جايبلك أكل، وزمانه وصل، معلش استقبليه وخديه ع البوابة عشان ممكن يرفضوا يدخّلوه.

_ يا حبيبتي، تعبتي عمر ليه؟ والله مليش نفس للأكل.

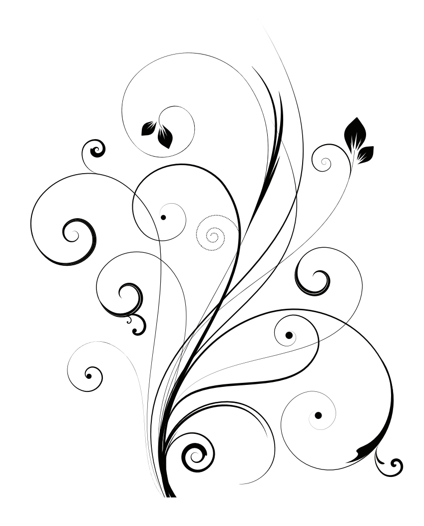
_ تعب إيه بس! إنتِ ما أكلتيش حاجة من الصبح، كمان بعتلك معاه دواكِ ماتنسيش تاخديه بعد الأكل، معلش بس إنزلي استقبليه.

شكرتها وأنهت المكالمة، طبعت قبلة على جبين «صبا»، وغادرت الغرفة، بعدما اختفت من الممر. خرج أحدهم من الغرفة المُقابلة مُرتديًا زي التمريض، اقترب من غرفتها، ارتدى قفازات بلاستيكية. أمال مقبض الباب بهدوء، دخل وأغلق الباب بعدما تأكّد أنّها تغطُّ في النوم، أخرج مُحقنًا من جيبه، عبّئه بسائل أصفر، واقترب من «صبا» بخُطا مُتأنّية، تأكّد أنّها مازالت نائمة، أمسك المحلول، غرس الإبرة فَيه، ووضع أصبعه على نهاية المحقّن استعدادًا لدفع السائل بالمحلول.



عندما تتراكم الأحلام، ونعجز عن تحقيقها؛ يكون النسيانُ الحلمَ الوحيد الذي نتمنى وجوده عند اليقظة.

المُعز



انتظرها عند البوابة، تأخّرت فاستأذن أمن المشفى أن يُوصل الحقيبة، ويعود سريعًا، وافقوا على مضضٍ فصعد إلى الغرفة، ووجيبُ قلبه يرتفع، من البديهيّ أنّها لن تعرفه، خائفٌ من هذه اللحظة، لكنّ الهروب ليس حلًّا، إلى متى سيهرب؟ قلبه يحتاج لهذه الصفعة ليستفيق. وقف عند باب الغرفة، أمسك المقبض بيدٍ مُرتجفة، أغمض عينيه، شهقَ وزفرَ ليستعد لهول الموقف. أمالَ مقبضَ الباب في نفس اللحظة، التي قرر الرجل فيها دفع السائل ليختلط بالمحلول، سمع صوت المقبض فسحب المُحقّن وأخفاه سريعًا داخل جيبه، التفت ليجد رجلًا يرتدي حلة الشرطة واقفًا عند الباب؛ فابتلع ريقه بصعوبة بالغة، وبدأ وجهه يتعرق، مما أثار ريبة عمر؛ فسأل عن هويته، مسح حبات العرق اللامعة على جبينه قبل أن يُجيب بتوترٍ:

_ أ.. أنا مُمرّض هنا.

_ أها.. ما أنا واخد بالي من لبسك، بس مش بيتهيألي إن مكانك في قسم الرجال! بتعمل إيه هنا؟!

أجاب بتلعثم:

_ أنا.. إنا آسف يا باشا، أصلي لسه جديد هنا، واتلخبطت في الأدوار والأُوَض.

كان عمر على وشك أن يُكمل تحقيقه؛ لولا أن استيقظت «صبا»، ونظرت نحو الرجل بريبة؛ فاعتذر، وغادر الغرفة مُسرعًا. نظرت لعمر وثبّتت بصرها نحوه، ضيّقت عينيها، تشعر أنّها تعرفه، انتزعت المحلول من يدها، واقتربت منه تتأمله، وتتفحّص ملامحه:

_ أنا أعرفك، صح؟ أنا حاسّه إنّي عرفاك. بس.. بس مش قادره أفتكر، إنت مين؟

نظراتها أراحت قلبه المكلوم إنّ فؤادها لم ينسه إذًا! فقدت ذاكرتها، ولكنّ القلب لا ينسى من استوطنه، اشتعل البرق في عينيه واتسعت ابتسامته، كان خائفًا من سؤالها، وكون قلبها يعرفه أعاد لجسده الحياة، فتحركت حَرْقَدَته وهو يبتلع ريقه، ويسمح للأكسجين ببث الحياة لروحه، التي كادت تلفظ أنفاسها الأخيرة. ها هو واقف أمامها، يُكحّل عينيه برؤيتها ويتعطر بأنفاسها، يشعر نحوها بحنين جارف يدفعه لأن يحتضنها الآن، يود لو يضمها إلى صدره ويُمسّد شعرها بحنان هامسًا «لا تخافي يا صغيرتي؛ أنا هنا جانبك». انتشله من شروده سؤالُها للمرة الثانية: «إنت مين؟!». همّ أن يُجيب لولا أن سبقته «هدى» الواقفة عند الباب:

_ ده عمر، يبقى ابن خالك يا «صبا».

_ ابن خالي؟!

نظرت لعمر:

_ بس أكيد إحنا كنّا صحاب، أو كانت بتربطنا علاقة قوية. صح؟!

أجابت بحزم:

_ لا هو ابن خالك وبس. ده حتى بقاله كتير شغله في الصعيد، وماكنتوش بتتقابلوا غير نادرًا.

صبا، ومازالت تنظر إليه:

_ أمال أنا ليه حاسه إنّه حد قريب مني! ده تاني شخص بعدك أحس ناحيته كده.

دخلت للغرفة مُرتبكة، تناولت الحقيبة من عمر:

_ شكرًا يا عمر، معلش تعبتك معايا، يلّا روح عشان ما تتأخرش أكتر من كده.

ينظر لها بلوم، مُتعجبًا من موقفها، خيّبت آماله، لا يدري لِمَ فعلت ذلك؟! حاول أن يرد لكن الكلمات اختنقت في حلقه، فولّاهَم ظهره ورحل. تأمّلته «هدى» بأسى، ثم نظرت أرضًا خجلة من إحباطها له للتو، ثم بدأت تُقنع نفسها أن ما فعلته هو الصواب؛ فصبا الآن مُتزوجة، ويجب ألّا تُشغل رأسها بأبواب أُغلقت قبل أن تفقد ذاكرتها، كما أنّها لا تود أن تُقحم ابن أخيها في مشاكل مع زوج ابنتها، يكفيها المشاكل التي أقحمتهم فيها منذ تطلقت. شردت «صبا» قليلًا ثم عادت تسألها:

_ لو هو مجرد ابن خالي وبس ليه ماحستش ناحية أي حد من اللّي شفتهم النهارده نفس إحساسي مع عمر؟! ليه خفت منهم! مش كان أولى أفتكر جوزي!

ارتبكت «هدى»، وتلعثمت:

_ صباا، قولنا الليلة هنرتاح شوية، وبكره- إن شاء الله- نتكلم في كل حاجة إنتِ عوزاها، يلّا بقى استرخي، وحاولي تنامي، وأنا أهه جنبك.

_ طيب اقري قرآن تاني بصوت عالي.

ابتسمت لها بحنان، فرَدَت «صبا» جسدها، فدثّرتها وعادت تضع يدها على رأسها، وتبث في قلبها الأمان بآيات القرآن.

***

لنا فى الصمت ألف حكاية ورواية، حكايات وروايات تعجز الكلمات عن وصفها، تعجز حتى الدموع عن حملها، وحدها قوة الصمت تتحملها، وحدها تلك القوة القاتلة، إنّه الصمت، الأناقة التي تحفظ للأسرار احترامها. تحلّى بأناقة الصمت وركب سيارته خالي الوفاض، مُحبط الآمال، لم يتوقّع ما فعلته عمته، أخذ يجوب شوارع القاهرة بلا هدفٍ حتى توقّف عند نهر النيل، دومًا يُذّكره بها، هي نهر حياة قلبه، رحلت فجف النهر ومات كل حي داخله. أوقف مُحرّك السيارة ثم أسند رأسه للخلف، ثنى ذراعه وغطّى به عينيه، تُداعب ذاكرته نظرة «صبا»، وسؤالها فارتسم شبحٍ ابتسامة على شفتيه ما لبث أن تلاشى، وذاكرته تعود به عامًا ونصفًا للماضي. كان منهمكًا في عمله عندما وصله اتصال من «صِبا»، ابتسم رافعًا الهاتف لأذنه مُجيبًا:

_ مش قولتِ ممنوع أكلمك، أو أشوفك لحد الفرح؟!

سألت بصوتٍ يشوبه الحِدة:

_ إنت فين؟!

_ في الشغل، مال صوتك فيه إيه؟!

_ سيب أي حاجة في إيديك دلوقتي، وتعالى ع البيت.

_ طيب فهّميني فيه إيه؟!

_ لما تيجي هتعرف.

أنهت المكالمة وتركته في لجة من الحيرة والقلق، أغلق الملفات الموضوعة أمامه، تناول سُترته ورحل. وصل عند باب البيت، نظر لأعلى فوجدها تقف في شرفتها، لوّح لها فلم تجب وكأنّها لا تراه،

مطّ شفتيه وهو يُغلق سيارته، وقبل أن يدلف إلى البيت وجدها أمامه فابتسم لها، ثم انتبه لمظهرها، كان وجهها مُمتقعًا عابسًا، وعيناها حمراوان، من الواضح أنّها كانت تبكي؛ فسأل بخوف ما بها؟ توجهت نحو حديقة المنزل فتبعها، وقفت عاقدةً ذراعيها أمامَ خصرها تنظرُ له بلوم، تفحّصته من رأسه حتى أخمص قدميه، ثم ابتسمت بسخرية:

_ كنت بكدّب الصور واللّي شفته بعيني، كل حاجة كنت بقول عنها كدب، شهرين كاملين وأنا بضحك على نفسي وأقول كدب، مستحيل يعمل فيّا كده، محدش يعرفه زيي أنا، لكن طلعت الوحيدة المُغفلة ومش فاهمه حقيقتك.

نظر لها ببلاهة سائلًا:

_ إنتِ بتتكلمي عن إيه؟!

أخرجت ورقة من جيب بنطالها، أشهرتها في وجهه، تناول الورقة من يدها، يقرأ ما كُتب فيها وعيناه بدأتا في الاتساع شيئًا فشيئًا، رفع عينيه عن الورقة، ونظر لها مذهولًا:

_ إيه الورقة دي! وجبتي التخريف ده منين؟!

_ بيتهيألي بتعرف تقرا كويس!، وبيتهيألي ده توقيع سيادتك! ده غير الصور وغير اللّي شفته بعنيا.

_ دي لعبة وهزار قبل الجواز مش كده؟!

_ أها.. كمّل تمثيليتك كمّلها.. برافو، فعلًا حقيقي الدور بقى لايق عليك.

_ صبا، إوعي تكوني إتجننتي وفاهمة إن الورقه دي حقيقة! مين ادّالك الورقة دي؟! أنا فعلًا مش فاهم حاجة!، ممكن تهدي وتفهميني؟

لم ترد، انتزعت خاتم الخطبة من بنصرها، ألقته في وجهه وولته ظهرها، جذب ذراعها بعنف:

_ إستنّي هنا مش ناقصة جنان، فهّميني إيه اللّي بيحصل؟

_ جنان! هو إنت لسه شفت جنان! وبعدين إنت ليك عين تتكلم تاني، مبروك عليك عروستك، ما يشرفنيش أتجوز خاين زيك.

انتزعت ذراعها من يده ورحلت، لم تعطه الفرصة ليفهم ما حدث، ألقت به في قفص الاتهام ونصّبت نفسها قاضيًا وجلّادًا. تم إلغاء العُرس، وبعد شهرين كان حفل زفافها من مازن.

انتشله من براثن الذكريات صوت هاتفه، «منى» كانت تطمئن عليه لتأخره بالخارج، طمئنها، أنهى المكالمة وهبط من سيارته، وقف وأسند ذراعيه على سور الجسر، يمر شريط الذكريات أمامه على صفحة النهر حتى شعر بصداع يشق رأسه، شهق وزفَرَ بقوة عسى زفراته تُطفئ النيران المُتأججة في فؤاده، لا يود العودة للبيت، ملّ الهروب للنوم، عاد لسيارته وقادها إلى العالم الذي كان يومًا ما خاصًّا بهما، والآن صار عالمه وحده، ركن سيارته ونزل إلى «شارع المعز» يحتضن بعينيه ويُقبل كل ركن يومًا ما احتضنهما، ذاب وسط الزحام وانصهر في تفاصيل الشوارع، البنايات العتيقة، ووجوه السائرين المهمومة، تناهى لمسامعه صوتٌ نكأ جراح قلبه، سار كالمسحور نحوه، صوت كوكب الشرق ينبعث من فونوغراف قديم:

أقبــل الليل يــا حبيبي ونــاداني حنيني
وسرت ذِكراك طيفًا هام فِي بحر ظنوني
ينشر الماضي ظلالا.. كُنّا أُنسًا وجمالا
فإذا قلبيَّ يشتاقُ إلى عهد شجوني
وإذا دمعي ينهــلّ عــلى رجــع أنيني
تاه فكري بين أوهامي وأطياف المنى
لست أدري يا حبيبي، من أنا؟ أين أنا؟

تحوّلت كُرتا عينيه- تلقائيًّا- إلى فراغ ما فِي هذا المحل القديم، يومًا ما كان الفراغ مُمتلئًا بها، سحرها فونوغرافٌ كان موضوعًا بنفس المكان، وقفت تتأمله وتستمع لصوت أم كلثوم مُنبعثًا منه، لم يكن يعلم أنّه سيأتي يوم يتكرر فيه المشهد، ويكون البطل وحده دونها، استفاق على صوت أحدهم:

_ عمر باشا! عاش من شافك.

تصنّعِ الابتسام وهو يصافحه:

_ أهلًا يا أحمد، إزيك؟

_ الحمد لله في نعمة وفضل، إيه الأخبار، الجراما فون اللّي اشتريته.. عجب المدام؟ صح؟!

استحال ريقه إلى حنظلٍ في حلقه، حاول أن يُسيطِر على ملامحه حينما لمح علامات التعجبً على وجه الرجل، ردّ مُتداركًا الموقف:

_ أه.. أه، عجبها، تسلم.

_ ابقى نورنا يا باشا، ما تطولش الغيبة، فيه شوية أنتيكات قديمة من الذوق اللّي بتحبّه المدام، متأكد هيعجبوها جدًّا.

ـ إن شاء الله يا أحمد، إن شاء الله.

لوّح له في عُجالة مُخلّصًا نفسه من براثن الماضي، عاد لسيارته هائمًا على وجهه، اصطدم بامرأة عن غير قصد فاعتذر وأكمل طريقه، آثر الفرار من أشباح ماضيه إلى أحضان الكرى فولّى هاربًا، وأكملت المرأة طريقها نحو أحد أزقة خان الخليلي، تسير في تؤدة من اكتظاظ الزقاق بالمارّة، يُطبق كفّها باستمامة على كفٍّ صغيرة تسير مُلتحمة فيها، مُنبهرة بالتحف والمعروضات العتيقة من الفضة والذهب والأحجار الكريمة، جذب أنظارها عقد من اللآلئ، وقفت مُلتصقة بزجاج الفاترينة تتفحصه، فأتاها صوت أجش:

ـ اتفضلي يا مدام شوفيه جوّه عن قرب، وما تقلقيش خالص هنريحك في السعر.

ابتسمت بامتنان وتبعته للداخل، أحضر أشكالًا وألوانًا من الحُلي، تركت يد صغيرتها هنيهة حتى يتسنّى لها لمسهم عن قرب، لحظات واشتد الزحام بالمحل بطريقة فُجائية جعلتها تنتبه لفراغ كفّها، نظرت حولها واتسعت عيناها، بدأ وجيب قلبها يرتفع تنظر هنا وهناك، خرجت من المحل غير عابئة بصوت الرجل وهو يناديها:

ـ يا مدام، رايحة فين؟ طيب شنطتك؟!

تتلفّت حولها كالمجنونة، وتُنادي بصوتٍ مبحوح:

ـ فرح، فرح.

ولا أثر لفرح، وكأنما انشقت الأرض وابتلعتها، بدأ صوتها يعلو أكثر، ومازالت تُنادي حتى استحال صوتها صُراخًا:

ـ بنتييـــــــــــي، فــــــــــــرح....

من ينطلق نحو المجهول عليه الرضا بالمغامرة وحيدًا!

أندريه جيد



انقشع الليل، وانبثقت الشمس من رحم السماء تنثر قُبلاتها في بقاع الأرض، بعض من هذه القُبلات تناثرت على وجهها الصَّبوح، تقف جانب النافذة، شاردة في الحلم الذي رأته البارحة، أغمضت عينيها حينما حاولت الشمس إرسال قُبلة لبؤبؤيها، فتحتهما مُبتعدةً عن النافذة، مُلتفتةً لـ «هدى» النائمة في اطمئنان على سرير مقابل لسريرها، ضيّقت عينيها واعتصرت رأسها بأناملها تُحاول تذكُّر تفاصيل حلمها أو الرجل الذي رأته بمنامها، ولكن دون جدوى هي حتى لا تتذكر اسم هذه المرأة، خطر ببالها ذلك الـ «عمر» الذي رأته الليلة الماضية، مازالت مُتعجّبة من كون قلبها عرفه وهو مجرد شخص عاديٍّ في حياتها، تنهّدت واقتربت من سريرها في نفس اللحظة التي فُتح فيها الباب ومَثُل أمام ناظريها الرجل الذي يدّعون أنّه زوجها، تسمّرت مكانها، تمعّر وجهها وتملّكت جسدها ارتعاشة خفيفة، أبعدت عينيها عنه وسلّطتهما على والدتها التي تغط في نوم عميق، اقتربت منها في اضطرابٍ وبدأت تهزُّها بلطف؛ عساها تستيقظ وتُخلّصها، يُتابعها في صمتٍ، حائرٌ مثلها، خائفٌ من أن يقترب فيتسبب في ذعرها، وبذات الوقت وقوفه هكذا مكتوف الأيدي يحرق روحه، ثوانٍ واستيقظت هدى، قلّبت بصرها بين ابنتها الخائفة وبين «مازن» الواقف حائرًا، تنحنح ليُطلق سراح صوته السجين في حلقه، وأردى الصمت قتيلًا؛ قائلًا:

_ أنا كنت عند الدكتور وطلبت منه إذن خروج، كان حابب تفضل أكتر من كده تحت الملاحظة، لكن أنا طلبت الإذن دلوقتي عشان بجهّز أوراق السفر.

قال جملته؛ فساد الصمت لدقائق، حتى قطعته «هدى» قائلةً:

ـ حاضر، ثواني هنغيّر هدومنا، ونحصّلك.

أومأ ثم خرج، وأغلق الباب خلفه بهدوء، نظرت «صبا» نحو الباب المُغلق تهمس لـ «هدي» في خوف:

ـ مش هتسيبيني صح؟

ربّتت على كتفها:

ـ ماتقلقيش أنا معاكِ، يلّا غيّري هدومك عشان ما نتأخرش عليه.

جلس جانب الغرفة، اشتعل ضجيج رأسه، خائف من المجهول ولا يعرف كيف سيتعامل مع زوجته بهذه الحالة! ما يعرفه جيدًا أنّه لن يتركها حتى تستعيد ذاكرتها وتعود كما كانت، سيبذل جل ما بوسعه لتعود «صبا» الغائبة. انتبه لصوت باب الغرفة فوقف، وجد «هدى» تحمل حقيبتها وحقيبة «صبا» في يد، وبالناحية الأخرى «صبا» تتشبث في ذراعها كأنها لو تركته ستهرب! حدّج «هدى» فتلعثمت وقالت بصوتٍ يملؤه الرجاء:

ـ ممكن يعني آجي معاكم البيت أقعد مع «صبا» كام يوم؛ لحد ما تبقى كويسة؟

كان على أهبّة الاستعداد لحرب معها، أعد لها ما استطاع من قوة، لكنّها جنحت للسلم فجنح له، تناول منها الحقيبتين، وسبقهما بخطواتٍ نحو المصعد.

وصلوا للسيارة، فتح لصبا باب المِقعد الأمامي، رمقته بتوتر ثمّ نظرت لـ «هدى» فتفهّمت وجلست في المقدمة غير عابئة بنظراتٍ

«مازن» الحانقة، وهو يجلس خلف المِقّود، أطبق الصمت على السيارة، ينظر لها في المرآة بين الفينة والأُخرى، يُراقب ملامح وجهها حينما اقتربوا من البيت لعلّها تتذكّر شيئًا لكن ما لاحظه شرود عينيها، حاضرة بجسدها روحها غائبة، عكّر صفو شرودها وقوف السيّارة وصوت بوقها، تفحّصت المكان بعينيها، منطقة هادئة تتراصّ فيها بيوت يظهر الثراء عليها، ثبّتت بصرها عند البيت الواقفين أمام بوابته، تحديدًا إلى اللوحة السوداء المُعلّقة جانب البوابة، كُتب عليها بخطٍ أبيض»فيلا مازن زايد القاضي«. فُتحت البوابة وانطلقت السيارة للداخل، مساحة شاسعة تراصّت على جانبيها الأشجار والورود والنخيل قبل أن تدور السيارة حول نافورة ماء في المنتصف، توقّفت أمام باب فُتح بمجرد أن أصدر بوق السيارة صوتًا، هبطت «هدى» من السيّارة، فتحت باب «صبا» مُبتسمة هامسة «حمدًا لله على السلامة» تلك الجملة التي سمعتها كثيرًا من أناس يرتدون زيًّا تبيّن لها فيما بعد أنّه زي الخدم، يستقبلونها بترحاب شديد، تُقلّب بصرها بين وجوههم خائفةً، لمّا لاحظ اضطراب ملامحها أمرهم بالذهاب لعملهم، تفحّصت المكان والأثاث حتى توقّفت عيناها عند صورة ما معلقة في منتصف الحائط، تأملتها بدهشةٍ وبدأت تشعر أنّ قلبها يدق في رأسها، هتفت «هو!» نظرت «هدى» لمازن، فوجدته مُندهشًا مثلها أيُعقل أن ذاكرتها عادت لتتعرف عليه للتوّ! اقتربت من الصورة وتفحصّت وجهه، رجل ربما جاوز عقده الخامس بسبعة أعوام، تظهر عليه الوسامة والرصانة، أشيب الفودين، ذو عيون بنّية واسعة، وبعض شعيرات بيضاء نبتت في لحيته، وأكسبت ملامحه وقارًا، نظرته

ثاقبة، حينما تنظر في عينيه تشعر أنّها تتغلغل إلى روحك كما شعرت هي الآن، مدّت أناملها ومررتها على الصورة حتى اصطدمت بالشريط الأسود المائل في أحد أحرفها، التفتت إليهما سائلةً عن صاحب الصورة، رد «مازن» بخيبة أمل بعد ظنّه بعودة الذاكرة:

_ ده عمي زين، وباباكِ يا «صبا».

_ هو فين؟

_ الله يرحمه، اتْوفى من تسع شهور تقريبًا.

ثم أردف مُتعجبًا:

_ إنتِ قلتِ ليه «هو»! أو حسيتِ بإيه لمّا شوفتيه؟

أجابت ومازالت تتفحص الصورة:

_ إمبارح شفته في الحلم، صحيت مش قادرة أفتكر التفاصيل ولا ملامحه بدقة، لكن لما شفت الصورة دلوقتي إفتكرته كويس، وحاسّة إنّي أعرفه، أو إنّه حد قريب منّي زي ما حسيت كده بأمي وعـ..

وقبل أن تنطق اسم عمر، قاطعتها «هدى»:

_ قريب إن شاء الله يا حبيبتي هترجعلك الذاكرة، وتفتكري كل أحبابك وأهلك.

ثم نظرت لمازن مُحاولةً تغيير مجرى الحديث:

_ هنقدر نسافر إمتى إن شاء الله؟

رفع أحد حاجبيه، وأجاب بصوتٍ تشوبه الحِدّة:

_ نقدر.. ونسافر! تقصدي تسافر إنت ومراتك، عمومًا يومين بالكتير إن شاء الله، ويتحدد ميعاد السفر.

نادى إحدى الخادمات، مثُلت أمامه فطلب أن توصل «صبا» لغرفة نومها، سبقتهما بخطوات باسمةً، فُتح باب الغرفة فأخذت «صبا» تصول وتجول بعينيها في أنحائها، رغم وسعها المُبالغ فيه شعرت بالاختناق، لمحت الشرفة فاتجهت نحوها بحذر وفتحتها، شرعت تشهق وتزفر بهدوء، رأته في حديقة البيت يتحدثً بالهاتف، وحينما لمحها ابتسم، فارتبكت وعادت للغرفة، تمددت في سريرها تتأمل السقف، اقتربت «هدى» ولامست جبهتها بحنان، ثم خديها لتطمئن على حرارتها، فأخبرتها «صبا» أنّها بخير، سألتها مُتعجّبةً:

ـ أمّال وشك أحمر كده ليه؟ وشكلك باين عليه التعب!

انفعلت وهي تُجيب:

ـ شايفه اللّي أنا فيه وضع طبيعي عشان أبقى طبيعية؟ مُتخيلة اللّى بمر بيه؟ أنا حتى جوزي مش عرفاه، عوزاني أبقى كويسة بعد الدوّامة دي!

مسحت على شعرها بحنان:

ـ اصبري يا «صبا»، ربنا مش هيضيعك أبدًا، وبعدين أهه «مازن» بيقول هيسفّرك بره، وهتتعالجي إن شاء الله، فليه ننكّد على نفسنا بقى!

لامت نفسها لانفعالها، تنهّدت ثم سألت:

ـ هتسافري معايا، مش كده؟

لا تعلم بم تُجيبها، تمتمت:

ـ ربّنا يسهّل.

وقبل أن تفتح مجالًا للحديث بهذا الموضوع:

ـ يلّا قومي، خُدي دوش، وروّقي، كفاية نوم.

ـ لأ، أنا عاوزه أنام، اقفلي النور.. لو سمحتِ.

ما كان منها سوى أن تُلبّي رغبتها حينما وجدتها تُدثر نفسها بالغطاء، وتضع وسادة فوق رأسها، أطفأت أنوار الغرفة، وأسدلت الستائر قبل أن تخرج لتتحدث مع مازن في أمر السفر، هبطت للطابق الأول ولم تجده، أخبرتها الخادمة أنّه في الحديقة، وجدته يتحدث بالهاتف، اقتربت تُقدّم قدمًا وتُؤخّر أخرى، شهقت لتملأ رئتيها بالهواء، ثم أخرجت بعضًا من توترها في زفرة، وقفت بالقرب منه، انتبه لوجودها؛ فأغلق الهاتف:

ـ خير، فيه حاجة؟

ـ أنا كنت عاوزه يعني أسألك عن السفر.

ـ بعد يومين إن شاء الله الميعاد هيتحدد.

ـ إنتوا هتروحوا لوحدكم؟

رفع أحد حاجبيه:

ـ وحضرتك شايفة إننا محتاجين وَصِي علينا يروح معانا مثلًا؟!

ـ لأ، مش قصدي طبعًا، بس يعني حالة «صبا» و..

قاطعها:

ـ أنا فاهم وضع «صبا» كويس، وعارف إنّها مش بتثق في حد غيرك دلوقتي، وده مؤكد مش في مصلحتها لأنّه عكس اللّي كان قبل فقدان الذاكرة، واللّا نسيتي؟!

احمرّ وجهها، وانفعلت:

_ مانسيتش يا أستاذ مازن، لكن إنت اللّي بتنسى كتير إنّي أمها غصب عنك وعن أي حد، وكفاية إن قلبها افتكرني، ووثق فيّا من أول ما شافتني.

نبشت بجرحه؛ فاحْمرّ وجهه، وانتفخت أوداجه، وهو يهدر بغضب في وجهها:

_ إنتِ اللّي ما تنسيش نفسك، عمرك ما كنتِ ولا هتكوني أمها، إنسانة خاينة زيّك ما تستحقش لقب أم، ما افتكَرتنيش لكن أنا هعمل المستحيل عشان ترجعلها الذاكرة، أما بخصوص موضوع السفر فده أمر ما يخصكيش، وبمجرد ما نسافر شيلي إيديك من أي حاجة تخص «صبا»، وإذا كنت سمحتلك تفضلي هنا؛ فده عشانها هي وبس، وده وضع مش هيدوم.

أنهى جملته وولّاها ظهره مُغادرًا المكان، اغرورقت عيناها وهَوَت على أقرب كرسي، ولم تلاحظ الواقفة تُراقبهما، جفاها النوم فنهضت لشرفتها، لمحت «هدى» جالسةً مُقابل «مازن»، بالطبع لم تلتقط أذنها كلمة من حديثهما، لكن ما لفت انتباهها أنهما كانا يتشاجران، كما أنّها لاحظت توتر العلاقة بينهما من البداية. لمحته يركب سيارته ويُغادر، فهبطت لحديقة البيت؛ حيث «هدى» الغارقة في دموعها، ربتت على كتفها فتوقّفت عن البكاء، والتفتت تمسح دموعها وتتصنّع الابتسام، جلست جانبها:

_ أقدر أفهم فيه إيه؟!

تلعثمت، وهي تُجيب:

ـ ولا حاجة يا حبيبتي، بس يعني مازن، أ..أ.. أنا مش هقدر أسافر معاكم، دكتوري قال إني ممنوع أسافر.

ـ أممم، طيب نتكلم في موضوع السفر ده في وقت تاني لمّا ييجي دوره، دلوقتي اللّي عاوزه أفهمه، فيه إيه بينك وبين مازن!؟ وماتقوليش مفيش، وماتحاوليش تنكري؛ أنا ملاحظه توتر العلاقة بينكم من وقت ما فُقت.

لم تجد بُدًّا من المواجهة، عادت بجسدها للخلف، مسحت بقايا دموعها، كانت على وشك أن تأخذ «صبا» على بساط الذكريات في رحلة إلى الماضي؛ لولا أن حضرت «منى» ووالدتها فأنقذتاها، جلست «صبا» معهما بارتباك، تبتسم مُجاملةً إلى أن ملّت تمثيل هذا الدور، اعتذرت وصعدت لغرفتها مُدّعيةً أنّها مُتعبة، وتودّ أخذ قسطٍ من الراحة.

***

كانت الشمس تُعلن انسحابها، والسماء قد تلفّعت بثوب الشفق الأحمر، وهو يركب الحافلة، فتح حقيبته، وتحقق من وجود حاجياته كاملةً قبل أن يجلس بمقعده، يهز قدميه في توتر ناظرًا للمقاعد التي تكتظ بالركاب شيئًا فشيئًا. ها قد امتلأت، فتنهّد وهو يرى الحافلة تمْخُر عُباب الطريق كسفينة

سبحت به في بحور الذكريات والالتياع الذي أقضّ مضجعه. ران الصمت على المكان، فأسند رأسه للنافذة المجاورة وعاد على بساط الذكريات إلى الماضي الحاضر كل لحظة داخله، هزّ رأسه وكأنما هكذا سيتوقف سيل الذكريات! أنّب نفسه وذكّرها بقراره الأخير،

قرر أن يترك الماضي خلف ظهره ويعود لعمله بصعيد مصر؛ ليُطفئ جذوة الأمل التي اشتعلت في قلبه، أخرج من حقيبته كتابًا يقتل به ملل الطريق، بدأ يقرأ بلا تركيز فأغلقه وأعاد رأسه للخلف، لم يمر على قراره بأن ينسى سوى لحظات، ونسي أن أكثر ما نتذكره غالبًا هي تلك الأمور التي نُقرر نسيانها!

أنهكه التفكير، بدأ جفنه يُسدل الستار على عينيه من شدة التعب، فأذعن لسلطان النوم، وأغمض عينيه في استسلام.

***

مرّ يومان، وهدى تهرب من المواجهة وتدّعي النوم كُلّما سألت «صبا» عن حياتها، أمّا «صبا» فمازالت على حالها الصموت، تتحاشى «مازن» وتهرب من أي مكان يجمعهما سويًّا، وهو مازال صابرًا، صامتًا، لاحظ تهرُّبها منه فبدأ يملأ جلَّ وقته بالعمل، يخرج باكرًا وهي نائمة ويعود أيضًا وهي نائمة، حتى تحدد موعد السفر؛ فعاد للبيت باكرًا، حينما فتح الباب سمع صوت التلفاز، ذهب نحو الصوت وعلت شفتيه ابتسامة كابتسامة عينيه حينما رآها تنام على الأريكة. اقترب بهدوء، لا يُريد أن يوقظها فيُحرم من تأملها في هذا المشهد، تذكّر حينما كان يعود من عمله؛ فيجدها ناعسة أمام التلفاز بانتظاره، بالطبع هي الآن لا تنتظره، لكنّه يُقنع قلبه بعكس ذلك ليُشعره بنشوة الحب التي افتقدها، اقترب أكثر بحذر، مسح على شعرها بحنانٍ ممتزج برعشة أنامله خشية إيقاظها، يعبث بغُرّة شعرها المُبعثرة على جبينها، ويتحسس وجهها والابتسامة لا تُفارِق محيّاه. لم يتمالك نفسه، طبع قُبلة على جبينها ففتحت عينيها، جفلت للحظة حينما رأته مُقتربًا منها

لهذا الحد، ثم انتفض جسدها ووقفت كالملسوعة، فزع لفزعها وابتعد بضع خطوات يُتمتم «ماتخافيش». تناثرت خصلات شعرها لتُغطّي عينيها فرفعتها خلف أذنها بتوتر، ولتّه ظهرها وكانت على وشك أن تصعد للطابق الأعلى حينما سمعته يُناديها، تسمّرت مكانها، تسارعت دقات قلبها وهي تسمع خطواته تقترب منها، وقف خلفها قائلًا:

ـ هتفضلي تهربي مِنّي لحد إمتى يا صبا؟

صمتت، فتابع وهو يكبح جماح دموعه:

ـ أرجوكِ ماتخافيش مِنّي، ممكن تسمعي اللّي عندي؟

ازدردت ريقها، ودون أن تتفوه بكلمة خطت نحو الأريكة، وجلست لتخبره هكذا بموافقتها على طلبه، تبعها بهدوء، كان سيجلس جانبها لولا أن انكمشت على نفسها، فجلس بالكرسي المقابل لأريكتها، أسند كوعيه على ركبتيه، ضمّ كفّيه وأسند ذقنه عليهما، يتأملها جالسةً على طرف الأريكة خائفة، تفرك يديها في توترٍ، وبؤبؤيها يصولان ويجولان في أنحاء المكان، تنحنح قائلًا:

ـ أنا مُقدِّر حالتك، وعارف إنك مش قادره تثقي فيا، أو بمعنى آخر أنا بالنسبة ليكِ دلوقتي راجل غريب، لكن على الأقل ما تحسسنيش كل ما تشوفيني إنّي هأذيكِ، هروبك مِنّي ونظرة الخوف اللّي بلْمَحها في عيونك لمّا تشوفيني بتقتلني!.

زاد ارتباكها؛ فنظرت أرضًا، وانتقلت من فرك يديها إلى العبث بملابسها، لمّا لم يجد ردًّا تابع بصوتٍ حانٍ:

ـ صبا، والله أنا كنت أكتر شخصٍ بتثقي فيه، وأوعدك هعمل كل اللّي في وسعي، وهفضل جنبك لحد ما تتعالجي وترجعي من تاني، وأثبتلك صدق كلامي.

استفزّه صمتها، فتابع مُنفعلًا:

ـ هتفضلي ساكتة كده كتير؟! اللّي إنتِ واثقة فيها دي ماتستحقـ

بتر جملته، فنظرت له تحثّه على أن يُكمل، زفر وحاول تغيير مجرى الحديث، لكنّها أصرت قائلةً:

ـ أنا لاحظت هروبها من أسئلتي، أرجوك إنت كمان ماتراوغش وتتهرّب منّي، احكيلي فيه إيه!؟ لاحظت كمان، لمّا أختك ميرال جت كانت بتعاملها وحش، ليه مفيش ودّ بينكم!

تنهد، ثم قال:

ـ ولا كان فيه بينك وبينها!

رفعت أحد حاجبيها، وردّت باستهجان:

ـ إزاي؟ مش فاهمه!

ـ ممكن نأجل الكلام في الموضوع ده، على الأقل دلوقتي؟

ـ لأ. مش مستعدة للتأجيل أكتر من كده، أنا بقالي أكتر من يومين عايشة في صراع ومُعاناة، مش سهل إنّكـ

صمتت هنيهة، ثم أكملت جملتها بصوت مُتهدج:

ـ إنّك تكون عايش مش عارف أي حاجة في حياتك، ولا عارف مين الناس اللّي حواليك، أنا بجد تعبت، أرجوك ريّحيني بقى، وقولّي أي حاجة عنّي، قولّي أنا مين.. أنـ !

لم تُكمل، اختنق صوتها داخلها، خبّأت وجهها في حضن كفّيها، وانخرطت في البكاء، بدأ يعلو صوت نحيبها وجسدها يهتز، سكنت فجأة حينما وجدت نفسها أسيرة بين ذراعيه، ارتجف جسدها، حاولت أن تبتعد ولكن ضمَّته كانت أقوى من محاولتها التي باءت بالفشل.

للحظة شعرت بالطمأنينة فتركت نفسها لهذا الشعور، وبدأت تهدأ وتستكين، لكنّ هذا الاطمئنان لم يستمر، بدأ الخوف يجتاح قلبها من جديد؛ فسحبت نفسها بارتباك من بين ذراعيه، شعر بارتباكها؛ فاعتذر:

_ أنا آسف، بس حسيت إنّك محتاجة الحضن ده، أو حبيت أهدّيكِ بالطريقة اللّي كنتِ دايمًا بتحبيها.

ابتسمت بامتنان، فابتسم وتابع:

_ أنا عارف إنّك حاسة بالتوهة، ونفسك تعرفي كل حاجة عن حياتك، وهو ده اللّي بسعى عشانه بالفعل، أنا خلاص اتفقت مع دكاترة مُتميزين جدًّا في لندن، حجزت التذاكر وطيارتنا بكره إن شاء الله، إنتِ مش بتثقي فيّا وأنا مُقدّر ده، لكن مش هينفع ناخد مامتك معانا، دي أول خطوة في علاجك لأنك ماكنتيش بتثقي فيها قبل الحادثة.

_ ليه؟! ممكن تفهّمني؟!

_ الحكاية باختصار شديد، ومن غير ما ندخل في تفاصيل، مامتك وعمّي- الله يرحمه- انفصلوا وإنتِ تقريبًا عندك ١٢ سنة، وماتسألنيش ليه؟، وبعدها سافرنا كلنا لندن أنا وإنتِ وميرال بعد وفاة أمي وأبويا لأن عمّي كان مسئول عننا، عشنا مع بعض عيلة واحدة في لندن؛ عشان كده إخترت يكون علاجك هناك، ومن وقتها وإنتِ مفيش أي ود بينك وبين والدتك، ولا بتثقي فيها؛ علشان كده كُلّنا استغربنا أسلوبك معاها بعد الحادثة، هي نفسها ماكنتش مصدقة!



تمتمت:

_ علشان كده كانت بتتهرب من إنّها تحكيلي!

_ بالضبط كده، حتى لو ماكُنتيش بتثقي فيّا دلوقتي أرجوكِ استحملي، وحاولي تثقي فيّا على الأقل لحد ما ترجعلك الذاكرة، ساعتها بس هتعرفي مين اللّي كنتِ بجد بتحبيهم، وتثقي فيهم، ومين لأ، ممكن تساعديني؟

أومأت، كانت على وشك قول شيء، ولكنّها ترددت، ثم آثرت الصمت، ففهمها وعلّق:

_ ماتقلقيش، مُتفهم إنّك حسّاني غريب عنّك، اللّي حصل من شوية مش هيتكرر، مش هغصبك على أي حاجة، ولا هجبرك تعامليني كزوج لحد ما تثقي فيّا، وتتأكدي بنفسك إنّي جدير بثقتك.

عادت تبتسم له بامتنان، ثم استأذنت لتخلد للنوم، صعدت لغرفتها، نظرت لهدى النائمة على سريرها، شعرت بالانزعاج منها حينما ربطت بين ما قاله مازن وبين تهرّبها من تساؤلاتها، صرفت تفكيرها عنها بالسفر وبالمجهول الذي تتقدم نحوه، تشعر أن الحياة تتخبطها بلا هوادة، تود لو تصرخ لعلّ هذا الصراخ يُريحها، تمددت جانب «هدى» وتأملتها، رغم ضيقها مما عَلِمت؛ فإن قلبها ليس غاضبًا منها إلى الحد الذي وصفه مازن، زفرت وهي تغمض عينيها حتى يزورها النوم، فلا سبيل لها سواه لتستريح رأسها من الأفكار التي تعصف بها.

***

كانت تعد حقائبها حينما شعرت بـ «هدى» خلفها، لاحظت «صبا» أنّها تود قول شيء ما، ولكنّها مُترددة، فسألت:

_ فيه حاجة؟

تلعثمت قبل أن تُجيب بسؤالها:

_ هو إنتِ اتكلمتي مع مازن في حاجة؟!

أجابت مُنشغلة بترتيب حاجياتها:

_ حاجة زي إيه مثلًا؟!

_ يعني اتكلمتوا عن السفر، و.. و..

_ والأسئلة اللّي بتتهربي منها، مش كده!؟

لم ترد، فتركت «صبا» حقيبتها، التفتت لها قائلةً:

_ أنا عرفت بتتهربي من أسئلتي ليه.

_ عـ.. عرفتي إيه بالضبط؟

_ إن أنا وإنتِ ماكنش فيه أي ود ولا اتفاق بينًا.

صمتت تُؤنّب نفسها على هروبها وتأخُّرها في إخبار ابنتها بكل شيء، ثم قالت:

_ صبا، ما تصدّقيش كلمه عليّا، أنا كُنتـ

قاطعتها:

_ أنا بجد تايهة، مازن بيقول كلام، وقلبي بيقولّي عكسه، هروبك من أسئلتي بيأكدلي كلام مازن، لكن قلبي لسه بيقولّي إنك قريبة مِنّي، مابقتش عارفه أعمل إيه!، بجد تعبت، قوليلي أعمل إيه؟

جلست على حافة سريرها، ودفنت وجهها بين كفّيها، تأملتها «هدى» والألم يسري في قلبها، لا تعلم ما أخبرها به مازن، لم تجد رغبة بالدفاع عن نفسها، أو ربما لا تود شغل رأس ابنتها بشيء يزيد همومها وتُدخلها في صراعات لن تتحملها في حالة الضعف

التي تعتريها الآن؛ لذا آثرت أن تستسلم للأمر الواقع حتى تستعيد ذاكرتها، اقتربت منها، ربّتت على كتفها، وقبّلت رأسها، ثم قالت:

_ حاسّة بيكِ يا نور عيني، ماتعمليش حاجة غير إنّك تسافري مع جوزك، هو بيحبك بجد، وكنتِ بتحبيه وتثقي فيه حتى أكتر مِنّي، حاولي تِبني ثقتك فيه من جديد، وقلبك هيفتكره، مش مهم عندي أي حاجة في الدنيا غير إنّي أشوفك بخير، تسافري وترجعيلنا بألف سلامة.

رفعت وجهها، ونظرت في أحضان مُقلتيها، فرأت نفسها الضائعة، ألقت على عينيها الأسئلة، ولكنّها لا تملك الإجابة، صمتتا برهة، كلٌّ منهما تتفحص الأُخرى مغرورقة العينين. ساد الصمت إلّا من دقّات قلبيهما، دقّات أم تُخبرُ صِباها أنّها يومًا ما كانت جنينًا نائمًا جانب هذا القلب في اطمئنان، ارتمت بين ذراعيها، وانسابت دموعها على وجنتيها مُتمتمةً «أنا قلبي مكسور وواجعني أوي»، شدّت ضمّتها عليها في محاولةٍ لبث الدفء في أوصالها، ثم قالت باسمةً وقد شعرت برغبة في الاستطراد تُريحها:

_ تعرفي! زمان وإنتِ صغيرة ماكنتيش تعرفي تنامي غير وراسك على صدري،كنتِ لمّا حاجة تضايقك تيجي تنامي في حضني، وأمسح على شعرك كده.. وأقرالك قرآن، أبوكِ- الله يرحمه- يغير وييجي يغلّس علينا ويشدّك لحضنه، بس إنتِ كنتِ دبلوماسية ما تحبيش تزعّلي حد، تبصيله وتقولي بحب حضنك أوي يا بابا، بس بحب حضن ماما سِنّة أكتر، ولمّا يبرّقلك بعنيه تقولي دي سِنّة صغيرة والله مش كتيرة خالص، وتجري تستخبّي في حضني.



ابتسمت رغماً عنها، لو اجتمع أهل الأرض ليُكذّبوا حديث «هدى» الآن لما صدّقتهم، فتلك الراحة والطمأنينة التي تشعر بها كُلّما ضمّتها بين ذراعيها تُؤكّدُ لها أنّها كانت تُدمن هذا الحضن، أغمضت عينيها وتركت نفسها لإحساس الأمان يغمرها ويغمر قلبها، حتى سألت هدى:

ـ ممكن ماتقاطعنيش لمّا تسافري، وتسألي عليا، على الأقل لحد ما ترجعي بالسلامة إن شاء الله؟

رفعت رأسها ونظرت لها قائلةً:

ـ طيب ما تحكيلي إنتِ كل حاجة، جاوبي على أسئلتي، أنا عاوزه أسمع منك وهصدّقك في أي حاجة تقوليها.

تنهدت، ثم ابتسمت وهي تُجيب:

ـ يااه بقالي أكتر من ١٢ سنة بتمنّى اللحظة دي تيجي، لكن لأ مش هينفع دلوقتي لأنّي عاوزه أثبت برائتي لصبا اللّي كبرت وهي ظلماني، خلينا نأجل اللحظة دي لمّا ترجعي بإذن الله بعد ما ترجعلك الذاكرة، حابه أحكيلك وأدافع عن نفسي، وإنتِ قوية ومستعدة تسمعيني وتصدقيني عشان إنتِ مقتنعة بكده، فعلاً مش دلوقتي في ضعفك اللّي هيخليكِ تصدقيني عشان مفيش قدامك غير كده!

ـ بس أنا ه..

قاطعتها، وهي تحتضن وجهها بين كفّيها:

ـ عشان خاطري اصبري، المهم تاخدي بالك من نفسك وماتفكريش في أي حاجة غير إنّك تسمعي الكلام اللّي الدكتور هيقوله وتسمعي كلام جوزك، وتساعديه عشان ترجعيلنا، الدكتور

قال نص نجاح العلاج متوقّف على نفسيتك واستعدادك لرجوع الذاكرة، فأرجوكِ إعملي كل اللّي في وسعك.

أومأت، فابتسمت «هدى» وطبعت قبلة حانية على وجنتها، وأخرى على جبينها، ثم نهضت لتُساعدها في إعداد حقيبتها.

***

كان مُنهمكًا في عمله حينما طرق أحدهم الباب، ودخل قبل أن يأذن له، نظر ناحية الباب، ولمّا رآه وقف مُبتسمًا، تقدّم نحوه، سلّم عليه بحرارة، جلس بالكرسي المقابل للمكتب، وبعد أن سأله عن أحواله، قال بلهجته الصعيدية:

ـ يا مرحب يا عمر، الصعيد نوّرت، كل دي غيبة يا راجل؟ ده أنا قلت هتتنقل القاهرة تاني!

رد وهو يجلس بالكرسي المقابل له:

ـ معلش. أنا عارف إنّي طولت الأجازة، بس الدنيا ملخبطة هناك؛ فكان لازم أفضل لحد ما الأوضاع تستقر شوية.

سأله عن ابنة عمّته، فأخبره بفقدانها الذاكرة، بدا الآخر حائرًا، وهو يسأل:

ـ همَّا ملهمش بيت هنا؟!

ـ لأ، بس اشمعنه يعني بتسأل في حاجة؟!

حك ذقنه، وهو يجيب:

ـ أصل أنا فاكر اسم بنت عمتك من أيام التحقيقات، اسمها «صبا» صح؟

أومأ، فتابع سالم حديثه:

_ بعد ما إنت سافرت بأسبوع، جاني بلاغ إن فيه حرامية دخلوا بيت قريب من منطقة الجبل، رحت ولقيت البيت بعيد ومُنعزل، فيه هناك حارس ومراته وولاده، حكوا إن أصحاب البيت في القاهرة، وإن من يومين دخلوا حرامية ملتّمين، رشُّوا في وشّه هو ومراته حاجة، أغمي عليهم بس بعد ما فاقوا فتّشوا مالقوش حاجة مسروقة، اللّي خمنته إن الحرامية ماكنوش داخلين يسرقوا حاجة؛ لأن كان قصادهم حاجات كتير غالية وماقربولهاش، كانوا بيدوّروا على حاجة معيّنة، إما لقوها أو لأ، الله أعلم، اللّي هيعرف ده بنت عمتك.

رفع أحدَ حاجبيه باستنكار:

_ وصبا علاقتها إيه بكل ده؟

_ ما أنا جايلك في الكلام أهه، لما حققت مع الراجل، وطلبت عقود البيت لقيتها باسم «صبا زين العابدين».

لاحت الدهشة على وجه عمر؛ فأكمل سالم:

_ أنا وقتها ماجاش في بالي قريبتك، خلّصت التحقيق ومشيت، بس في سكة الرجوع مشيت من طريق الجبل، وأول ما وصلت عند مكان الحادثة؛ جه على بالي اليوم ده، وتدويرك وتحقيقك في الموضوع، وافتكرت الاسم، كلّمتك كتير وكان تلفونك إما مقفول أو مابتردش، وكنت مستني لما ترجع عشان تتأكد بنفسك.

نظر له مُندهشًا يُحاول استيعاب ما سمع للتوّ، يُحاول ربط الأحاجي- التي تُرهق رأسه- ببعضها، نهض قائلًا:

_ قوم معايا، أنا لازم أشوف البيت ده حالًا.

***

في مطار القاهرة الدّولي، وسط الخارجين والوالجين من وإلى مصر، تقف «صبا» مُلتحفةً ذراع «هدى»، تُسلّم على خالها وابنته وزوجته بابتسامة مُجاملة، كابتسامتها وهي تُسلّم على ميرال، ثم نظرت لـ هدى بحبٍّ، والتمعت عيناها، ضمّتها بين ذراعيها؛ فأغمضت عينيها، وأخذت تشهق وتزفر ببطء لتُخرج في زفراتها توترها ووحشة قلبها، وتملأ بشهقاتها صدرها أمانًا واطمئنانًا، همست «هدى» في أذنها ببعض وصاياها، حثّهُما «مازن» على الإسراع، نظرت له ترجوه أن يتركها ولو لبضع دقائق أخرى، كانت فَرِحةً لأنها في الطريق نحو عودة الذاكرة، لكنّ شيئًا ما لا تعلم مصدرَه يُنغّص عليها فرحتها، شعر قلب «هدى» بحيرتها، فشدّت ضمتها، والتحمت بها «صبا» تُحاول سحب أكبر جرعة مُمكنة من الأمان ليُعينها في سفرها، انسابت دموعها فمسحتها «هدى» بأناملها باكية، زفر «مازن» بضيق ثم طلب منها مرة أخرى أن تُسرع، ودّعتها بضمة أخيرة، وسارت خلفه بتباطيءٍ وتوتر، أنهوا إجراءات السفر، صعدوا على متن الطائرة، ووجيبُ قلبها يتصاعد، جلست بمقعدها تُراقب المقاعد وهي تكتظ بالمسافرين، تُراقب وجوههم لعلّها تجد حائرًا مُسافرًا نحو المجهول مثلها، انتبهت لصوت المُضيفة تُرحّب بالرُّكاب وتشرح لهم شيئًا ما، حقًّا لم تسمعه رغم قرب المضيفة من مقعدها، لاحظت أنّها لم تعد تِسمع الأصوات من حولها، وكأنما صُمّت أذنها، حتى أنّها لامست أُذنيها، قرصت يديها لتستفيق، وأخيرًا التقطت أذنها حديث أحدهم، إنّه «مازن» يسألها «مرتاحة؟!». أجابت بإيماءة، نظرت من النافذة، وقد بدأ الخوف يتسلل نحو قلبها من جديد، تحتاج الآن لضمّة هدى،



تتمنى لو لديها الشجاعة الكافية لتنهض وتركض مُبتعدة، أتاها صوته ليُخرجها من لجة أفكارها «اربطي الحزام»، سمعت صوتًا يطلب من الركاب ربط الأحزمة، نظرت حولها بتوتر، وارتجفت وهو يربط لها الحزام دون استئذان، تحدّثت لنفسها كثيرًا لتُهدئ من روعها. وسرعان ما عاد توترها والطائرة تستعد للصعود، قبضت بيديها على فستانها وصكت أسنانها في محاولة منها للتغلب على خوفها أثناء صعود الطائرة. وفجأة، وجدت يده تقبض على يدها، يضمّها بحنان ويربت عليها، لم تكن بحالة تسمح لها بسحبها من بين يديه، شعرت أنها بالفعل تحتاج لمن يضم يديها، فتهرب أشباح الخوف والوحشة من قلبها، تنفّست الصعداء بعد استقرار الطائرة في السماء، عادت لشرودها والخوف يُراودها، ترك يدها قائلًا:

_ أنا لسه عند وعدي، ما تقلقيش، بس حسيت إنّك متوترة وخايفة؛ فحبيت أطمنك.

ابتسمت له فبادلها الابتسام، نظرت من النافذة مرة أخرى، وحاولت هزيمة خوفها فهربت على بساط الأحلام، وبدأت رسم مستقبلها، وكيف ستكون حياتها بعد أن تعود الذاكرة، شرع الأمل يرسم خطوطه في مُقلتيها، لا تعلم لِمَ في هذه اللحظة لاح أمام ناظريها وجه عمر!

تتخبط الحيرة قلبها، من هو عمر؟ ولِمَ تشعر بقربه والاطمئنان لرؤيته لهذا الحد ما دام لم يكن يومًا قريبًا منَها؟! كادت تسأل «مازن» عنه، لكنّ شعورًا داخلها جعلها تتراجع، تنهّدت وقد باءت محاولات هروبها من الخوف بالفشل. ها هي تمضي قُدمًا نحو المجهول بإرادتها،

دون خطواتٍ محسوبة، تشعر أن كل شيء فُرض عليها، ليس أمامها سوى هذا الطريق، ها هي انطلقت نحو المجهول بإرادتها، وعليها أن تتحمل المغامرة وحيدة..!

***

تقف أمام مشرحة «زينهم» وسط الكثيرين وقد زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، يسندها زوجها وتسنده، هذا هو حالهما منذ أن اتصل شرطي يطلب منهما الحضور للتعرّف على جثة أخرى تُطابق مواصفات طفلتهما المُختفية، فُتح الباب ومَثُل الشرطي ومعه طبيب أمام ناظريهما، طلب منهما الدخول، كمّما أنفيهما بالمحارم الورقية، دلف الزوج- وهي خلفه- بتباطؤ، هناك شعور مختلف ينتابها هذه المرة، وقفا أمام الجثة المُغطّاة، تشبثت بذراع زوجها وثبّتت بصرها عليه تُراقب ملامح وجهه؛ فشدّ على كفّها داخل كفّه ليُطمئنها ويُخبرها أنّه جانبها، أعطى الطبيب إشارة خضراء بإيماءته،كشف الغطاء عن وجه الجثة؛ فشهق الرجل، أغمض عينيه بقوة، تقلّصت ملامحه، فثار بركان الخوف وبدأ يحرق قلبها، هناك قوة داخلها تمنعها من النظر إليها، شعور مقيت يسري في قلبها، إنّه الشعور الذي يُنذرك بمصيبة قادمة، ولا تدري مصدرَه، فقط يحتل قلبك ويخنقه! قوة تُخبرها أنّها على وشك تلقّي صدمة ستُفتت قلبها، ضغطت على ذراع زوجها فلم تجد من ملامح وجهه ما يُطمئنها. بدأ القلق يعبث بمؤخرة رأسها، لم تعد تشعر بقلبها من سرعة خفقانه، وهي تلتفت ببطء نحو الجثة، ارتعدت فرائصها وبدأت عيناها في الاتساع شيئًا فشيئًا، فاغرةً فاها تتأملها، مفقوءة العينين، مبقورة البطن. مشهد مُروّع، ورغم

بشاعته ميّزت فلذة كبدها، تركت ذراع زوجها واقتربت من الجثة، كانت ترتجف وتُغمض عينيها كُلّما رأت دمًا أو جُرحًا صغيرًا في أُصبع!، والآن.. لا تعلم من أين أتتها القوة لتتأمل جثة بهذا المنظر!، وتمسّها بأناملها! ألأنّ هذا الجسد الصغير الضعيف هو قطعة منها؟! انفطر قلب الواقفين لحالها، فجأة بدأت تضحك بهستريا، وتلتفت لزوجها:

ـ فرح رجعت يا عابد، لقينا فرح، شفت وشّها منور ازّاي! يا رب المريلة اللّي اشترتها تعجبها، متشوقة أشوفها بيها وهي رايحة ع المدرسة.

نظرت للجثة تهزها برفق:

ـ فرح قومي يا ماما، يلّا شوفي اشتريتلك إيه، قومي ده أنا من يوم ما غبتي ماغمضليش جفن، يلّا يا فرح أنا تعبت على ما ربنا رزقني بيكِ.

انكفأت على ابنتها، تحسّست بأناملَ مُرتعشة التشوَّه الذي يمتد من صدرها لآخر بطنها، وتخيّلت ما فعلوه بصغيرتها، وما عانته وحيدة، شيء ما يطعنها في صدرها،لم تحتمل أكثر من ذلك؛ أخذت تضرب صدرها بعنف عسى أن يتوقف الألم ولو للحظة فقط يمنحِها فيها الفرصة لتلتقطً أنفاسها. حاول زوجها أن يمنعها من صك صدرها، زجرته وانتزعت جسدها من بين يديه، اقتربت من طفلتها تُقبّل عينيها المفقوءتين عسى قبلاتها تُعيد مُقلتيها، تُقبّل جرح صدرها عساه يختفي وتجدها واقفة أمامها بوجهها المشرق الضحوك، تمتمت وهي تُقبّل أناملها:

_ اسم الله عليكِ يا ضنايا، رُدّي عليّا يا فرح، قوليلي يا ماما مين عمل فيكِ كده؟ رُدّي عليّا عشان خاطري، أنا آسفة يا حبيبتي سامحيني سهيت عنّك، طاب سيبتي إيدي ليه؟ أنا مش نبّهت عليكِ قبل كده لمّا أقف أشتري حاجة وأسيب إيديك تمسكي في هدومي؟ رُدّي عليّا بقى ماتوجعيش قلبي. دمعت عيون الواقفين، اقترب منها زوجها باكيًا بحرقة، رفعها عن جسد ابنتها وضمّها بين ذراعيه، رفعت رأسها عن صدره، ونظرت للطبيب تهزي دون وعي:

_ إعملّي عملية يا دكتور، وخُد عينيا حُطهالها، ما أنا كنت بحمد ربنا على عيوني دي عشان بشوفها، مش عاوزه صوتي تاني إديهولها مش عوزاه، أنا بس عاوزه أسمع صوتها، بص.. خد روحي وحطها في جسمها، خد كل حاجة عندي وإديهالها بس ترجع تاني، أبوس إيديك، إعمل أي حاجة.

التمعت عينا الطبيب، ونظر أرضًا في صمت؛ إجلالًا لجرح ثكلى ينزف الآن، صوّبت نظراتها الغاضبة نحو الضابط، اقتربت منه، أمسكت بتلابيبه صارخة في وجهه:

_ مين عمل في بنتي كده!؟ قولّي مين وأنا آكله بسناني، قولّي مين عشان أشفي غليلي فيه، وأجيب حق بنتيي.

جذبها زوجها بين ذراعيه، وظلّ يُهدهدها، لا يدري كيف يبثُّ الصبر في قلبها وهو يحتاج ألف صبر فوق صبره؛ ليُعينه على مصيبته. تصرخ ولا تبالي بأحد، هي الآن مذبوحٌ يصارع الموت تؤلمه السكرات، حاولوا إخراجها من الغرفة، ولكنّها أبت، قاومت باستماتة، وظلّت تصرخ وتهزي حتى فقدت وعيها جانب الجثّة.

***

لا أحد يستطيع إرجاع الزمن إلى الخلف، وبدء حياة جديدة، ولكنّه يستطيع- الآن- أن يضع بداية جديدة؛ ليُسطّر نهاية جديدة.

غسّان كنفاني



خرجت من غرفة الطبيبة، فوقف مُتحفِّزًا مُبتسمًا حينما رآها، وسرعان ما تلاشت ابتسامته، وانطفأت جذوة الحماسة داخله؛ لمّا رأي وجهها مُكفهّرًا،لم ينبس ببنت شفه، سار جانبها نحو السيارة، جلس خلف المقود وهي جانبه صامتة شاردة، تُكبّل الدموع في حدقتيها، تُجابه حربًا طاحنةً داخلها؛ فأخذ صدرها يعلو ويهبط حتى قال:

_ إن شاء الله، نشوف بكره دكتور جديد.

ردّت بصوتٍ مُتحشرجٍ من أثر الدموع التي تحبسها:

_ إنت عارف دي دكتورة رقم كام؟! أنا زهقت وتعبت خلاص، كفاية.

_ حتى لو إنتِ يأستي أنا مش هيأس يا «صبا»، عشان خاطري طوّلي نَفَسك أكتر من كده.

_ لحد إمتى! بقالنا هنا ٥ شهور بنتنقل من دكتور للتاني، ومفيش فايدة. كلهم بيأكّدوا إنّي مش مُتجاوبة ولا مُتعاونة معاهم، طيب أعمل إيه أكتر من كده؟!

_ أمممم، تاكلي آيس كريم؟!

نظرت له مُتّسعة العينين:

_ أنا بتكلم في إيه وإنت بتقولّي إيه!

_ ماقولتليش تاكلي آيس كريم بطعم إيه؟!

نظرت له بحنق، ثم عادت لشرودها ناظرةً من النافذة، تُفكّر في الخمسة شهور التي مضت بلا جديد، شردت في يوم وصلت إلى هنا، كانت ترتجف كطفل تائه حائرٍ أخذوه من بين ذراعي أمه، نظرت له بذَنبِ عينيها وتذكّرت كيف احتواها بكلماته الحانية يُطمئنها ويُدعّمها،



فتسرّب بعضٌ من أمان هذا اليوم إلى قلبها، جال بخاطرها كلّ ما فعله لأجلها، تذكّرت رحلاتهم في كل مكان زارته في صباها وهو يسرد لها القصص والحكايا التي جمعتها بهذه الأماكن، تعجّبت كيف إلى الآن لم تتذكّر حنونًا مثله! تأمّلته بعيونٍ لامعة، وابتسامة رضا تعتلي شفتيها، نظر لها غير مُصدّق أنّها تبتسم لهً! ابتسم ملء شدقيه، عادت تنظر من النافذة شاردةً فيما قالته طبيبتها منذ قليل، تُفكّر في العمل بنصيحتها، أن تبدأ بناء حياة جديدة بلا ماضٍ، ما المشكلة!؟ لديها زوجٍ حنون يعشقها، صبر عليها كثيرًا، ورغم ًأنّها لم تتذكره أحبّه قلبُها رِغمًا عنها. من الواضح أنّ ماضيها كان أليمًا مُوجعًا فلِمَ تنبش فيه، وتُحاول فتح أبواب قلبها يُحدّثها أنّها أُغلقت رحمة بها من الله،كُلّما حاول طبيب مساعدتها، خوف ما يُسيطر على قلبها، تسمع دقّاته كقرع طبول تصم أذنها، يُحذرها إن اقتربت من مقبرة ذاكرتها ستهلك لا محالة! لاحظت توقّف السيارة، نظرت جانبها فلم تجده، وقبل أن تبحث عنه عيناها؛ وجدته قادمًا نحوها يحمل في يديه المُثلجات، ارتفع حاجباها دهشةً:

_ إنت كنت بتتكلم بجد بقى!

_ أها.. طبعًا، إحنا معندناش هزار، يلّا انزلي.

هبطت من السيّارة، ابتسامتها بثّت في قلبه الشجاعة؛ ليحتضن كفّها، فارتجفت واضطربت، ولكنّها هذه المرة لم تسحبه. ابتسم، ضغط على كفّها بحنوٍّ، وسار بها، تأمّلت المكان من حولها، ثم سألته أين هما الآن؟ أجابها وهو يتوقف عند حديقة أحد المنازل «وصلنا». تأمّلته، بيت قديم يتوسّط حديقة مظهرها يوحي بإهمالها منذ زمن، نظرت سائلةً لمن هذا البيت؟، لم يُجبها، دفع الباب الحديدي القديم فأصدر

صريرًا مُزعجًا، تقدّم نحو حديقة البيت فتبعته. كان الصمت يحوم بالمكان إلا صوت خشخشة الأوراق الذابلة التي تُدك تحت قدميهما، تشعر براحة نفسية مذ وطئت المكان بقدميها، وقف عند أرجوحة قديمة صدئة، مرّر أصابعه عليها، يبتسم بعيون دامعة، كانت لاتزال تتأمل المكان حتى انتبهت إلى أن المُثلّجات سالت وأغرقت يدها، تناولت أحد المحارم الورقية من حقيبتها ومسحتها، تناهى إليها صوت صرير الأرجوحة، اقتربت منه وسألت مرة أخرى: لمن هذا البيت!؟ ردّ دون أن ينظر إليها:

_ ده بيتنا، وبكده إحنا زُرنا كل شبر زُرتيه هنا بقصد أو من غير، وكنت مأجّل المكان ده للآخر.

_ طبْ، يلّا احكي.

_ اقعدي ع المرجيحة الأول.

جلست كطفلة تستعد لسماع قصص أبيها قبل النوم، ها هي قصة أخرى من قصص «مازن» التي تستمتع بها، ولكنّها تخرج من العيش فيها بلا جديد! بدأ يدفع الأرجوحة برفق لتُحلّق بهما في سماء الماضي، إلى طفلة في العاشرة ينام كفّها باطمئنان في كف شاب بعامه العشرين، كانا بإحدى زياراتهم العائلية للندن، دائمًا يتنزهان، يشتري المثلجات ويجلسان في حديقة عامة أمام هذا البيت. وفي أحد الأيام، كانا جالسيْن عندما فقدت امرأة وعيها في حديقة المنزل، قفز مُسرعًا نحوها وساعدها، تبيّن أنّها صاحبة البيت- «مارثا»- تعيش وحيدة، ومنذ هذه اللحظة أصبحا رفيقيها، كُلّما سافرا إلى لندن يُحضرا المُثلّجات ويذهبا لزيارتها حتى أعربت «صبا» ذات يوم عن أمنيّة قائلةً:

_ أنا نفسي لمّا أكبر وأتجوز، أعيش في بيت زي ده.

دون شعور منهما ألقت بذرة حُب صغيرة في قلب الفتى العشرينيّ،كبرت النبتة مع قلبه، صُنعت على عينه، عزف عن الزواج حتى تكبر صغيرته، ولمّا كبرت اجتبى قلبُها غيرَه!

كان يشعر أنّها خاصّته، هو من ربّاها، هي فقط من حقه، حاول أن يكون أنانيًّا في حبه ولم يستطع، آثر سعادتها ولم يبح، بل بنى قصرًا لتعيش فيه وأميرها فوق رماد فؤاده، مضت في طريقها مُتأبّطة ذراع حبيبها ولم تسمع صرخات قلبه المكلوم، صارت جُرحًا رابضًا يُسلسل دقات قلبه، ألقت به في غيابات الجُبِّ وحيدًا، حتى حدثت المُعجزة، عادت وأدلت دلوها لتُبشّره أنّها لن تكون لغيره، لكنّها كانت فيه من الزاهدين وعادت له بنصف قلب، وجعٌ مستمرٌّ ينخر في خافقه كُلّما أخطأت باسمه أو شعر بخفقاتها تُنادي اسم غريمِه وهي بين ذراعيه، أكرم مثواها ومكّنها قلبه عسى يومًا تُحبّه وحده دون شريك، تحمّل كثيرًا حتى سافر إلى لندن لصفقة جديدة ستعقدها شركته. بعد عقد صفقته، ترك الفندق وأخذ يجوب شوارع لندن مُقتفيًا ذكرياتهما، يوم كانت ريشة الحب ترسم خيوط الأمل في قلبه، دفع الفضول قدميه إلى بيت مارثا، يود معرفة أخبارها التي انقطعت عنهما منذ أن عادوا إلى مصر، أو ربما تلك هي الحجة التي أقنع بها نفسه، ذهب بقدميه إلى عرين الذكريات، ذهب مُتوكئًا على قلبه، يهش به على نصف الحب الذي منحته إياه، وليس له في هذا القلب السقيم مآرب أخرى!

وجد البيت قد لوّنته الشيخوخة، تحتضن عيناه كل ركن، ويرى معشوقته تجري وتُشاكسه، رآها هناك جالسة على الأرجوحة تلعق

المُثلّجات التي تربّعت مخروطًا من «البسكويت»، وعلى حين غِرة لطّخت أنفه ببعض منها وولت هاربة، ركض خلفها ولمّا أمسك بها انتقم ولطّخ وجهها، يسمع ضحكاتها وضحكات «مارثا» و»ميرال» اللّتيْن كانتا معهما تشهدان على هذه الذكرى، ضحك رغماً عن وجع قلبه، وشريط الذكريات يمر أمام عينيه، اقترب من باب الحديقة فوجده مُغلقًا بالأقفال، ولمح لافتة كُتب

عليها بالإنجليزية «المنزل للبيع»، ارتسمت خيوط الدهشة ممزوجة بخيوط الفرح التي بدأت تتلوّن في عينيه، أسرع يدسُّ يده في جيبه ويُخرج هاتفه، يعبث بأزراره ويكتب الرقم الموجود أسفل اللوحة داعيًا ألّا يكون قد تأخر، وفاتَ الأوان. علِمَ أنّ «مارثا» توفّيت وأقاربها عرضوا البيت للبيع، هذه المرّة أتت الرياح بما تشتهي سفنه. بعد مرور ثلاث ساعات، كان البيت مكتوبًا باسم صباه، أعدّ لها هذه المفاجئة لعلّها تُخفف عنها ألم فراق أبيها، اتّصل بها ليطلب منها الحضور في أقرب رحلة طيران، ولكنّ هاتفها كان مُغلقًا، ها هي الرياح تُعانده مرةً أخرى وتقتلع أشرعته لتُغرق سفينته، ويستيقظ من حلمه على كابوس غيبوبتها، ومنها إلى فقدانها الذاكرة، وبدلًا من أن يجعلها تُحبّه وحده أصبح عليه أولًا أن يجعلها تتذكر من هو! استمرّ يُقلّب في دفاتر الماضي، ويتجرع مع كل صفحة رشفة من كأس الذكريات المرير، قصّ الحكاية غير كاملة هذه المرة،لم يذكر معاناة قلبه، آثر أن يدفن وجعه مع ذاكرتها فلا غريم له الآن، وبالطبع لم يذكر عمر، عاد من رحلة الماضي شاردًا، دامع العينين. التمعت عيناها وهي تسمعه، تبتلع ريقها بصعوبة بالغه أتُراها المُثلّجات تُؤلم حلقها

الآن؟ أم تلك هي المرارة التي ابتلعتها من الوجع البادي في صوته؟ أرادت أن تُمازحه وتُخفف عنه ثقل كاهله، التفتت نحوه على استحياء، ولطّخت أنفه بالمُثلّجات ضاحكةً ثم لاذت بالفرار، نظر لها مُتّسع العينين غير مُصدّق ما حدث للتّو، ضحك وركض خلفها، كانت على وشك أن تسقط؛ لولا أن أمسك بها مُطوقًا خصرها بذراعيه، ولمّا تلاقت العيون سكت كل شيء من حولهما، لم ينتبها إلى ضحكاتهما التي توقّفت فجأة ولا إلى المُثلّجات التي وقعت بالأرض، صمتت كل اللغات في حضرة لغة العيون، يشعر بنبض قلبها في يديه، تُقبّل عيناه كلَّ خليّة في وجهها، قرّبها من ضمّته أكثر، أغمضا عينيهما، وبدأ خدْر الحب يسري في عروقهما حتى أفاقهما بوق سيارة مارة من جانب المَنزل. سحبت نفسها من بين ذراعيه بارتباك، اعتدل يتنحنح لاعنًا بينه وبين نفسه هذه السيّارةَ التي أفسدت عليه لحظة نادرة الحدوث كهذه. حاولت السيطرة على ارتباكها وارتجاف جسدها حينما سألها:

_ تحبّي تنقلي في البيت إمتى؟

_ فـ.. في أي وقت مش هتفرق.

_ أنا جبت شركة نضّفته، وغيّرت الأثاث، وبقى جاهز إننا نعيش فيه لو تحبّي ننقل من الليلة.

أومأت بابتسامة خجلى، صمَتَا هُنيهة حتى سألها إن كانت تود رؤية البيت الآن أم بعد أن يُحضرا حقائبهما، فآثرت أن يُحضرا الحقائب أولًا، مضيا في طريقهما إلى البيت المُستأجَر، والصمت مُحلّقٌ فوق رأسيهما، تهربُ بعينيها بعيدًا عنه وهو احترم رغبتها، ولم يُربكها بنظراته الدائمة. بمجرد وصلوهما للبيت، أسرعت نحو غرفتها وأوصدت الباب خلفها، سمع صوت المفتاح وهو يُرتج الباب،

فعَلِمَ أنّ ماحدث مُجرد خطأ جميل، جعله يذوب في كينونة العشق دون أن ينتبه للرأس المُدبّبة التي انغرست في قلبه حينما بالغ بالاقتراب، ما كان عليه أن يقترب حتى وإن أعطته المساحة الكافية لذلك، عَلِمَ أنّه مسكين تَمَسّك بأهدابٍ واهيةٍ، زفر زفرة قوية واتّجه نحو غرفته.

أمّا عنها فقد جلستْ على حافة سريرها مُضطربةً، أهدابها ترتجف، صدرها يعلو ويهبط وهي تتذكّر ماحدث، تُؤّنب نفسها، فهي من أعطته الإشارات الخضراء؛ ليقتحم الحاجز الذي بنته بينهما، ثمّ أنّها قررت بالفعل أن تبدأ حياة جديدة. مابالها بأول اختبار لبدء هذه الحياة تراجعت وأعلنت الانسحاب؟! اتّجهت نحو خزانتها، وبدأت تُعد حقائبها وتُقنع نفسها ألّا سبيل لديها سوى أن تبدأ من جديد، فعليها أن تكون قوية لتتحمل قرارها، فتحت باب غُرفتها واتّجهت نحو غُرفته، طرقت الباب بهدوءٍ فلم يُجب، أعادت الكرّة وطرقت بقوة هذه المرّة ولم يجُب حتى ظنّت أنّه غير موجود بالغرفة، زفرت بهدوءٍ لتُفرغ توترها، وهي تُمسك بمقبض الباب، أمالته وعينها تصولُ وتجول على استحياءٍ بالغرفة حتى توقّفت أنظارها عنده، ولم تدرِ ما عليها فعله؟

***

دخل إلى غُرفته، خلع سُترته وألقى بجسده فوق السرير، تبّت يدا العشق الذي أذل الفؤاد وتب، ما أغنى بقربها شيئًا وما كسب، كانت له جسدًا بلا روح ولا قلب، مرت سنون وهو يلوك الصبر، وها هو الآن يشعر أنّه كومة قش جفّ وذبل، صار هشيماً تذروه الرياح، حتّام قلبه يصطلي بنار العشق؟! أما آن لها أن ترحم خافقه المُعذّب في هجيع

الليل؟ بدأ صبره ينفد، بات يشعر الآن أن عشقه لها في جيده حبل من مسد!

زفر بعصبية واضعًا الوسادة على رأسه، يضغط بقوة وكأنّه يكتم أنفاس الألم الذي ألمّ بها، وكعادته الأثيرة في الهروب، ظلّ يستدعي النوم حتى لبّى النداء وأسر عينيه.

***

وقفت عند باب الغرفة ولا تدر ماذا تفعل! أتترُكه وتعود لغرفتها حتى يستيقظ فتُخبره أنّها مُستعدّةَ للمغادرة أم تتجرأ وتُوقظه؟ ولّته ظهرها وكادت تعود لغرفتها، لكنّ شيئًا ما بداخلها أجبرها على العودة، ربما قرارها الذي حسمته مع نفسها منذ قليل، ستبدأ حياةً جديدة إن لم يكن من أجلها فمن أجله، اقتربت تُحاول السيطرة على ارتجافةِ أوصالها، رفعت الوسادة عن وجهه، وشرعت تهُزّه برفق وتُناديَ اسمه، فتح عينيه بوهن ولا يدري أهو مُستيقظٌ أم مازال يعيش بالحلم؟! تناهى إلى مسامعه «مازن، قوم يا حبيبي، يلّا أنا جاهزة». كلمة «حبيبي» جعلته يتأكد أنّه مازال يحلم؛ فأغمض عينيه وأكمل نومه، هزّته مرة أخرى هاتفةً بنفاد صبر «مازن، قوم لو سمحت». استيقظ وجلس بذاكرة مفقودة لبضع ثوان، فرك جبينه، ثم عينيه، ونظر لها؛ فابتسمت:

_ أنا جهّزت شُنطي من بدري، ومُتحمسة أوي أروح بيتنا.

أماء واجمًا، انتظرته ببهو البيت مُشتّتة تُحاول ترتيب أفكارها المُبعثرة، مرّت نصف ساعة وكان جاهزًا، مازالت تبتسم له وهو واجمٌ، أصبح يتحاشى النظر إليها، اتّجه نحو السيارة حاملًا حقائبها، تنهّدت وهي

تسير خلفه، جلسا وكأن على رأسيهما الطير، هو ينظر للطريق وقد قرر ألّا يُحاول كسب قلبها، فقط سيقوم بواجبه تجاهها ويُساعدها حتى تستعيد ذاكرتها، وهي تنظر له بين الفينة والأُخرى مُحاولةً جذب أطراف الحديث ولم تستطع، وجومه لم يُشجّعها فآثرت الشرود من النافذة، ولكن في قرارة نفسها لن تتراجع عن تنفيذ قرارها.

وصلا للبيت، أعجبها من الدّاخلِ وشعرت بنفس راحتها لّما وطئت قدماها حديقته صباحًا، منزلٌ صغيرٌ، ولكنّها شعرت فيه بدفء يجتاح قلبها، دفء لم تشعره لا في بيتهما السابق ولا بيتها البهو بمصر، وضع حقائبها في غُرفة بالطابق الأعلى، صعدت للغرفة وأغلقت الباب مُطلقةً زفيرًا حانقًا، تتمنى فقط لو يبتسم مرةً أُخرى، فتبُث ابتسامته في قلبها الشجاعة؛ لتُنفّذ ما خطّطت له، أنّبت نفسها لأنّها السبب في وجومه، ولذا قررت أن تتحمل خطأها وتُصلحه على الفور، هبطت للطابق الأول وقبل أن تخطو نحو غرفته خرجٍ مُتجهًا للباب الخارجي، نادته فأخبرها أنّ لديه عمل، وسيعود ليلًا. خرج فجلست على الأريكة مُتأففة، ها هي فرصة أخرى للحديث معه تضيع من بين يديها، واتتها فكرة، تُقلّبها في رأسها مُبتسمة، بدّلت ملابسها، وخرجت لتبدأ في تنفيذ خطتها.

***

لم يكن لديه عملٌ بالخارج، فقط شعر بالاختناق، ذهب لزيارة بعض أصدقائه، جلس معهم بنصف تركيز، اشتاق لها فودّعهم وقرر العودة للبيت ربما تحتاجه، ركب سيارته ساخرًا من نفسه «هتعوزك في إيه يعني!». رنّ هاتفه برقمها فأجابها بلهفة ولم يُصدق أذنه حينما طلبت

منه ألّا يتأخر. أنهت المكالمة وتركته مذهولًا، أيُعقل أنّها تشتاقه! دبّ الحماس في أوصاله وعاد للبيت سريعًا، قَلِقَ حينما وجد الباب مُواربًا، دفعه وكان على وشك أن يُناديها. فجأةً، فغر فاه واتسعت عيناه، لولا أنّه يحفظ عنوان البيت عن ظهر قلب لشكّ أنّه بيته! الشموع تُضيء المكان وتبعث فيه الراحة والدفء، ولكن روعة المشهد ينقصها شيءٌ هام، بدأت عينه تطوف بالمكان بحثًا عنها ليكتمل جمال المنظر وتكتمل راحة قلبه، هي في نظره بداية كل شيء، وأساس اكتماله، لم يطل بحثه فقد تناهى لمسامعه صوت حذاءٍ يطرق الأرض بخِفّة فتَبِعَتْ عيناه مصدر الصوت، وجدها تهبط درجات السُّلّم بهدوء، ترتدي فُستانًا أزرق لامعًا مُنسدلًا تحت كعبيها. وكالأميرات ترفع طرفه بيد حتى يتسنّى لها هبوط الدَّرج، وباليد الأخرى ترفع شعرها المفرود خلف أذنها بحركة انسيابية أشعلت قلبه، وجعلت أنفه- تلقائيًّا- يشم رائحة البندق، يتأملها حتى رآها زُلْفَةً فائْتَلَقَت عيناه، وشرعت تطوف على جسدها، امتزجت زُرقة عينيه بزُرقة ثيابها فذاب فيها، وكأنّ بؤبؤيه جزءٌ قد انسلخ من فستانها الذَي تقبض عليه بقوة في محاولة منها للسيطرة على توترها، والارتعاشة الخفيفة التي تملّكت جسدها، أغمض عينيه وبدأ يستنشق عبيرها، عاد يتأمّلها ويذوب في محراب عينيها، راودته عيناها عن نفسه، فتحت له الأبواب وقالت هيت لك، فاستعصم لمّا تذكر وعده وغض طرفه، أتُراه الآن يُودع سنينه العجاف ليستقبل السمان أم أن قلبه يتوهّم!

تحرّكت حرقدته بهدوءٍ وهو يحاول السيطرة على نيران اللهفة المُتأجّجة في قلبه، اقتربت بحركةٍ نزقةٍ مُرتبكةٍ، وطبعت قُبلة على جبينه، فنظر لها مُندهشًا، قالت والدّمع يسيل من عينيها:

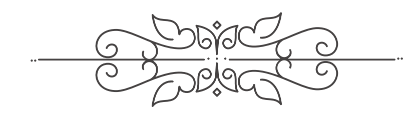
_ أنا آسفة على كل لحظة آذيت مشاعرك فيها، أنا ما..

وضع أصبعه على شفتيها هامسًا:

_ هصصص، الأميرات لا يعتذرن من أحد، يا أميرتي.

مسح دموعها، فاعتلت شفتيها ابتسامةٌ خَجْلى، واشتعل الوهج الأحمر في وجنتيها؛ فنظرت أرضًا، ابتسم لتلك الحمرة التي لوّنت وجهها بملامح طفلة بريئة، التقط كفّيها وقبّلهما برقّة، فشعر بارتجافتهما والبرودة التي تسري فيهما، مدَّ يده أسفل ذَقَنها، ورفع رأسها إليه؛ فارتفع وجيب قلبها في يديه، بدأت عيناها المُتوتّرة تسبح في فضاء المكان، تُجاهد ألّا تنظر مُباشرةً في عينيه، وفي أحد أشواط طواف بؤبؤيها توقّفا عنده، نظر لعينيها النجلاوين والشوق يلفحه بناره، حاول أن يُطفئه بقُبلة طبعها على ناصيتها وأخرى بين عينيها؛ فاشتعلت النيران أكثر، داعبت تلك القُبلة أنوثتها فابتسمت في خجل، لم يتمالك نفسه؛ ضمّها إلى صدره ليهدأ خافقه ويطمئن، ارتجف جسدها وبدأ طوفان الخوف يُغرق قلبها، فأسبلت جفنيها، وتشبّثت به؛ لعلّ الخوف يموت!

تشتعل الآن داخلها حربٌ ضروسٌ، شدَّ ضمّته، فانهارت حصون قلعتها، وأعلنت كلُّ خِلْجة فيها أنّها مُستعدة للسقوط في أَسْرِهِ دون شروط.



لا شيء يُطفيء أنوارَ الكون في عين الرجل، مثل رحيل امرأة كان يعتبرها أرضه وسماءَه وكوْنَه..

غسّان كنفاني



رفعت جفنها، وأسبلته بوهن ثمّ ما لبثت أن رفعته بدهشة، المكان يسبح في ظلام سَرْمَديّ، لا تدرِ أَهو المكان مُظلم أم أُصيبت بالعمى؟! اعتدلت من نومتها، وتحسستِ الحيز المحُيط بها، وقعت يدها على شيء جانبها لمّا تحسسته عَلِمَت أنّه قدّاحة، قبضت عليها بشدة؛ فهي الأمل الوحيد المُبدد لظُلمَتها، تحسستها مُحاولةً إشعالها ولا فائدة، حاولت بلا يأس حتى ظهر بصيص ضوءٍ، ما لبث أن انطفأ سريعًا فزفرت بعصبية، تُعيد الكرّة ودون جدوى، لا يهم.. ستُعاود المحاولة بعد قليل، المهم أنّها ليست عمياء. وقفت بتثاقلٍ تتحسس المكان من حولها، تأوّهت بألم حينما اصطدم قدمها بجسمٍ، ربما يكون كُرسيًّا أو طاولة، الألم شغلها عن تخمين ماهية هذا الشّيء، أكملت طريقها وكادت تسقط أرضًا؛ لولا أن استندت لشيء بعد أن مررت أناملها عليه خمّنت أن يكون مكتبًا خشبيًّا. ظلّت تُمرر أصابعها حتى وجدت ضالتها، مِصباحًا كهربائيًّا صغيرًا، أكملت أناملها طريقها بحثًا عن الزر، ضغطته وينتابها الخوف من عدم إضاءته، ولكنّه خيّب ظنّها وأضاء. أغمضت عينيها حينما آذاهما الضوء، ثم بدأت تفتحهما ببطء في محاولة لاستيعاب الضوء المُفاجيء تدريجيًّا، شرعت تستكشف المكان من حولها، إنّها غرفة مكتب، مُغلقة بباب زجاجي أنيق. بعد خطوات من الباب في أحد أركان الغرفة، هناك أريكة وكُرسيّان تتوسطهم طاولة صغيرة جميعهم مطليّين باللون الذهبيّ كإطار الباب الزجاجي، ثم مكتب تقف جانبه، خالٍ سوى من المصباح الصغير المُضاء عليه، وورقة مطوية في منتصفه، وخلفه كُرسي كبير، وأمامه كُرسيّان وطاولة صغيرة، تظن أنّ قدمها في الظلام اصطدمت بأحد

هذين الكُرسيين، أمسكت الورقة ومازالت تتأمل المكان، نظرت لبقعة بالأرض تعتقد أنّها كانت نائمة فيها منذ قليل، حوّلت بصرها إلى حوائط الغرفة الأربعة التي تمتلئ بالكتب والمُجلدات. مظهر الغرفة مهيب، فتحت الورقة وقرأت ما بها فتغضّنت زوايا عينيها، ثم ارتفع أحد حاجبيها، لم تفهم شيئًا من الجُمل المكتوبة.. أهي أُحجية أم ماذا! ثم ما الذي جاء بها إلى هنا في هذه الغرفة الغريبة؟ هي لا تنتمي لغُرف بيتها، لا بمصر ولا لندن ولا أي مكان زارته من قبل. أعادت قراءة الجُمل بصوتٍ أعلى، وببطءٍ؛ مُحاولةً حل اللغز، ولكن لم تفهم شيئًا، تفحّصت الغرفة زافرةً بنفاد صبر، فلمحت تمثالًا برونزيًّا في أحد الأركان لامرأة منحوت على جسدها بدِقّة ملاءة برونزية،كسى الحزن ملامحها، ترفع يد فوق جبينها والأُخرى تُمسك بها جرَّة ماء، وتخرج من ظهرها وردة كبيرة، ضيّقت عينيها حتى تغضّنت ملامح وجهها وهي تتأمل التمثال، ثم نظرت للورقة وخاصةً إلى جُملة ورَدَ فيها ذكره. طوت الورقة في كفّها، وتقدمت نحوه، تتفحصه وتحديدًا الوردة التي تخرج من ظهر المرأة، تُرى ما الغريب فيها ليذكرها الرجل في أُحجيته تلك؟! اتسعت عيناها وهي تلمح زِرًّا بنفس لون التمثال لا يراه سوى من يُدقق النظر جيدًا جدًّا، ضغطت الزر؛ فسمعت صوتًا جعلها تعود للخلف في خوف، جحظت عيناها، والحائط يتحرك لتكتشف أنّ هذه المكتبة الواقعة خلف التمثال ما هي إلا باب لغرفة سرّية، تقدّمت مذهولة بخُطى مُتأنّية نحو الغرفة. بمجرد أن فُتح الباب؛ أُضيئت بضوء قوي يُظهر كل أنحائها جيدًا. ارتدّت عيناها الجاحظتان إلى الخلف وسكنتا في محجريهما مرةً أخرى، شرعت

تتأمل الغرفة، بها أغراض قديمة ربما يستخدمها أصحاب هذا البيت مخزنًا، لكن ما علاقتها هي بهذا البيت؟ ما الذي جاء بها إلى هنا؟! وهذه الغرفة ما المميز فيها؟ وما الذي يُخبئه صاحب الرسالة هنا؟! فرَدَت الرسالة المطوية بين كفّيها، وقرأت الجملة مرة أخرى، ثم بدأت تبحث في أرجاء الغرفة عن شيء لا تعلمه، تطوف عيناها على غير هدى، ربما تجد شيئًا يُجيب عن أسئلتها، وكأن هناك رائحة غاز بدأت تتسرب، جسدها يتعرّق بغزارة، أنفاسها تتسارع وفجأة صُكَّ الباب بعنف، وأصبح المكان حولها كالصّريم، ارتجفت وبدت كبومة عمياء مُتخبّطة تبحث عن ضوء ولكنّها توقّفت فجأة لمّا اصطدمت بجسدٍ، رغم الظلام تبيّنت أنّه جسد بشريّ، هناك من يقف معها بالغرفة، وتأكدت ظنونها حينما لفح وجهها أنفاسه، بدت وكأنما تتنفس من سَمّ الخياط، عمودها الفقري يتجمد، ومن ثم باقي أطرافها حتى أصبحت لا تشعر بجسدها، تُحاول الهرب ولكن قدميها استوطنها الشلل، أجبر الرعب قدميها على العودة للخلف في استعداد للهرب، ولكنّه قبض على رقبتها بقوة، تُرفرفُ بيديها وتُحاول تخليص نفسها من بين يديه، ولكن قوتها تنهار تدريجيًّا، وأنفاسها تهرب منها، ترى الموت أمام ناظريها فاردًا ذراعيه ليستقبلها..

***

ظلّ يهزها ويُنادي اسمها بخوف، ومازالت تنتحب مُغمضة العينين، وينصبُّ من جسدها العرق، تتقلّص ملامحها، تُرفرف بيديها وتُنازع بألم، يشعر أنّه سيفقدها، رفع جسدها وهزّها بكل قوته؛ ففتحت عينيها تشهق بعنفٍ وتُمسك جيدها، تُقلّب بصرها في الغرفة

برعب، إنّها بغرفتها جانب زوجها، لقد كان كابوسًا إذًا! تلقّفت من «مازن» كُوب الماء الذي ناولها إياه مذعورًا، شَرِبَت ثم تنفّست الصعداء أنّ ما رأته ليس حقيقة، حدّق في عينيها المُرتعبتين، وسأل عمَّا رأت، ردّت بوهن «نفس الكابوس».

لم يفعل شيئًا سوى ضمّها، فدفنت وجهها في صدره وانتحبت، أخذ يُهدّئ من روعها، رفعت رأسها عن صدره، وسألت:

_ مازن، إنت مُتأكد إن ماعندناش بيت في أي مكان فيه أوده بالمواصفات اللّي بشوفها في كابوسي؟

_ لا خالص، بس إنتِ ليه حاطّه احتمال إنّك كنتِ في مكان زي ده قبل كده؟ ليه مايكونش مجرد كابوس عادي، وباقي الأماكن اللّي بتشوفيها في كوابيسك عادية!

_ لا مش عادي، مفيش كابوس هيبقى بالدّقه دي!، ولا بالتفاصيل دي، أنا مش حسّاها كوابيس نوم، حسّاها كوابيس من الماضي بتحاصرني وتخنقني، وياريتني قادرة أفتكر الكلام اللّي قريته في الورقة، مابقتش قادرة أستحمل أنا كنت بموت، إيديه كانت مطبوقة على رقبتي، وخلاص بنازع، أنا هفضل عايشة في المعاناة دي لحد إمتى؟!

_ طيب حاولي توصفيلي شكل الراجل ده.

_ معرفش شكله، ماشفتهوش، دايماً بيكون الجو ضلمه.

_ قولتلك قبل كده لازم ترجعي تتابعي مع الدكتورة من تاني.

_ زهقت، وتعبت، ومفيش جديد سواء تابعت معاها أو لأ، الحال زي ما هو، أنا كده مرتاحة أكتر.

أسند رأسها على كتفه، وكأنّه يقول هذه كتفي فألقي عليها همومك، أغمضت عينيها حتى قال:

_ بدون نقاش، هتيجي معايا إنتِ و «زينة» تركيا بكره؛ تغيّري جو.

دون أن ترد، رفعت رأسها عن كتفه وتوسّدت صدره، فأحكم ضمّته، وبدأ يُمسّد شعرها؛ لتُكمل نومها باطمئنان.

***

يصدح صوت «سيلين ديون» في أحد المقاهي الهادئة، يتّخذُ رُكنًا نائيًا، ويجلس أمامها شاردًا، تُثرثر وهو بعالم آخر، يبتسمُ لها مُجاملةً ويضحك دون أن يعلم هل ما قالته يستدعي الضحك أم لا؟ هو فقط رآها تضحك؛ فَضَحِك. نظر لساعته مُتململاً في جلسته، فسألت على استحياء:

_ شكلك كده وراك ميعاد مهم؛ عشان بتبص لساعتك كتير، واللّا أنا قعدتي مُملة للدرجة دي!

_ لا أبدًا يا «صبا»، بالعكس.

عقدت حاجبيها وزمّت شفتيها، تركت كُوب العصير، ونظرت له بحنق قائلةً:

_ «رحمة» اسمي رحمة، يمكن لو كان في اسمي «ص» واللّا «ب» أو حتى «ا» كنت عذرتك، لكن مفيش أي وجه شبه بين الاسمين! ده غير إن دي تالت مرة أصححلك اسمي!

اصفرّ لونه، وردّ مُعتذرًا:

_ أنا مُتأسّف جدًّا، الظاهر إنّي تعبان من ضغط الشغل، حقيقي آسف يا آنسة رحمة.

ـ واضح كده إن «منى» ماقالتليش كل حاجة عنّك، بس إنت بمجرد اسم تقريبًا قولتلي كل حاجة، بحترم «منى» وبقدّرها، لكن ماكنتش مُتخيّلة إنها تحطّني في موقف زي ده!، فرصة سعيدة يا أستاذ عمر.

قالت جُملتها ووقفت، تناولت حقيبتها وتوجّهت صوب الطاولة المجُاورة لطاولتهما، والتي تجلس عليها منى وفتاة أخرى، وقفت أمامهما، وقالت بصوتٍ يشوبه الحِدة:

ـ يلّا يا ريهام.

نظرت لـ «منى» بلومٍ، ثم غادرت المكان، فسألت الفتاة الواقفة جانبها:

ـ هو فيه إيه يا ريهام؟

ـ ما أنا كنت قاعدة معاكِ! شكلهم كده ما اتفقوش، هحصّلها بسرعة، وهكلمك لما أفهم فيه إيه.

ودّعتها، واتجهت، والشرر يتطاير من عينيها صوبه، جلست أمامه سائلةً بحِدة:

ـ أقدر أفهم إيه اللّي حصل؟!

ـ اللّي حصل إنّكم بتضغطوا عليّا بزيادة أوي، مش مستعد أحرج بنات الناس أكتر من كده، أنا مش هقعد مع حد تاني، ولا عاوز أتعرّف أو حتى أرتبط، أنا مرتاح كده، بعد إذنك أنا راجع شغلي.

تركها وخرج نحو سيارته، جلس خلف المِقود، وصكّ الباب بعنف، أشعل المحُرك ولا يعلم وجهته، لا عمل لَديه في هذه الساعة، ولا يود العودة للبيت. فمُؤكّد بعد ثوانٍ سيصل لوالدته خبر ما

حدث بالمقهى مع العروس المُرشّحة من صديقات منى، بالطبع لن يكون أحمقًا ليعود للبيت الآن فيستمع لتقريع والدته وبكائها الذي يلي دُعاءها أن ترى أطفاله قبل أن تُفارق الحياة. يسيرُ على غير هدًى، والشمس تُغادر خشبة المسرح، أتى الغروبُ كعادته؛ ليُطفئ الأنوار، ويُخفى شمس النّهار فى جعبته، ها هو الهدوء يعم المكان ليُعلن أنّ الليل يرخي سدوله، فتبدأ الأحزان فى عزف سمفونيتها، لتُطوّقه الذكريات وتُراقصه على أشواكها، رقصة مُؤلمة، تَلفّه وتهز كيانه وتقتله ألف مرة، تأتي من الماضي بلحظات يود أن يجتثّها من حياته، أولم يحنِ الوقت كي تمل الذكريات منه!؟ أولم يحن الوقت كي يكفّ الماضي عن مُحاصرته!؟ وجد نفسه يقود سيارته إلَى آخر مكان توقّع أن يذهب إليه، يهربُ منها إليها!

توقّف في أحد الأحياء الراقية، أمام بُرج سكنيّ عالٍ، أوصد سيارته ثم نظر لأعلى، وتعلّقت عيناه عند إحدى الشُّرفاتِ، تنهّد بِحُرقة وعاد ينظر للمدخل. اتّجه نحو الدَّرَج فأوقفه هتاف عجوز خرج من غرفة مُلحقة بالبرج:

_ عمر بيه! والله الدنيا نورت.

ابتسم وهو يعود له ويُصافحه:

_ الله يحفظك، إزيك يا حاج محمد؟

_ في نعمة وفضل، الحمد لله، مابقتش بتيجي تطُلّ على الشقة خالص، خير؟

_ معلش كنت مشغول شوية الفترة اللّي فاتت، وكمان كنت في الصعيد.

_ حمدلله على السلامة، ربنا يقويك، ده كويس بقى إن أم سعد طلعت امْبارح نضّفت الشقة وهوّتها.

أخرج من جيبه ورقة فئة المئتي جنيه، دسّها في يد العجوز، وهو يقول:

_ تسلم إيد الحاجّة، ابقى بلّغها سلامي.

اتّجه سريعًا نحو الدَّرَج؛ فهتف الرجل:

_ثواني أجيبلك مفتاح الأسانسير.

_ لا، شكرًا؛ هطلع على السلم.

اتسعت عيناه سائلًا بدهشة:

_ هتطلع الدور العاشر على رجلك؟!

عضّ شفته السُّفلى مُسرعًا نحو السُّلّم؛ ليسْلم من ثرثرة العجوز، صعد درجاته مُنشغلًا بأشباح الماضي التي بدأت تُحاصره مع كل درجة يصعدها نحو عذابه، لا يعلم أهي جسارة أم جنون أصابه ليأتي إلى هنا بقدميه، بل وأي جنون هذا الذي دفعه لصعود درجات السلم للطابق العاشر! ماذا فعلت نفسُه ليُعذّبها؟!

وصل لباب الشقة بشِقّ الأنفس، أدخل المفتاح بالرتاج، وصدره ينهت صعودًا وهبوطًا. فَتح الباب فأقبلت الذكريات في صَرّة فصكت رأسه، وأثقلت غلالة الدموع في عينيه، أسبل جفنيه للحظة مُحاولًا أن يُعيد أفكاره لنصابها. بدأ يمسح المكان بعينيه الجزعة، وحلقه يتلوّى بمرارة الوجع، رائحة الفراغ تخنقه، هي من اختارت كل تفصيلة في الشقة بعناية على ذوقها، كيف تبدّلت تفاصيلها من مكان كان يومًا يعشقه إلى كابوس مقيت؟! ألأن من كانت تبُثُّه الحياة رحلت؟ أيُعقل

أن تلك الجمادات الآن تشتاقها وتُعبّر عن افتقادها! أم أن الحزن الذي يملأ عينيه انعكس أمام ناظريه ولوّن تفاصيل المكان بالوجع؟ تتوالى عليه الذكريات تترا، وهناك ألمٌ متواصلٌ يعبث بأوصال روحه، استرعى انتباهه الفونوغراف الرابض بأحد أركان البهو، اقترب وتحسسَتْه أنامله فأشعلت لمسته فتيل الشوق، ها هو يخرج عن حدود الزمان والمكان، وتلتقط أذنه صوت أم كلثوم تسأل:

«تـــــاه فكـــرى بين أوهامي وأطياف المنى.... لست أدري يا حبيبي من أنا؟ أين أنا ؟»

تنهّد بحُرقة مُتّجهًا نحو إحدى الغُرف، أمال المقبض وفتح بابها بهدوء، اقترب من سرير الأطفال الموضوع بمنتصفها، يمس طرفه بأنامل مُرتعشة، ها هي حققت الحلم وأتت طفلتها تُزيّن حياتها مع غيره، نقل بصره إلى أحد حوائط الغرفة، اقترب مُبتسماً يُتمتم «حائط الذكريات» هرم كبير يملأ الحائط صُنع من صورهما معًا، جلس القرفصاء وتحسست أنامله جُملة مكتوبة بخط يدها..

«من هنا كانت البداية». مرّر أنامله تجاه السهم المرسوم وتوقّف عند صورة لهما بعامه الخامس تنامُ هي ابنة سبعة أيام بين ذراعيه ويدا أُمه تظهر بالصورة مُمسكة بها، توالت الصور، يكبران معًا عامًا بعد عام حتى توقّف عند صورة لهما بعامها الثاني عشر تقف مُبتسمةً، تُمسك دِرعًا، وهو يقف جانبها صبيًّا في السابعة عشر يرتدي زيّ الفروسية. كانت آخر صورة جمعتهما بعد طلاق عمّته وقُبيل سفرها، قفز لسطح ذكرياته ذلك اليوم، يوم مسابقة فروسية للناشئين، كان خائفًا من عدم حضورها، ظلّ مُنتظرًا حتى يئس، وقف ليستعد فإذا بها واقفة



أمامه بابتسامتها المُشرقة، فاز بالمركز الأول والتقطا هذه الصورة وهي مُمسكة بِدِرْعِه فور أن تسلّمه وأهداه لها. يومها، ما أتت لحضور المسابقة بل لتَوَدّعه، كانت مُغرورقة العينين وكُلّما سألها عن السبب تُطمئنه وتتهرب من الإجابة، أهدته شريطة وردية كانت تعقص بها شعرها، وورقة كُتب فيها بخطٍّ مُرتعش «بحبك»، ثم ادّعت أنّها تأخّرت ويجب أن تعود للبيت، أوصلها وبعد أن ولّاها ظهره نادته، مازال يذكر عينيها الدامعتين وارتعاشة صوتها، وهي تقول:

ـ إوعدني إنّك هتفضل تحبّني، وهتتجوزني لّما نكبر زي ما قولتلي.

ردّ باسماً ظانًّا أن سبب خوفها طلاق أبويها:

ـ أوعدك، بس يا «صبا» طلاق عمتو وباباكِ مش هيأثر في أي حاجة، وكُلّها يومين إن شاء الله وهتيجي تعيشي مع عمتو، وهنكون على طول مع بعض.

نظرت أرضًا:

ـ بس أنا زعلانة منها أوي، ومش عاوزه أعيش معاها.

ـ ما تزعليش منها، مش إنتِ بنفسك حكيتيلي لّما كنتِ خايفة وباباكِ بيضربها؟

قطع حوارهما وقوف سيارة والدها أمام البيت، نزل والشرر يتطاير من عينيه، صرخ بوجه عمر:

ـ إنت بتعمل إيه هنا!؟

ردّ بشجاعة:

ـ كنت بوصّل «صبا» عشان ما تروّحش لوحدها.

صوّب نظرات الغضب لابنته التي وقفت مُرتجفة تنظر له بخوف، هتفت بصوتٍ مُتهدّج:

ـ و.. والله مش قولتله يا بابا.

انقضّ على ذراعها، جذبها بعنفٍ للداخل، وأغلق البوابة بعد أن تركا الصبي واقفًا ينظر في حيرة، ويسأل نفسه «ما الذي لم تقله؟!»، وعَلِمَ إجابة السؤال بعد أيام حينما عاد من مدرسته ليجد عمّته تبكي بقهر، والكل يُواسيها، سافرت «صباه» ولا أحد يعلم إلى أين؟ أخرجَ محفظته من جيب بنطاله الخلفي، فتحها وأخرجٍ شريطة شعرها والورقة، نظر لكلمة «بحبك» بخطّها الطفولي المُرتعش؛ فائتلقت عيناه، عاد ينظر للحائط، توقّف عند أول صورة التقطاها بعد فراقٍ دام ثمان سنوات، يذكر ذلك اليوم جيدًا، تم تنصيبه مُدرّبًا للفروسيةً ليُصبح بذلك أصغر مُدرّب بالنادي آنذاك، وضعوه بأول اختبار لكفاءته، ووكّلوه بتدريب مجموعةٍ من الناشئين. كانت أُولى محاضراته النظرية في ذلك اليوم، دخل إلى القاعة وأعدّ عُدته ثم جلس بانتظار المُتدرّبين، بدأوا يتوافدون وهو يُحيّيهم بإيماءة وابتسامة جزلة، فتح الحاسوب وأوصله بشاشة العرض، نظر لساعته ثم للجالسين، فوجدهم خمسة صِبْيَةٍ وصَبيّة. بعد قليل، انضمت أخرى، أغلق باب القاعة وقبل أن يُعرّفهم بنفسه سمعوا طرقًا على الباب، ثم فتحه أحدهم، نظر نحو الباب فتوقّف كل شيء، هبطت غلالة سميكة على طبقات مُخّه، وبدأ الخدر يسري في جسده كأسراب نمل تسرح فيه لينتهي بها المطاف مُحدثةً قشعريرة أسفل عُنقه، قلبه يطرقُ قفصه الصدري بعنف، أيُعقل أن الفتاة الواقفة أمام ناظريه «صباه»!

انتشله من صدمة اللقاء صوتها الرقيق بلكنة إنجليزية مُتقنة «أعتذر للغاية على التأخير»، حاول أن يرد فلم تسعفه الكلمات، اكتفى بإيماءة، صمت لدقائق يتصنّع الانشغال بالحاسوب وأوراقه مُحاولًا لملمة شتات نفسه، انحدرت قطرات العرق من جبينه لتُكوّن غلالة غبشت رؤيته، مسح قطرات العرق وفرك عينيه ثم تجرّع بعضًا من زجاجة الماء الموضوعة أمامه على الطاولة، شهق بقوة وكأنما يجتر جُلّ أكسجين الغرفة، وزفر بهدوءٍ، ثمّ وقف مُبتسمًا في وجوههم مُتحاشيًا النظر إليها:

_ أنا عمر عبد القادر، ضابط شرطة، يمكن تستغربوا إن فرق السن بينا بسيط إلى حد ما، لكن سنين معاشرتي لكائنات مُبهرة زي الخيول مش بسيطة، أنا تقريبًا كنت في أول دفعة تتدرب على الفروسية من يوم ما النادي اتفتح، وإن شاء الله تكون الدورة التدريبية ناجحة؛ بتعاونّا مع بعض. وأنا تحت أمركم في أي وقت. وقبل ما نبدأ نتعرّف على مراحل التدريب، هوزّع على حضراتكم ورقة عاوز كل شخص فيكم يكتب اسمه وسنّه ويعرف إيه عن الخيل؟ اكتب أي معلومة تعرفها عنّه سواء كنت مُتأكد من صحّتها أو لأ.

التقط الأوراق بعدد الجالسين، همّ أن يُوزّعها فعرض عليه أحد المُتدرّبين المساعدة، ربض فوق مقعده يُراقبهم أو بالأحرى يُراقبها، تمنّى لو رأى وجهها لحظة سماع اسمه، أتُراها تذكره؟ هل عرفته من أول وهلة كما عرفها؟ لا يذكر كيف كانت ملامحها وقتها؛ فقد كان مُنشغلًا بصدمته التي عصفت بتركيزه، نظر نحوها فوجدها مُنشغلة بالكتابة، ابتسم وهو يتأملها، ملامحها كما هي إلا أن السنين الثمانية التي مضت رسمت بريشتها ملامحَ الأنوثة والنضارة على وجهها،

ترتدي فُستانًا بلون البنفسج، وشعرها البُندقيّ معقوص كذيل حصان. تلعثم حينما رآها تقف أمامه مُباشرة، تلاقت العيون فأخبرته عيناها أنّها تعرّفت عليه، وأنّ قناع الهدوء الذي ترتديه يُخفي خلفه توترها وتشتُّتها، نظر للورقة التي أشهرتها أمامه بيدٍ مُرتعشه، تناولها وتظاهر بانشغاله بالحاسوب؛ فولّته ظهرها، وعادت لمقعدها تُقلّب في حقيبتها، ويظن أنّها في هذه اللحظة تتصنّع الانشغال مثله، زحف بصره سريعًا نحو ورقتها، وابتسم وهو يرى اسمها مُتربّعًا على عرش الورقة «صبا زين العابدين منصور القاضي، ٢٠ سنة»، إذًا صباه قد عادت من جديد، نظر نحوها فخفضت بصرها بارتباك، من الواضح أنّها اقتنصت فرصة انشغاله بالقراءة وراقبته. قرأ المعلومات التي كتبتها عن الخيل، وابتسم مُتذكّرًا أنه من أخبرها بها منذ سنوات، قام بجمع أوراق المُتدرّبين وبدأ مُحاضرته دون أن ينظر إليها. بعد انتهاء المحاضرة، أراد أستاذه أن يُسجّل هذه اللحظة وهو يرى حصاد مجهوده مع عمر منذ نعومة أظفاره، دخل القاعة مُبتهجًا وطلب منهم الاصطفاف لالتقاط صورة تذكارية، وقفت جانبه والتُقطت الصورة وهو ينظر نحوها مُبتسمًا، عاد يتأمّل الصورة، قامت بقص الجزء الخاص بهما منها، وعلّقته على حائط الذكريات، انتقل للتي تليها مقصوصة أيضًا من صورة جماعية. تقافزت ذكرى ذلك اليوم إلى ذاكرته، أُتمّ شرح الدورة التدريبية نظريًّا وعمليًّا دون أن يتحدّثا. بعد انتهاء المُحاضرة، تختفي من القاعة وكأنّها تهرب منه أو ربما من عتاب عينيه، حتى أوقات التدريب العملي تلتزم بكلٍ ما يُمليه عليهم دون سؤال، ودون احتكاك مُباشر بينهما، تتجاهله وتُمارس قتله ببطءٍ



باحتراف. كان مُتعطّشًا لنظرة منها، أو سماع صوتها، ولكنّها بخلت عليه حتى بحق تبرير فراقها الأول!

إلى أن جاء يوم المواجهة، مُدرّبه- وهو بذات الوقت صاحب النادي- لديه مزرعة خيول كبيرة، قام بعزيمتهم لقضاء يومين بها، والاحتفال بنجاح الدورة التدريبية، ذهبت معهم ضمن الفريق، باليوم الأول وصلوا بوقتٍ مُتأخر فتناولوا العشاء، والتقطوا صورة جماعية وسط المزرعة، ثم خلد الجميع للنوم، ولأن في الليل يصمت كل شيء إلا أنين القلوب المُنكسرة التائهة، فقد ظل يتقلّب في الفراش، نهض وفكّر في التجوّل قليلًا. تجوّل في المزرعة، ثم اتّجه نحو إسْطَبلات الخيول، تحديدًا إلى «أدهم» أول فرسٍ امتطاه، كان يتّخذه صديقًا له حتى مرض، وأصبح عنيفًا يصعب السيطرة عليه. لم يكن هناك من يستطيع إخماد ثورته سوى صاحب المزرعة و «عمر»، منذ أن نقله صاحبه من النادي إلى هذه المزرعة، وعمر يأتي لزيارته كُلّما سنحت له الفرصة. اقترب من الإسطبل فتناهى لمسامعه صهيل «أدهم»، وقبل أن يدخل اندفع الباب الخشبيّ بعنفٍ من أثر ضربة هذا الجَيِّد الثائر، اتسعت عينا عمر حينما رآها تمتطيه، شُلّ تفكيره، ولمّا سَمِع صرختها، دخل مُسرعًا إلى الإسطبل، وامتطى أول جيدٍ قابله، غمزه بمُؤخّرة قدمه في بطنه ليحثه على اللحاق بـها، اقتربَ من «أدهم»، وطلب منها أن تتوقّف عن الصراخ، وتسمعه:

_ اهدي يا صبا، افردي ضهرك وشدّي اللجام بكل قوّتك، واسحبيه لورا.

ردّت صارخةً:

_ بشدُّه مش راضي يقف، مش رااضي!

تذكّر أن هذه الحيلة تصلح مع جياد المزرعة إلا «أدهم»، صُراخها يخيفه أكثر ويزيد ثورته، فجأة بدأ الفرس يرفع قدميه الأماميتين عن الأرض، ويُحاول نفض صبا، وهي مازالت تقبض على اللجام بخوف وتُحاول عدم الصراخ كما أوصاها عمر. ظلّ الفرس يلف حولَ نفسه، ثم انطلق مُسرعًا يشق الأرض شقًّا، غمز عمرُ بطن فرسه مرة أخرى حتى اقترب من أدهم، وصار في محاذاته، طلب منها أن تُناوله طرف اللجام، تتشبّث بذراعه، وتقفز لفرسه، لم تستطع. زادت ثورة «أدهم» فصرخ في وجهها، وطلب منها أن تُسرع، مال عليها قليلًا فتشبّثت بذراعه وتركت لجام الفرس، أصبحت مُعلّقةً في الهواء فقط تتشبث في ذراعه بكل قوتها،كادت تسقط؛ لو لا أن سحب لجام فرسه فتوقّف، وقعت أرضًا ولكنّها لم تكن سقطة مُؤلمة. هبط يتفحّصها، ولمّا اطمئنّ عليها؛ تركها وعاد يمتطي الفرس ليلحق بأدهم، أصبح في محاذاته، التقط طرف لجامه، شدّه بقوة قافزًا ليمتطيه، ظلّ يُمسّد رقبته، ويهمس في أذنه؛ فاطمئنّ الفرس، وبدأت تخمد ثورته رويدًا رويدًا، هدأ فعاد به إليها، هبط ينظر لها بغضب:

ـ إنتِ إتجننتِ! فيه حد يعمل كده؟! ومالقتيش غير أدهم!

ـ هو عجبني، وحبيت أتمشّى بيه شوية، وبعدين أصلًا طِلْعت كل قواعد الكورس فشنك.

ابتسم رغمًا عنه، كم اشتاق لغضبها! تنهّد ثم ردّ بهدوء:

ـ اللّي أخدتيه في الكورس حاجة، و «أدهم» ده حاجة تانية خالص، أدهم له وضع خاص في التعامل وفي ترويضه، ومحدّش بيقدر عليه غير المهندس مروان وأنا، قرّبي.

اتسعت عيناها وابتعدت قليلًا، فاقترب منها بالفرس، وطمئنها أنّه الآن تحت سيطرته، اقتربت بحذر، طلب منها أن تُراقبه وتُكرر ما سيفعله، وجدته يُمسّد ناصية الفرس، ويُقبّل رأسه مُمسّدًا ذؤابته، ثم بدأ يمسح على رقبته بحبٍّ ويهمس في أذنه، أخرج مُكعّباتٍ سكر من جيبه، فرَدَها في راحةِ يده، وقرّبها من فمِ الفرس بيد، والأُخرى مازال يُمسّد بها رقبته وظهره، نظر لها باسمًا ثم ابتعد قليلًا، وأعطاها مُكعّبات السكر، اقتربت بخوف، وضعت يدها المُرتعشة على رأسه فصهَلَ، عادت خطوة للخلف، فقال عمر:

_ اتغلّبي على خوفك، وبلاش إيدين بترتعش عشان ما يحسّش بالخوف اللّي جواكِ، ويخاف منك أكتر، حِسّي إنتِ الأول بالأمان ناحيته عشان يتطمنلك.

شهقت بقوة، وزفرت ببطءٍ شديد قبل أن تقترب منه بثقة، بدأت تفعل كما فعل عمر، ابتسمت وهو يُدغدغ كفّها ليلتقط قطع السكر، ودون أن تنظر لعمر، سألت:

_ إنت كنت بتهمس في ودنه بتقوله إيه؟!

اعتلت الابتسامة شفتيه، ثم ردّ مُنشغلًا بإطعام الفرس الآخر:

_ ده سر بيني وبين «أدهم».

ترك الفرس يأكل من كفّه وتأمّلها، مازالت تُطعم أدهم، وتبتسم ابتسامة جذلة أذابته، التفتت فوجدته ينظر لها، تلاقت العيون للحظة، فتورّدت وجنتاها، ونظرت للفرس بارتباك، قطع سكون الليل بسؤاله:

_ ماقولتليش ليه يومها إنك كُنتِ جايه تودّعيني؟

تشعر أن الأرض اهتزت من تحتها، لم يُمهلها الفرصة لتلتقط أنفاسها من السؤال الأول، فضرب رأسها بأسئلة أخرى:

ـ عِرفت من قريب إنك راجعة مصر بقالك فترة كبيرة، ومافكرتيش تقولي إنك رجعتي، أو حتى تسألي عنّي! ولمّا اتقابلنا بعد فراق ٨ سنين عذبتيني أكتر بالتجاهل واللامبالاة، ليه؟!

لم ترد حتى أنّها لم تلتفت إليه، تمتمت بصوتٍ خافت:

ـ ومين قال إنّي ماكنتش بسأل عنّك؟ ولا شُفتك وقت ماجيت!

ـ مش فاهم؟!

ـ مش مهم! مش مهم تفهم مادام فهمك مش هيغيّر أي حاجة.

ـ جيتي ليه النادي؟

ـ عشان اشتقت للخيول.

ـ بس؟

ابتلعت ريقها ومازالت تنظر للفرس دون أن تُجيب، التقط محفظته من جيب بنطاله، فتحها وأخرج الشريطة والورقة، اقترب منها ومدّ يده بهما:

ـ فاكره دول؟

نظرت لهما بعيونٍ دامعة وجسد مُرتجف، فأكمل:

ـ طيّب فاكره «إوعدني إنك هتفضل تحبّني، وهتتجوزني لمّا نكبر زي ما قولتلي»؟

هنا لم تتحمّل، ولّته ظهرها وهرولت هاربةً من محاصرته، ولكنّها توقفت فجأة ما إن تناهى لمسامعها صوته يقول «تتجوزيني يا صبا؟».

رآها تلتفت إليه وتجري نحوه لتختبئ بين ذراعيه، وتُخبره أنها لن تفارقه بعد الآن، ولكنّه استفاق من هذا الحلم الجميل على الفراغ وضجيج الصمت اللعين! منذ ذلك اليوم لم يرها، حتى أنّه ذهب للجامعة حينما أنهكه الحنين، ولسوء حظّه كانت غائبة. وفي يوم تكريمه بعد أن تمّت ترقيته، لم يُصدّق عينيه حينما رآها تدخل من باب القاعة حاملة باقة ورد كبيرة، اكتملت فرحته بحضورها، بعد تكريمه اتّجه نحوها وجلس جانبها بالمقعد الأخير دون أن يتفوّه بكلمة. تمر علينا لحظات لا تُسعفنا فيها الكلمات ربما لأنّها تكون أضعف من التعبير عنها؛ لذلك هو لم ينبس ببنت شفه، أو ربما أراد أن يتعطّر بأنفاسها المُتلاحقة، تنحنحت قبل أن تمد الباقة نحوه، وتُبارك له، التقطها باسماً، شكرها وصمت هنيهة، ثم قال:

_ يا ترى المرة دي جاية تشاركيني لحظة نجاحي، واللّا تودّعيني من غير ما أحس؟

ردّت ومازالت تنظر أمامها:

_ سألتني سؤال في المزرعة ومارَدّتش عليك، يمكن لأنّي وقتها كنت مُتأكدة إنّي ضعيفة ومش مُستعدة لأي مُقاومة؛ علشان كده اختفيت لحد ما قدرت أواجه، وأدافع مرّة واحدة في حياتي عن حاجة أنا اللّي اخترتها، وأهه جتلك النهارده بس المرّة دي مش وداع، المرّة دي جاية أقتل أي سبب للفراق.

فتحت حقيبتها، والتقطت علبة صغيرة، ناولته إيّاها، فتحها فوجد خاتمًا فضيًّا كُتب عليه «صباي»، التمعت عيناه يتأمل اسمها المنقوش عليه، ابتسم لها:

ـ مُتشكّر بس بيتهيألي الهدية دي مش عشان الترقية، معقولة هتكون ذكرى جديدة أضيفها للشريطة والورقة عشان وداع جديد! يا ترى إيه الرسالة اللّي حابّه توصّليها بيه!

ـ إنّي موافقة.

اتسعت عيناه، ونظر ببلاهة، فنظرت له باسمة الثغر، وأكملت:

ـ وبكده يبقى ليّا عندك خاتم بعد ما تقابل بابا إن شاء الله.

وقف مُنفعلًا، وعلى صوته بفرح:

ـ إنتِ بتتكلمي جد؟!

تلفّتت حولها لتجد بعض الجالسين انتبهوا لصوته، فنظرت أرضًا بخجل، لوّح بكفّه مُعتذرًا، ثم طلب منها الخروج من القاعة، تواعدا يومها ألّا يفترقا حتى الموت، نظر للصور المُتراصة بعناية، والتي ألقت به في بوتقة من الذكريات، ما عاد يعرف أيبتسم لأنّها خلّدت أجمل لحظات حياته، أم يبكي لأنّها أصبحت مُجرد أطلال يقف عليها نصفَ حيٍّ!

يرى صور خطبتهما، توالت صورهما وهو يسترجع أجمل اللحظات التي عاشها بِصُحْبتها، حتى قبل حفل الزفاف بأسبوعين، نظر للصورة الأخيرة ولاحظ الآن نظرتها الخاوية، يذكر أنّها بدأت تتغير قبل زفافهما بشهرين. كانت أكثر عصبية، تشرد كثيرًا وكُلّما

سألها تُخبره أنّ السبب ضغوطات التجهيز للزفاف، كان يشعر أنّها تُخبئ شيئًا ما. وقُبيل الزفاف بأيام، طلبت منه الحضور للبيت لتصدمه بورقة زواج مُلفّقة من امرأة عرفها فقط منذ شهرين لا يربطه بها شيء سوى أنّه كان يُساعدها بقضيتها ضد أعمامها الذين استولوا على ميراثها، لم تُعطيه «صبا» حق التوضيح، أو حتى الدفاع عن نفسه. أنهت كل شيء وقطعت سُبل العودة، بحث عن الفتاة التي تسبّبت فيما حدث، وكأنّما انشقّت الأرض وابتلعتها، فَعَلِمَ أنّها من البداية ظهرت في حياته لتُفرّق بينهما، تُرى من أرسلها ومَنْ مِنْ مصلحته فراقهما؟!لم تُمهله الوقت ليندمل جرحه، فباغتته بطعنة أخرى حينما تزوّجت «مازن»، قرّر يومها أن يذهب للحفل ويراها من بعيد، اختبأ وراقبها بعيونٍ دامعة وقد ارتدت فستانها الأبيض، وتشبّثت بذراع زوجها، شعر لحظتها أن أحدهم باغته وطعنه بخنجرٍ غرسه في صدره؛ فانطلق النصل مُهشّمًا ضلوعه، مُمزقًا كل ما قابله حتى استقرّ بقلب فؤاده، فسالت دماؤه وانتفض جسده، ثم سكنت نبضاته ولفظ كل حيّ داخله أنفاسه الأخيرة. شعر أن الدنيا بوسعها أصبحت قبرًا ضيّقًا مُظلمًا دُفن فيه،لم يُبالغ حينما قال لها.. سأموت بدونك، فها هو عالق بين عالم الأحياء والأموات!

حاول أن يُشفى من هُيامها، قرر أن ينصاع لإلحاح والدته ويتزوّج، جلس مع هذه وتلك، وبكل مرة يتجلّى طيفها أمامه فيشغله عن أي فتاة أخرى، أخذ جولة في أنحاء الشقّة، وفتيل الشوق يشتعل أكثر حتى قَرُبَ صبره على الانفجار، تغضّنت زوايا عينيه عندما وقعت

على دفترٍ وُضع فوق خوانة السرير بغرفة النوم، اقتربٍ وتناوله، قلّبه بين يديه، فتحه وابتسم، يقرأ خطّها المُنمّق الذي زين أُولى صفحات الدفتر:

« أعلم أنّك كتومٌ، ترفض أن تشارك من حولك حزنك، حتى وإن كانت أنا! تخافُ أن يمسّ الحزن قلبي؟ أيُّها المجنون، أتراني الآن بخير حال وأنا أرى الحزن مُختبئًا خلف ضحكاتك المُصطنعة! مَثِّل على غيري؛ فصبا تسكنك، أشعر بوجعك، لم يكنٍ ذنبك. لقد حاولت ولكنّه قضاء الله، هذا الدفتر توأم دفتري الذي أُسطّر فيه الوجع كُلّما أثقل كاهلي وشَعُرت بثقل البوح للبشر. أعلم أنّ هذا الشعور ينتابك الآن، هيّا لا تتردد أمسك بقلمك، وبُح لسطور الدفتر بوجعك، وحينما تشعر أنّ الوجع أخفّ، تعال ستجدني بانتظارك؛ لتضُمّك عيني، وتُلملم شتات قلبك. صباك..»

أهدته هذا الدفتر حينما أُعدم رجل ظُلمًا في إحدى القضايا، ولم يستطع إنقاذه، تأثّرت حالته النفسيّة فحاولت التخفيف عنه بطريقتها الخاصة، أعاد القراءة مرّات وكرّات، فانسابت الدموع على وجنتيه، تهبّ رياح الذكريات فلا نبكي على الذكرى وألمها بقدر ما نبكي على الألم، الذي يقطع نياط القلب اشتياقًا لأصحابها الذين رحلوا، ولا سبيل لوصالهم، فقط تركوا لنا فُتات حياة نتغذّي فيها على الذكريات التي جمعتنا بهم، شيء ما يطعنه في صدره، أخرج قلمًا من جيب قميصه، ثم قلّب أوراق الدفتر، حتى وصل لصفحة بيضاء، أوقف رأس قلمه عند المنتصف، وكتب:

«سأكتب وأشكو لكِ منك، فهل وجعي سيخفّ؟ وإن حدث، أين الضامن أنّي سأعود وأجدَك تنتظريني لتضُمّني عينيكِ، وتُلملم شتات قلبي يا صباي؟!».

ألقى بالدفتر بعيدًا، وجلس أرضًا ينتحب، كان يظن أنّه قويٌ لا نقاط ضعف لديه حتى عشقها، فصارت هي مكمن قوّته ونقطة ضعفه! بدأ مرحلة الهذيان، يتجلّى طيفها أمامه ويقترب، دفن رأسه في صدر طيفها، واستسلم لخِدر النوم الذي بدأ يسري في أوصاله.

***

«مرّ عام منذ أن اتخذت قراري ولا جديد سوى الكوابيس، التي تُنغّص عليّ حياتي، وأنا ألوك الصبر كل يوم، أتعلمين يا «زينتي» لقد أصبحت حقًّا بارعة في فن الابتسامة المُصطنعة أستخدمها للهروب من سؤال أبيك الدائم «مالك؟!» ابتسامةٌ تُخفي تجاعيد الألم والحزن، وسادةٌ تكتم أَنفاس قلبي حتى لا يخرج صوت صرخاته، كم هي ابتسامة مُوجعة بالفعل! ولكن أنا من اخترت، والآن أود أن أعرف من أنا؟ فأي حياة تلك التي يعيشها الإنسان بلا ماض! ها أنا أكتشف حقيقة واحدة، مؤلم أن تسلك طريقًا تكرهه من البدَاية، ولكن تظن أنّك قويٌ لدرجة أن تتحمله فتسير لتُكمله، وتكتشف أنّ شيئًا لم يتغير بل أنت من وقع عليه التأثير سلبًا، تُفكّر في الرجوع أدراجك، ربما يصمت الوجع الذي ينخرُ في قلبك ولا تعلم مصدره! ولكنّك تنظر حولك فتجد نفسك عالقًا في المنتصف؛ حيث يأبى عقلك الرجوع كما يأبى قلبك التقدُّم، تخاف الرجوع فتعلق هناك في الماضي بلا جديد، ماضٍ تشعر أنّك لو علمته سيقضي عليك، وإن أكملت الطريق هكذا

بلا روح، فستقضي على بقاياك كمن يختاروا له الموت مسمومًا أو مشنوقًا لا يهم؛ فكلامها يؤدّي لنتيجة واحدة،كلاهما موت ولكن اختلفت الطرق.. أتعلمين! أشعر كثيرًا بالذنب تجاه والدك، أحلت حياته لتعاسةٍ، ومازال صابرًا، بدأت معه حياة جديدةً ولكنّي لست سعيدة بهذه الحياة، ربما الشيء الوحيد الذي يُضفي السعادة على حياتنا الكئيبة هو أنتِ، أُحب والدك يا «زينة»، وأُحاول جاهدةً أن أمنحه بعضًا من السعادة التي يمنحني إياها، لكن كوابيسي تُجبرني هذه الأيام على التفكير في الماضي. حاولت كثيرًا أن أعيش بلا ماض؛ فوجدت الحاضر يُصوّب فوهة مسدّسه تجاه رأسي، تمنّيت لو كنتِ كبيرة كفايةً لتتفهّمي وجعي، وتُشاركيني إياه؛ فأنا لا أشعر برغبة في البوح لبشر، بينما أشعر برغبة عارمة في تسطير وجعي، لذا سأكتبه لكِ ربما حينما تكبرين تقرئين سطوري، وتعلمين كم عانيت! أو ربما أكتب لسبب آخر، خوفًا من أن تخونني ذاكرتي مرةً أخرى وأنسى حاضري، فيُصبح كهذا الماضي الذي لا أعرفه، سيكون وقتها هذا الدفتر دليلي، حبيبتي أود أنـ» توقّفت حينما تناهى لمسامعها صوتُ رضيع، خبّأت القلم في صدر الدفتر قبل أن تُغلقه وتتجه نحو غرفتها، اقتربت من مهد الصغيرة باسمةً، حملتها بين ذراعيها، طبعت قُبلة حانية على وجنتيها وشرعت تُهدهدها حتى هدأت وتوقّفت عن البكاء، نظرت للصغيرة بحنان، مسّدت غُرّتها وقبّلت ذُؤابة أنفها، واتتها فكرة، قررت أن تستعدَّ للتنزُّه بصحبة رفيقتها الصغيرة والوحيدة، بدّلت ملابس الرضيعة بأخرى أثقل ووضعتها في مهدها، تقف أمام المرآة تتأمل شحوب وجهها، تضع القليل من المساحيق والحُمرة لتخفي

بعضًا من ذبول ملامحها، ثم تتناول المشط وتبدأ في تهذّيب شعرها الذي كان يومًا ما بُندقيًّا، وحينما قررت أن تُغيّر حياتها طالته ريشة التغير لتُحيله إلى الكستنائي، توقّفت عن التمشيط، تُداعب خصلاته. تلك المرة الأولى التي تُلاحظ فيها أنّ اللون القديم كان مُلائمًا أكثر، تنهّدت وهي تعقص شعرها على هيئة ذيل حصان، ارتدت معطفًا ولفّت كوفية من الصوف حول جيدها ثم لفّت «زينة» ببطانية تُلائم جسدها الصغير، ضمّتها بين ذراعيها وغادرت الفندق، كانت تتجول في شوارع «اسطنبول» وتتحدث للرضيعة التي نامت بين ذراعيها، وكأنها تفهمها وتعي ما تحكيه، قبّلت جبهتها وأحكمت لف الغطاء على جسدها، ثم ضمّتها لصدرها أكثر لتُحصّنها من هجمات البرد القارس، مرّت بإحدى الحدائق، استرعى انتباهها الورود المُتراصة بألوانها الزاهية المُتناسقة في مشهد بديع أجبر ملامحها على الابتسام. دخلت للحديقة، جلست على أحد المقاعد الخشبية، ومازالت تتأمل الورود من حولها باسمةً، أراحت «زينة» على قدميها، أخرجت الدفتر من حقيبتها، وبدأت تُكمل مُذكراتها، أوقفتها كرة بلاستيكية اندفعت نحوها ففزعتها، تفقّدت صغيرتها فوجدتها كما هي تنام باطمئنان، أمسكت الكرة التي استقرّت جانبها، ونظرت بحنق إلى الناحية التي أتت منها الضربة، وجدت طفلة صغيرة تنظر إليها بخوف فلانت ملامحها ونادتها، وقبل أن تتقدّم نحوها سبقتها امرأة تتّشحُ بالسواد، من الواضح أنّها والدتها، اقتربت من «صبا» واعتذرت منها بلَكْنَة تُركيّة مُتقنة، فقبلت اعتذارها بابتسامة رقيقة، وناولتها الكُرة، ولَكنّ المرأة لم تمد يدها بل ظلّت تُحملق في «صبا» حتى رفعت أحد حاجبيها

تسألها عن سبب الحملقة بوجهها هكذا، بدت المرأة مُترددة تسأل باللهجة المصرية:

_ إنتِ صبا؟

اتسعت عينا «صبا» مُجيبةً بخفوت:

_ أيوه أنا.

تهلّلت أساريرها، ورغم غطاء وجهها كانت فرحتها تلمع في عينيها وبادية في صوتها:

_ أخيرًا يا صبا، ده ياسمين كانت هتتجنن وتلاقي رقم تليفونك أو عنوانك.

_ هو مين حضرتك؟!

ردّت مُداعبةً:

_ غريبه! مع إنّك كنتِ على طول تقوليلي، بعرف أميّزك من صوتك! معقولة نسيتي صوتي؟!

_ أ.. آسفة، أنا بس مش واخدة بالي، مين حضرتك؟!

_ أنا «ملك مجدي».

ظلّت صامتة تتأملها، فبدأت المرأة تُذكّرها قائلةً:

_ أنا ملك بنت عم ياسمين.

_ ياسمين مين؟!

_ هو حضرتك «صبا زين العابدين»؟!

_ أيوه أنا، بس.. بس أعذريني أنا يمكن مُرهقة شوية، هو إنتِ كنتِ تعرفيني كويس؟!

ردت ببعض من الريبة والاستنكار:

_ إحنا كُنّا مع بعض في نفس الكلية، كنتِ بعدي بدُفعتين، لكن اللّي تعرفك أكتر منّي ياسمين بنت عمي؛ لأنكم المفروض كنتم أصحاب أوي.

ينتابها شعور غريب، ذلك الشعور الذي ينتابنا حينما نغرق في الوجع، وفجأة يهبط من العدم طوق النجاة، لا تعلم أهي غريق وجد قشّة نجاته، أم أنّها مُجرد مصادفة لا قيمة لها؟! سألت بلهفة:

_ أقدر ألاقيها فين؟ هي هنا في اسطنبول؟

_ لأ. هي في مصر، إنتِ عايشة هنا؟

_ أنا عايشة في لندن، بس جاية هنا أجازة مع جوزي، وراجعه لندن بكره، أنا لازم أشوف ياسمين، لو فعلًا زي ما بتقولي تعرفني كويس.

بدت «صبا» غريبة، تعجّبت «ملك» من تشتُّتها وارتعاشة صوتها؛ فسألت بخوف:

_ مالك يا صبا!؟ إنتِ كويسة!؟

أماءت فابتسمت ملك، وهي تنظر للصغيرة:

_ بنتك دي؟

_ أيوه «زينة».

_ ربنا يحفظها، بس إنتِ اتجوّزتي إمتى؟! آخر حاجة عرفتها لمّا فرحك اتلغى.

_ فرح مين اللّي اتلغى!

ـ إنتِ وأستاذ عمر.

مرّ اسمه كسهم اخترق قلبها، سألتها مرّة أخرى:

ـ تقصدي عمر ابن خالي؟!

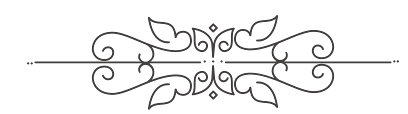
ـ أيوه.

ـ إنتِ متأكدة؟!

رفعت أحد حاجبيها قبل أن تُجيب:

ـ هو أنا مش فاهمة تصرفاتك، بس أنا متأكده إن الفرح اتلغى قبل الميعاد بأسبوع، وياسمين كانت بتحاول توصلّك من وقتها، بس هتفرح لمّا تعرف إنّكم اتجوزتوا، وما شاء الله دلوقتي معاكِ بنّوتة زي القمر، ربنا يحرسها.

لم تنتبه لباقي ثرثرتها، تذكّرت شعورها كُلّما رأته، وكيف كان يزورها بأحلامها، لكن لا أحد ذكر لها ما يربطها بـ «عمر» لا والدتها ولا «مازن»! ثقلت غلالة الدموع في عينيها، ظلّت ساهمةً في الفراغ، ضرب التيه جسدها الواهن فترنّحت، تميد بها الأرض وكأنّما خرّت من السماء فهوى بها الريح إلى مكانٍ سحيق، آخر ما تتذكره قبل أن تفقد الوعي، ملك تُنادي اسمها وتلتقط الصغيرة قبل أن تسقط مع جسدها.



لن تجمعك الشوارع بأشخاصٍ سيقلبون حياتك رأسًا على عقب صدفة، ستظُنّها كذلك؛ لتكتشف أنّه القدر الذي يقودك لواقع لم تكن لتُفكّر فيه، ويفتح بابًا لم تتوقع أن يُفتح لك يومًا..

ندا سليمان



«عُدنا لبيتنا في «لندن» اليوم صباحًا، ومنذ آخر لقاءٍ لي بملك وأنا صامتة شاردة، لاحظ أبوكِ حالتي وسألني مرارًا عن سبب وجومي الدائم، وأنا أختزل الحرب الضروس التي تطحن قلبي وتعصف بفكري في ابتسامه مُرهقة باهتة، وكَلِمَتيّ «أنا بخير»! لم أستطع النوم حتى الآن، ولا يغيب عن بالي لحظة سماعي لاسم «عمر»، أيُعقل أنّنا كُنّا سنتزوج؟! لكن لمَ لم يخبرني أبوكِ ولا جدتك؟! ربما أعذر والدك لغيرته، لكن جدتكَ.. لمَ أخفت عنّي حقيقة كهذه؟! وقتها ضرب التيه جسدي وفقدت الوعي، استفقت باحثةً عنك؛ لأجد صبيّة تحملك علِمت فيما بعد أنّها «حفصة» ابنة ملك الكُبرى، ورأيت ملك تسند رأسي على صدرها، وتُمسك بزجاجة عطر وماء. تأمّلت الواقفين حولي في وجوم، ثم انخرطت في البكاء، عَلَا نحيبي فطلبت «ملك» من ابنتها أن تأخذكِ بعيدًا، وتعتني بكِ وبإخوتها، وحقيقةً أنا مُمتنّة لها لأنّها لم تسألني في هذه اللحظة عن سبب بكائي، فقط ضمّتني بقوة، وظلّت تربت على ظهري، وتمسح على شعري بحنان حتى هَدَأت، وتوقّفت أمطار عيني عن الهطول مُخلّفةً عينين حمراوين، صَدر يعلو ويهبط وشهقات مكتومة. دون مقدمات وجدتّني أتحدث وأحكي لها كل شيء منذ أن استفقت من غيبوبتي إلى اللحظة التي تسبق فقداني للوعي، ابتسمت عيناها فشَعُرت بالاطمئنان، أخذت تواسيني وتبث الأمل والقوة بكلماتها إلى قلبي، سألتها: «وما العمل الآن؟!» فأجابت:

_ أنصحك بالعودة لمصر، أعلم أنّكِ عشتِ جزءًا كبيرًا من حياتك بـ «لندن»، لكن أظن من الأفضل الاندماج بين عائلتك،

كلٌّ منهم يُذكّركِ بذكرى حتى تكتمل الذكريات وتتآلف لتُساعدك، ذكرياتك مع زوجك وحدها لا تكفي. وأظن الدكتور «محي» زوج «ياسمين» لديه الحل بإذن الله، إنّه طبيبٌ متميز جدًّا بالطب النفسي، جرّبيه ربما يكون لديه الحل، وربما كان لقاؤنا هذا حكمةً من الله، بل بالتأكيد لأنّه يشعر بما تُعانيه، أرجوكِ يا «صبا» لا تستسلمي.

تنهّدت وشردت قليلًا في الفراغ، ثم أخبرتها أنّي سأُحاول، شدّت على كفّي، وربتت عليه بحنان، ثم سألتني عن ورقة وقلم، مزّقتُ أحد أوراق دفترك، وناولتها القلم، كَتَبَتْ شيئًا، وناولتني الورقة قائلةً:

ـ هذا عنواني ورقم هاتفي، أنا عائدة اليوم لمصر إن شاء الله، أتمنّى أن أراكِ قريبًا هناك، سننتظرُك أنا وياسمين، جرّبي أن تستعيدي «صبا» الحبيسة داخل ذاكرتك، ربما ترتاحين بعدها.

ابتسمت لها وشَكرْتها، ودّعتني بضمة، رَحَلَت بعد أن حَمَلْتُك بين ذراعيّ، وعُدّت للكرسي الخشبي أُفكر في كلامها، بالفعل أَنا لست مرتاحة، فَلِمَ لا أُجرّب ربما أعرف شيئًا عن الماضي، ووقتها حينما أختار البدء بحياة جديدة سأكون أكثر راحةً واطمئنانًا. عُدنا للفندق، لاحظ أبوكِ الاصفرار والإعياء البادي على وجهي، سألني عن السبب فكَذَبْتُ كعادتي وأخبرته أنّني بخير، خَلدت للنومِ حتى لا يُلاحظ التيه الذي يحتل عيني، ويبدأ في أسئلته التي كعادتي أُجيب عنها بنفس الاجابة «أنا بخير».

أنا الآن جالسة بغرفتي، وأنتِ نائمة في مهدك أمامي، أنتظر والدك؛ فقد قررت اليوم أن أطلبَ منه العودة لمصر، لقد اتخذت قراري وعزمت على بدء معركة جديدة؛ لأستردّ نفسي وأطلق سراح

«صبا» القديمة، سأنبش في الماضي، وإمّا أن تأكُلني ناره أو أرتاح، لم يعد يهم!

حبيبتي، أسمع صوت سيارة أبيكِ في الخارج؛ لذا سأتركك الآن، ولنُكمل ثرثرتنا في وقتٍ لاحق، تُصبحين على خير يا ملاكي».

أغلقت الدفتر، وخبّأته، ثم نهضت نحو النافذة، تابعته وهو يغلق سيارته ويدلف إلى البيت، هبطت الدَّرَج واستقبلته بابتسامتها المُشرقة، قبّل جبينها، صعدا للغرفة وساعدته ليُبدّل ملابسه، ارتدى منامته وتسطّح في مخدعه، لاحظ شرودها فاعتدل في جلسته، وسألها عمَّا يُشغلها، ترددت قليلًا ثم تشجّعت وطلبت منه أن يسافروا لمصر. رفع أحد حاجبيه، وسألها عن السبب؛ فتعللت أنّها تشتاق لوالدتها كما أن زينة لم تزر مصر من قبل، فأجاب باستنكار:

_ على أساس زينة فاهمة حاجة يعني! وبعدين مامتك أمرها محلول، نبعتلها تذكرة زي يوم ولادة زينة وتيجي تقعد معاكِ براحتها.

_ ماما تعبانة من يوم ولادة زينة، أقوم أنا أتعبها تاني وأقولّها سافري! أنا بجد نفسي أشوفها، وعاوزه أرجع مصر.

_ مش ممكن نأجّلها للسنة الجاية؟

_ يا خبر يا مازن هستنى كل ده! طيب عندي فكرة أفضل، مش «ميرال» جايلنا الأسبوع الجاي؟ تيجي وتقعد براحتها، وهي ماشية هرجع أنا معاها مصر، ها.. إيه رأيك؟

سكت هُنيهة، ثم قال:

_ بس ميرال مش جاية.

سألت بإحباط:

_ ليه؟!

ابتسم بحنان:

_ عشان أنا هكلّمها، وأقولها خلّيكِ عندك؛ إحنا اللّي جاينلك مصر.

قفزت فَرِحَةً، وتعلّقت في رقبته، فأحكم ضمّته قائلًا:

_ ما أقدرش أرفض لبنتي الكبيرة طلب.

***

عاد لعُزلته وحياته البائسة في صعيدِ مصر، كان مُنكبًّا على أحد الملفّات، أعاد جذعه للخلف وهو يتمطّى، لمح هاتفه فتذكّر أنّه لم يطمئن على والدته اليوم، اتّصل بها ولم تُجب فاتّصل بـ «منى»، ردّت بعد محاولته الثانية، كان صوتها يكاد يُسمع، وهناك أصوات كثيرة وضوضاء حولها، أرهف سمعه مُحاولًا التقاط ما تقول، ولكنّه فجأة فقد تركيزه ما إن تناهى لمسامعه صوتٌ يألفه،لم يُعانق أُذنيه منذ زمن، صوت أضرم النيران في هشيم قلبه، اختفت أصوات الجميع إلّا صوتها الذي يُميّزه جيدًا، ظنّ أنّه قادم من غياهب عقله الباطن، استفاق على صوت «منى»:

_ أيوه يا عمر، خلاص دخلت الأوده، كده صوتي واضح؟

ابتلع ريقه، وسأل بصوتٍ مبحوح:

_ هي «صبا» عندك؟

لو كان واقفًا أمامها الآن؛ لرأي عينيها المُتّسعتين وهي تسأله:

_ عرفت منين؟!

لم يُجب عن سؤالها، وسأل:

_ رِجْعت مصر إمتى؟

_ إمبارح، بس إنت عرفت منين؟!

_ طمنيني، ماما وعمّتي بخير؟

_ أها.. كُلّنا بخير، و«صبا» بخير الحمد لله، لسّه جاية من شوية، هي وبنتها، والعيلة كُلّها متجمعة عندنا بيسلّموا عليها، وهتاخد عمّتو تبات معاها في بيتها الليلة إن شاء الله.

_ وأنا ماسألتكيش عن صبا، أبقي سلميلي على ماما، وأنا هكلمها بالليل إن شاء الله، سلام.

لم ينتظر ردّها، أنهى المُكالمة فنظرت للهاتف مُتعجّبة بعد انقطاع الخط، ثم عادت لتجلس معهن بالخارج، أمّا عنه فقد حاول أن يعود لعمله، لكن هيهات أن يجد الآن ذرة تركيز تُنصفه، بدأ يشغل نفسه حتى وجد الحل ليتناسى، اتّصل بصديقه «سالم» واتفقا على أن يتناولا الغداء سويًّا، تناول سُترته ورَكِبَ سيارته، مرّ من طريق الجبل ولمّا لمح أطراف سور البيت توقّف، ينظر له من بعيدٍ فقفز لذاكرته ذلك اليوم، حينما أخبره «سالم» بأن ثمة بيت باسم «صبا»، يومها ذهب إلى هناك ورأى الحارس وزوجته، أكّدا له ما قاله «سالم» كما أنه رأى العقود بأم عينيه، اتّصل من فوره بعمّته، وسألها عن أمر هذا البيت، وكانت المرة الأولى التي تعرف فيها أن لطليقها بيت بصعيد مصر، أراد أن يسأل مازن ولكن عمّته رفضت ورَجَتْه ألَّا يفتح أي قضية الآن، «صبا»

سافرت للعلاج ولا تُريد لأي شيء أن يُشتتها أو يُنغّص عليها حياتها، اكتفى باستجواب الحارس عن ليلة الحادث وحينما ذكر التاريخ، سكت الرجل هُنيهة مُضيّقاً عينيه ثم تذكّر وأخبره أن «صبا» في ذلك اليوم أصرّت أن يأخذ أسرته ويسافروا. سافروا وحينما عادوا لم يجدوا لها أثرًا، حاولوا الاتصال بها مِرارًا وخاصة بعد أن هجم مجموعة من المُلثّمين على البيت، لكنّ هاتفها دائمًا مُغلقٌ، أنهى الرجل حديثه ثم سأل بريبة عن «صبا» فربت عمر على ظهره، ثم حوّط كتفيه بذراعه قائلًا:

_ الست «صبا» عملت حادثة في الليلة اللّي انتوا مشيتوا فيها.

_ يا ساتر يا رب، الست «صبا» ماتت؟!

_ ماتت إيه إنت كمان! لأ. كويسة الحمد لله، بس فقدت الذاكرة، يعني مش فاكره أي حاجة، ولا عارفه حد حوليها، عشان كده لازم تساعدنا شوية يا مرغني.

فأجاب الرجل بلهجة صعيدية مُتقنة:

_ أؤمر يا باشا، واللّي أعرفه هقوله.

_ مين تاني يعرف البيت ده غير «صبا»، والدكتور زين الله يرحمه؟

_ ولا أي حد، عُمرنا ما شُفنا حد جه الفيلا دي غير الدكتور الله يرحمه والست «صبا»، ربنا يطوّل في عمرها.

_ طيب وليلة الحادثة مجالهاش أي اتصال غريب؟ ولا قَابْلِت حد؟ ماحصلش أي حاجة غريبة؟ ولا كان باين عليها قلق مثلًا أو خوف؟

_ ماخرجتش من الفيلا اليوم ده، وآخر النّهار مشينا أنا ومراتي ماشُفناش حاجة، الله أعلم يمكن حد جالها واللا كلمها بعد ما مشينا، هي بس شكلها كان باين عليه الزعل، ومراتي قالت يمكن عشان موت المرحوم الدكتور زين.

ترك الرجل، وظلّ يصول ويجول في أنحاء البيت، اقترب منه سالم هامسًا:

_ هو إنت ليه شغّال تحقيق مع الراجل، وبتفحص البيت وكإن جريمة حصلت فيه؟!

_ بص يا سالم، جزء من شغلي بعتمد فيه على إحساسي، وعُمره ما بيخيب، أنا حاسس إن فيه سر هنا، والبيت له علاقة باللّي حصل لصبا، رتّب معايا كل اللّي وصلناله لحد دلوقتي، أولًا محدّش في العيلة يعرف البيت ده غير «صبا» والدكتور زين الله يرحمه، ده حتى جوزها اللّي قلت ممكن يكون عارف حاجة، الحارس بيقول إن عمرهم ما شافوا حد غير «صبا» وباباها، لو فرضنا إن عادي بنت وباباها عاوزين مكان خاص بيهم، وممكن مايقولوش لحد عنّه، طيّب ليلة الحادثة ليه كانت مُصرّة مرغني ومراته يمشوا؟ وبعدين إيه اللّي ودّاها على طريق الجبل في نص الليل، المسافة بين الفيلا والطريق مش قليلة، والسوّاق اللّي خبطها بيقول إنّها كانت طالعة من وسط الشجر بتجري، وفاجئته! يعني من الواضح إنّها كانت بتجري من حد!

حكّ ذقنه، ومطّ شفتيه، ثم قال:

_ عندك حق في كل اللّي بتقوله، بس كل ده ولا له أي لازمة لأنّه مش هيوصّلنا لخيط نمسك بيه أي حاجة تفسّر اللّي حصل، ثم

اللّي هاجموا البيت ماكرروهاش، اللّي في إيديها كل الخيوط هي بنت عمّتك.

_ ما أنا مُنتظر ترجع من بره، بإذن الله هتكون رجعتلها الذاكرة، وهنفتح التحقيقات من تاني.

مرّ شهرٌ تلو الآخر، ولا عودة لصبا، عَلِمَ أنّها بدأت تأسيس حياة جديدة مع زوجها، ورزقها الله بطفلة منه، فتناسى أمر هذا البيت وسرّه، ولكنّه يمر كل شهر ليُعطي الحارس راتبه، ويتفقّد البيت ربما تستعيد «صبا» ذاكرتها يومًا ما، فتعود وتجده كما تركته، تنهّد وهو يُدير مُحرّك السيارة الغافي، فزمجر في حنق لإيقاظه، أخرج ضيقه في ضغطة قوية على دوّاسة البنزين؛ فانطلقت السيارة مُبتعدة به عن شرك الذكريات اللّعين.

***

الشمس في الأفق تحتضر، خارت قوّتها فصارت ألسنة اللهب التي كانت تحرق بها الأجساد ظُهرًا على شاطئ الإسكندرية بردًا وسلامًا عليها، أرادت أن تنفرد لبعض الوقت بنفسها؛ كي تُعيد أفكارها لنصابها، فمذ عادت لمصر وهي تشعر أنّها تائهة تسير في دوّامة، تركت «زينة» نائمة جانب والدها، فتحت خزانتها وظلّت أصابعها تتنقّل برشاقة بين الفساتين، حتى توقّفت عند فستان قصير لونه أصفر، وأطرافه بيضاء، وله حزام أبيض كبياض أطرافه، لا تعلم لِمَ جذبها هذا الفستان تحديدًا، وشعرت برغبة عارمه في ارتدائه، بدّلتَ منامتها به، ووقفت أمام المرآة تنظر لشعرها البُندقيّ بابتسامة رضا، فقد ألحّت عليها نفسها أن تُعيد صبغه للونه الأول، مادامت

ستبدأ رحلتها للماضي فلابد أن تعود إليه كما كانت، عقصت شعرها، تأمّلت وجهها في المرآة، ورغم ذبوله الذي أصبح سِمة أساسية له، لم تضع أيًّا من المساحيق، فقط أعادت فرد شعرها ومشَّطته، نظرت نحو «مازن» النائم في سريره وجانبه «زينة» في مهدها، ثم نظرت لمظهرها في المرآة نظرة أخيرة قبل أن تخرج على أطراف أصابعها خشية إيقاظهما. التقطت حذاءها، نظرت له ثم للبحر، وأعادته كما كان، تُريد أن تسير على الشاطئ حافية القدمين، اقتربت من البحر وقدماها تنغرسان بالرمال، فتُدغدغها وتبعث في نفسها نشوة تُجبر ثغرها على الابتسام. اختبأت الشمس في أحضان السماء، مُخلّفةً لوحة فنّية أسرتها، خيوطٌ حمراء تتخلّلها خيوط بنفسجية وأخرى صفراء على صفحة السماء، نظرت للأفق ثم للبحر وتنهّدت براحة لم تشعر بها منذ وقت طويل، اقتربت من البحر أكثر وجلست على الشاطئ تُتابع موجة تأتي مُسرعةً لتغمر قدميها وترحل لتأخذ مكانها أُخرى، أعادت خُصلات شعرها الثائر خلف أذنها، مالت بجذعها للخلف قليلًا وثبّتت كفّيها خلف ظهرها بالأرض كوتدين يحملان جسدها، لا تُنكر أنّها تشعر بالراحة مذ عادت لمصر، ولكن ثمة شعور غريب بالخوف يُنغّص على قلبها راحته، لم تُخبر أحدًا بقرارها فهي نفسها ليست مُتأكدة إلى الآن من قُدرتها على تنفيذ القرار!

حتى وإن حاولت مرةً أخرى فلن تُخبر زوجها، يكفيه إلى هذا الحد، قررت خوض المعركة وحدها، فإن انتصرت سيكون انتصارها مُكافئةً له على صبره، وإن فشلت هذه المحاولة أيضًا، فستعود لحياتها بهدوءٍ كما تسللت خُفية.

«عمر» انتشلها الاسم من شرودها، نظرت حولها بارتباكٍ، فرأت امرأة تجري خلف طفل وتُناديه بـ«عمر» تابعتها تُمسك به وتُضاحكه، ثم ابتعدا عنها حتى اختفيا عن ناظريها، هل أتيا فقط ليُذكّراها بـ «عمر»؟!، أكان ينقُصها هو الآخر! تنهّدت وذكرى يوم مواجهتها لوالدتها تجول بخاطرها، ذهبت «هدى» لتبيت معها بعد عودتها لمصر، كانتا جالستين في الليل تتسامران، هدى تُداعب الصغيرة وتُضاحكها و»صبا» تتأملها، وتبحث عن مُفتتح لتسألها، نظرت لساعة يدها، خرج «مازن» لتناول العشاء مع أصدقّائه، اقترب موعد قدومه ويجب أن تغتنم الفرصة، لن تبحث عن مُقدمات ستسألها مباشرةً، كانت «هدى» مُنشغلة مع الصغيرة حينما باغتتها «صبا» بسؤالها عن سبب إخفائها العلاقة التي كانت تربطها بعمر؟، توقّفت عن مداعبة الطفلة، ونظرت مُندهشةً نحوها، فبادلتها بنظرات لوم وعتاب، اعتدلت «هدى» في جلستها، ونظرت لها واجمة، عاتبتها «صبا» على فعلتها، فبررت قائلةً:

_ لأنّك قبل ما تفقدي الذاكرة قفلتي الموضوع ده تمامًا، وقررتي تبدئي حياة جديدة مع «مازن»، وبالتالي ماكنش فيه داعي إنّي أفتح الموضوع.

جلست جانب «صبا»، حوّطت كتفيها بذراعها، قائلةً بِحنُوّ:

_ بلاش تفتحي مواضيع هتجيبلك وجع راس، وتتعبك في حياتك يا حبيبتي، إنتِ كُنتِ مرتاحة إنّك قفلتيه وإنتِ عرفاه، بلاش تيجي دلوقتي وتفتحيه وإنتِ مش فاكره أصلًا مين عمر! وما

تتكلميش مع جوزك في الموضوع ده، ولا حتى تجيبي سيرة عمر؛ لأنه راجل وطبيعي يغير على مراته.

كانت على وشك أن تقول شيئًا؛ لولا أن دخل «مازن» وحيّاهم، سلّم على والدتها، وصعد لغرفته، فهمست هدى:

_ بيتهيألي بقى نقفل الموضوع ده دلوقتي.

استفاقت من شرودها على يد «مازن» تربت على كتفها، فانتفض جسدها

_ أنا آسف، ماكنش قصدي أفزعك.

_ ولايهمك، أنا بس كنت سرحانة شوية، زينة نايمة؟

_ أه لسه نايمة، أنا جبت الجهاز بتاعها معايا عشان لو صحيت نسمع صوتها، خير بقى الجميل كان سرحان في إيه؟

ابتسمت وهي تنظر للبحر قائلةً:

_ بقِى معقولة حد يشوف المنظر المُبهر ده ومايسرحش!

_ أُمال أنا أقول إيه بقى المنظر ده بالإضافة لست الحسن والجمال؟ تقريبًا هتجنن!

ضحكت بمرح، ثم توقّفت لمّا أربكتها نظراته، تورّدت وجنتاها، وأشاحت وجهها ًبعيدًا، تُشعله هذه الحُمرة التي تُلوّن خدّيها حينما ترتبك، يشعر حقًّا أنّها طفلة في جسد امرأة، مدّ يده وجذب ذقنها تجاهه، ثم طبع قُبلة على جبينها، فابتسمت بحبٍّ، تأمّل فُستانها، واتسعت عيناه سائلًا:

_ اشمعنه الفستان ده تحديدًا اللّي لبستيه؟!

نظرت للفستان، مطّت شفتيها، ثم قالت:

_ معرفش، أنا لقيته في أودتي في الفيلا، عجبني وجبته معايا، ودلوقتي عادي لفت انتباهي ولبسته، هو شكله وحش!؟

_ بالعكس إنتِ بتدّي لأي حاجة معنى وجمال خاص، أنا مش بتكلم على حلو أو وحش، بس استغربت لأنك كُنتِ لابسه الفستان ده في آخر مرة جينا فيها هنا، كُنتِ لسّه متأثرة بوفاة باباكِ، وكُنّا في الشتا، ولبستيه رغم البرد والمطر.

ارتجفت فجأة حينما شعرت بنسمة باردة تجتاحُها، وكأنّها خرجت من ذاك الشتاء لتضرب جسدها، جذبها «مازن» لصدره فتشبّثت به، وتركت عينيها تغوصان في أعماق المياه حتى أتاها صوته:

_ اعملي حسابك، هنتعشّى برّه النهارده مع عزمي ومراته.

لم تُجبه، فقط ظلّت مُتوسّدة صدره شاردة في الفراغ، لا تدري ما عليها فعله، ربما تُقرر الليلة هل ستتصل بملك؟، أم ستُكمل حياتها وكأنّها لم ترها؟!.

***

رفعت طرف فُستانها الأسود المُنسدل بهدوءٍ، مُحتضنة ذراع مازن، تضع القليل من المساحيق، وشعرها تركته مُنسدلًا كفستانها، رفعت خُصلات شعرها خلف أُذنها، فظهر قِرْطٌ مماثلٌ للعقد الأسود اللامع الذي تَلُفّه حول جيدها، استقبلهما عزمي صديق «مازن» وزوجته بترحاب، وبعد السلام والمُجاملات جلست جانب «مازن» وجانبها «زينة» نائمةً في عربتها، بدأت زوجة عزمي تجذبُ أطراف الحديث و»صبا» تستمع لها بنصف تركيز وتبتسم مُجاملةً، وصل العشاء فلم

تجد شهية للأكل، ظلّت تعبث بشوكتها في قطعة اللّحم الموضوعة أمامها حتى انتشلها من شرودها صوتُ رجلٍ على المسرح يُقدّم راقصة، دخلت الراقصة وسط تصفيق حار منَ الحاضرين، بدأت تتلوّى بجسدها كالأفعى على أنغام الموسيقى، زفرت وهي تُشيح ببصرها عنها، تشعر بالاختناق في هذا المكان، كما أنّها تود الانفراد بنفسها؛ لتُفكّر في قرارها بهدوء، انتبهت فجأةً ليد «مازن» تربت على كفّها فابتسمت له، مال عليها وهمس سائلًا عن سبب وجومها؛ فأخبرته أنّها تشعر بالصداع، ثم استأذنت في الذهاب للمرحاض، أسرعت الخُطى تاركةً خلفها صوت التصفيق الذي ألهب المكان، تنفّست الصعداء. وأخيرًا، وجدت منطقة هادئة وسط هذا الصخب، غسلت وجهها، وظلّت تتأمله في المرآة حتى فزعها صرير الباب وهو يُفتح، نظرت لتجد الراقصة التي كانت منذ قليل تتمايل على المسرح أمامها، ولكنّها بدّلت ملابسها بأخرى، فتحت الصنبور، وشرعت تغسل يديها..

ـ إنتِ مدام «صبا» بنت دكتور زين؟ مش كده؟

رفعت حاجبيها دهشةً، وهي تنظر للمرأة وتقول:

ـ أيوه أنا، هو حضرتك تعرفيني!؟

وكأنّها لم تسمع سؤالها، جذبتها نحو أحد المراحيض، وأغلقت الباب، ثم كمّمت فاهها بكفّها، وهمست في أذنها «أرجوكِ اهدي وماتخافيش مِنّي».

سكنت مقاومة «صبا» عندما سَمِعَت وقع أقدام إحداهن بالخارج، اختفى الصوت فتركت المرأة «صبا»، وأخرجت رأسها من الباب، ولمّا تأكّدت من خلو المكان؛ عادت تنظر لصبا المذعورة، وتقول:

ـ أنا آسفة إنّي عملت كده، أرجوكِ بسرعة طمنيني على «فاتن»، لسّه الحمد لله في أمان، واللّا وصلولها؟ وبعدين هو ده وعدكم؟ مش قولتوا هتتحركوا وتتصرّفوا بدل القرف اللّي إحنا فيه؟ ده إحنا شُفنا أيّام ما يعلم بيها إلّا ربّنا!.

ـ أ.. أنا مش فاهمة حاجة! «فاتن» مين؟ وبتتكلمي عن إيه؟!

رفعت المرأة أحد حاجبيها، فقالت «صبا»:

ـ لو إنتِ كُنتِ تعرفيني، فأنا عملت حادثة وفقدت الذاكرة، بس محتاجة مُساعدتَك، ممكن نتقابل ونقعد مع بعض شوية؟

ـ وهو لو كنت أقدر كان زماننا بنتكلم هنا بصوت واطي كده زي الحرامية!

ـ إنتِ خايفة من مين؟!

سمعوا صوتًا آخر؛ فصمتتا حتى اختفى الصوت.

ـ بقولك إيه أنا رايحة بكره «سان ستيفانو»، ممكن نتقابل هناك، هاتي موبايلك.

أخرجت الهاتف من حقيبتها، وناولته لها، كتبت رقمًا، ثم أعادت لها الهاتف قائلةً:

ـ ده رقم تليفوني سجلته عندك باسم «سميحة» ده اسمي القديم، محدّش يعرفني بيه، الساعه ٥ بالدقيقة تكوني هناك، ولمّا توصلي كلّميني عشان نتفق على المكان اللّي هنتقابل فيه، ياريت ماتقوليش لأي حد عن المقابلة دي، مع السلامة.

خرجت مُسرعةً، وتركت «صبا» في لجة من الحيرة والخوف، سمعت صوت «مازن» يُنادي، فخرجت مُسرعة، نظر لها بخوفٍ،

سألها عن سبب التأخير إلى هذا الحد؛ فتعللت أنّها تشعر بدوار، وتريد العودة للبيت. عادا، وقبل أن يُوجّه إليها أسئلته هربت وتصنّعت النوم، حتى وجدته يغط في نوم عميق، نهضت وجلست بالبهو، تُفكّر فيما حدث الليلة، تناولت هاتفها، عبثت بأزراره حتى توقّفت عند اسم «سميحة»، ضغطت زر الاتصال وانتظرت الرد، أجاب صوت ناعس:

_ ألو، مين معايا؟

_ أيوه يا سميحة أنا «صبا».

_ أهلًا يا مدام صبا، أنا هسجّل رقمك عندي، وعلى ميعادنا بكره إن شاء الله.

_ مش هينفع نتكلم دلوقتي؟، وتقوليلي أي حاجة تعرفيها عنّي، أو على الأقل تقوليلي مين «فاتن» دي!؟

_ الكلام مش هينفع في التليفون، بكره إن شاء الله لمّا نتقابل هقولك على كل حاجة، وياريت ماتتصليش بيّا تاني غير في الميعاد اللّي اتفقنا عليه.

أغلقت الهاتف، وشعرت بأنّها إشارة تُخبرها أن قرارها صائب، ويجب أن تبدأ في تنفيذه.

***

أسفر الصبح، ضَحِيَت الشمس وطرقت أشعتها أبواب عينيها، فرفعت جفنيها بهدوءٍ، وتأوّهت حينما شعرت بألمٍ في عُنقها وظهرها من أثر النوم جالسةً على الأريكة طوال الليل، أغمضت عينيها لبُرهة،

تفرك بأناملها جبهتها؛ علّ ألم الصداع يخف، تناولت هاتفها، فوجدت رسالة من رقم «سمحية»، اعتدلت في جلستها، وفتحتها سريعًا:

« إوعي تيجي في المكان اللّي اتفقنا عليه عشان مش هتلاقيني، وانسي إنك قابلتيني من الأساس»

اتصلت بالرقم؛ فوجدته غير موجود بالخدمة، زفرت بعصبية مُلقيةً هاتفها على الأريكة، كُلّما فُتح باب واقتربت منه يُصك بعنفٍ في وجهها، انتظرت حتى حلَّ الليل وذهبت لمكان عملها، كانت جالسةً بالمكان مُتوتّرة، عيناها تصول وتجول بحثًا عنها، وكالليلة الماضية صعد الرجل للمسرح وقدّم الراقصة ولكنّها تفاجئت حينما اعتلت أُخرى خشبة المسرح، انتظرت حتى انتهت فقرتها وتحججت بالذهاب للمرحاض، سألت عن غُرفة الراقصة، ذهبت إليها وسألتها عن راقصة الليلة الماضية فأخبرتها أنّها لم تعد تعمل هنا، ولا أحد يعرف عنوانها أو حتى رقم هاتفٍ لها، عادت لزوجها مُحبطة، تُحاول السيطرة على ملامحها.. جلست بعيونٍ زائغة، ثم فاجئت «مازن» وطلبت منه أن يعودوا للقاهرة الليلة.

***

عادت لشقّتها في وقتٍ متأخرٍ من الليل، أوصدت الباب واتجهت نحو الأريكة. رغم الظلام السرمديّ الذي تسبح فيه الشقّة؛ قدماها تحفظ طريقها جيدًا، ألقت بجسدها المكدود على الأريكة، نظرت للسقف، تُفضّلُ دومًا الجلوس في الظلام؛ فهذه الظُّلمة لن تكون أشدّ من التي تُخيّم على قلبها، بدأ خيط الدموع ينسل من ذنب عينيها، اعتدلت في جلستها وحاولت الوقوف فلم تحملها قدماها، جلست

وأجهشت بالبكاء، وكُلّما تذكّرت أنّها مهما بكت وعلا صوت نحيبها؛ لن تجد يدًا تربت على كتفها، يزداد بكاؤها، هي الآن تشتاق لمن يضمّها إلى صدره ويُهدهدها بحنان، لا لتلك الأحضان التي تتلقّفها بشهوةٍ وطمع، داهم عينيها المُرهقتين النُّعاسُ فاستسلمت لغفوة قصيرةٍ أيقظها منها رنين الهاتف، نظرت لتجد رقمًا غير مُسجّل، ردّت بصوتٍ ناعسٍ، وحينما سمعت اسم «سميحة» طرق قلبها صدرها بعنف، لم تسمع هذا الاسم منذ وقتٍ طويل، ردّت على المُنتظرة بالجانب الآخر، وتجاذبا أطراف الحديث لدقيقتين، أغلقت سميحه الخطّ سريعًا، ثم حفظت الرقم باسم «مدام صبا»، وضعت الهاتف على الطاولة المُجاورة لأريكتها، زفرت بعنفٍ وهي تنهض نحو المرحاض، غسلت وجهها وتأمّلته في المرآة لِبُرهةٍ، كم تكره النظر في مرآتها حتى لا ترى الوجه القبيح لـ «سالي» التي لم تكره أحدًا على وجه الأرض مثلما كرهتها، تحدّثت لصورتها في المرآة بغضب:

_ أنا «سميحة» مش «سالي»، «سميحة» وبس.

نظرت لحوض الاستحمام، ويتردد داخلها صوتٌ واحد «فلتُنْهِ كل شيء الآن»، اقتربت وملأته ثم تمدّدت فيه بملابسها، ومازال الصوت يتردد داخلها،كتمت أنفاسها، أسبلت جفنيها وغاصت في أعماقه، بدأ الخدر يسري في أوصالها، وعقلُها استسلم للألم الذي يطيح بفؤادها الآن، إنّها في طريقها نحو فقدان الوعي، ولكنّ عقلها توقّف عند منطقة بين الوعي واللاوعي، بدأت تتقافز ذكرى مُختبئة بزوايا خُلدها، وكأنّها انتقلت عبر آلة زمن لصالة الميتم الذي تربّت فيه، ترى نفسها يوم كانت «سميحة» تجلس على الأريكة المُقابلة



للتلفاز الصغير وجانبها تجلس «فاتن» رفيقتها المُقرّبة بل أكثر من أخت لها، تربّيا سويًّا في هذا الملجأ، تُشاهدان «صغيرة على الحب» فيلمها المُفضّل، وقفت «فاتن» تُقلّد «سعاد حسني»، وتُغنّي معها:

ـ عايزه أفتح عيني وأغمّض، ألقى سنّي بقى عشرين.

فضحكت «سميحة»، ووقفت تُقلّد صوت عم «حُزُمبل» سائلةً:

ـ علشان إيه؟

ـ علشان أعجب شاب يكون خمسة وتلاتين.

ـ لأ مش ممكن.

ـ علشان خاطري بس، ولو ليومين اتنين.

ـ لأ يوم واحد بس بشرط تمشي معايا على طول الخط.

أسدلت حجابًا على كتفيها، وضمّت به فاتن كما فعل عم حزمبل، ونقل الصغيرة على الحب لسنِّ العشرين، فكّت «فاتن» الشريطة التي تعقص بها شعرها، أمسكت طرف جلبابها، وبدأت ترقص وتُغنّي

«يا بحر الهوى يا حبيبي أنا، أنا كنت عاوزه أجيلك بقالي كام سنة، بيقولوا إنّك قوي، وبتجرح بالقوي، علّمني علّمني بس حاسب عليّا مـ الهوى، يا بحر الهوى يا حبيبي أنا»

لتُخرجهما من حلمهما «أبله محاسن» صارخةً كعادتها:

ـ قومي يا صغيرة ع الحب إنتِ وهيّ، جهّزوا حاجتكم، ونفّضوا الأوضة بدل ما آجي أنفّضكم.

لترُدّ فاتن:

ـ والنّبي يا أبله نخلّص الفيلم ده، وهنقوم نعمل كل اللّي إنتِ عوزاه.

أغلقت التلفاز، وقالت:

_ لأ. قوموا عشان الراجل اللّي جابلكم شغل المصنع، جاي ياخدكم النهارده.

قالت سميحة بفرح:

_ بجد يا أبله؟، أخيرًا هنشتغل!

_ أه يا فالحة، وعلى الله تصغّروا رقبتنا.

ردّت الفتاتان بصوتٍ واحد: «ما تخافيش يا أبله، هنرفع راسك»، ثم أسرعتا نحو غرفتهما وهما تتضاحكان. كانت سميحة تُرتّب خزانتها حينما لاحظت وجوم فاتن، اقتربت سائلةً:

_ مالك يا بت! قالبة سِحنتك كده ليه؟!

_ مفيش.

_ لأ بجد، فيه إيه يا فاتن!؟

_ معرفش يا موحة، أنا قلبي مقبوض، ومش مستريّح لشُغلانة المصنع دي.

حوّطت كتفيها بذراعها:

_ يا هبلة، هتفضلي كده طول عمرك، مهما كبرنا بتخافي تطلعي من المخروبة دي؟، على إيه يا اختي معرفش!

_ قلبي مقبوض من ساعة ما شُفنا الراجل والست اللّي جت معاه أول مرة، وكانت عمّالة تقلّب فينا، وشوية يخدونا على كشف طبّي، ولا كإننا هنشتغل في السفارة!

ـ أي حد طبيعي يعمل كده عشان يتأكّد إن مفيش مرض مُعدي عند اللّي هيشغّلهم، بطّلي بقى، إنتِ أصلك مش وش نعمة، خلينا نطلع ونشوف الدنيا، نفسنا نعيش شوية.

شدّت على يدها، تُوصيها بخوف:

ـ إوعي مهما حصل تخلّي أي حاجة تفرّقنا يا سميحة.

ضمّتها إلى صدرها؛ تُطمئنها:

ـ مفيش حاجة في الدنيا هتفرّقنا عن بعض، وإوعي تخافي من موضوع الشغل ده، طول ما احنا سوا مفيش حاجة تخوّف.

كانت تلك هي ضمة البراءة الأخيرة التي جمعتهما، وتلك آخر ضحكات قبل أن يقعا في الفخ، ويكتشفا أن قلب فاتن تنبأ بالخطر، وياليتهما استجابتا لندائه قبل فوات الأوان.

فتحت عينيها، تشعر أنّ روحها على وشك الخروج، بدأت تُرفرف بيديها حتى أمسكت طرف الحوض، ورفعت جسدها لتُخرج رأسها من الماء، جلست تشهق وتزفر بعنف، أبعدت خُصلات شعرها المُلتصقة بوجهها للخلف. مازال هناك بصيص أملٍ يبرق من بعيد، ستُقابل «صبا» غدًا لا يهم إن كانت فاقدةً للذاكرة، ستُساعدها حتى تصل لفاتن. استرعى انتباهها صوت ارتطام شيء بالبهو؛ فخرجت من حوض الاستحمام، تناولت المنشفة ووضعتها على كتفيها، ثم اتّجهت نحو مصدر الصوت في توجس، ضغطت زر الإنارة فوجدت مزهرية مكسورة على الأرض، جلست القُرفصاء وبدأت تُلملم قطع الخزف المُتناثرة، لمحت ظِلًّا يتّجهُ نحو المطبخ فأمسكت قطعة حادة

من بقايا المزهرية، ووقفت فَزِعَةً تسأل بصوتٍ مُرتعش تُحاول أن تُكسبه القوة «مـ.. مين هنا؟!»

اقتربت من المطبخ بخوف فسَمِعَت وقع أقدام خلفها، التفتت بفزع؛ لتجده واقفًا أمامها، ارتجف جسدها، حاولت أن تُخفي خوفها سائلَةً:

ـ إنت دخلت هنا ازّاي!؟

أدخل يديه في جيبَيْ سترته، وهو يرد بهدوءٍ مُستفزٍّ، وابتسامة صفراء:

ـ جرى إيه يا «سالي» ولا نقول«سميحة»؟ إنتِ نسيتي إن ده بيتي واللّا إيه!

اقتربت منه والشرر يتطاير من عينيها، كانت على وشك أن تهجم عليه وتطعنه بقطعة الخزف في صدره أو تغرزها في عنقه، ولكن انتهت هذه السيناريوهات بمجرد أن أمسكها أحدهم من الخلف، ثنى ذراعها بقوةٍ فتأوّهت، اقترب منها وتناول قطعة الخزف من يدها، نظر لها قائلًا:

ـ توأ.. توأ.. معقولة يا سميحة عاوزه تعُضّي الإيد اللّي اتمدتلك!؟

بصقت في وجهه، ضحك وهو يمسح وجهه بمنديلٍ ورقي ثم صفعها، تَبِعَ صفعته بلكمتين قويتين؛ فطفق الدم يسيلُ من فمها وأنفها، زاغ بصرها فلم يُمهلها الفرصة للتأوّه، لكمها في بطنها فشعرت أن أمعاءها ستتدلى من فمها، وقعت أرضًا بعد أن ترك

الرجل يدها، نامت بالأرض مُتّخذةً وضع الجنين، تُمسك بطنها وتتلوّى من الألم، رفعها من شعرها وهو يهدر بغضب:

_ غلطاتك كترت يا سميحة، وإحنا اللّي يغلط معانا يبقى كتب نهايته بإيديه.

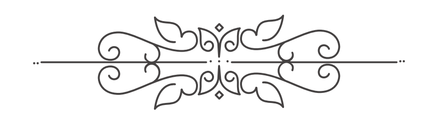
شدّ قبضته؛ فصرخت من الألم، نظر للواقفين قائلًا:

_ شوفوا شغلكم.

لا تذكر تحديدًا عددَ من لمحتهم واقفين ربما خمسة أو ستة لا يهم الآن فلتُركّز في الألم الذي ينخر عظامها، تأتيها الضربات واللّكمات من كل صوب وحدب، تشعر بالدم يسيل ولا تعرف مصدره فكل منطقة فيٍ جسدها تُؤلمها وتلسعها، يتلقّفونها ككُرة يلهون بها ويتقاذفها كلٌّ منهم ليأخذ دوره من اللكمات. أحدهم رفعها وألقى بها فطارت في الهواء لتسقط على منضدة زجاجية تهشّمت كعظامها وبدأ الزجاج المُتناثر ينغرز في لحمها، لم تعد قادرة حتى على لفظ «آه»، توالت الضربات حتى أصبحت لا تشعر بشيء. سال الدم من رأسها لعينيها فنزلت غلالة حمراء ثقيلة شوّشت رؤيتها، طعم الدم في فمها ورائحة الموت تحوم حولها، تسمع طنينًا لا يتوقّف. اختفى الطنين ولم تعد تسمع سوى صوت «فاتن» تُغنّي «بقي هي الدنيا كده؟ بقى همَّا الناس كده؟ يا خسارة فرحتي، يا خسارة ضحكتي، يا مين ياخدني تاني يرجّعني لدُنيتي؟!». شعرت بيدها تَشُدّ على كفّها وتُوصيها «إوعي مهما حصل تخلّي أي حاجة تفرّقنا يا سميحة». أسبلت جفنيها في هدوءٍ واستسلام لغفوة لا تعلم كم مُدّتها، استيقظت منها نصف واعية، انعدمت رؤيتها لكنّها تشعر بنسمات هواءٍ باردةٍ تُصافح

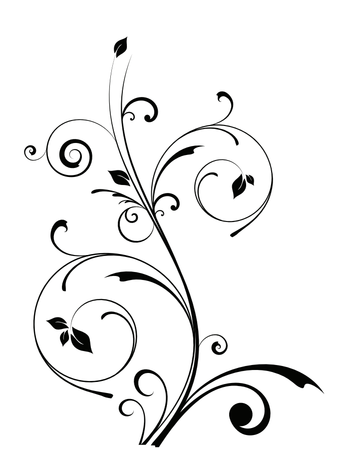
وجهها وجسدها، نسماتٌ تُحاول تطبيب جراحها، ترى الآن صورتها طفلة تجري وتلهو بضفائرها، ترى كل لحظة جمعتها برفيقة عمرها فابتسمت رغم الألم. تشعر أنّها طائر يُحلق في الهواء، أيُعقل أنّها ماتت وها هي روحها تطير مُحلّقة نحو السماء؟! لكن لمَ الهواء يجذبها بقوة لأسفل؟! حاولت فتح عينيها المُتورّمتين فلم تَجد سوى الظلام، وهناك أضواء تلمع بالأسفل كألسنة لهب؛ فحدّثتها نفسها «يا إلهي، هل مُتُّ وأنا الآن في طريقي لجهنّم؟!». تسمع صفيرًا قويًّا في أذنها، يزداد مع سقوطها، صوت ارتطام قوي ثم بعدها لم تعد تسمع أو تشعر، سكن كل شيء.

نظر من الشُّرفة لجسدها المُتهشّم بالأسفل، وبرْكة دماء تُحيط به، تناول هاتفها وعبث بأزراره حتى وجد آخر رقم تحدّثت إليه «مدام «صبا»، كتب رسالة للرقم، ضغط زر الإرسال قبل أن يكسر الخط ويُغادر الشقة مع رجاله..



فتاةٌ ينبت من جراحها الزهرُ.. ولكنّها مسكينة، قدرها أن تقطنَ في مدينة تعشق رؤية الأزهار..!

ندا سليمان



جالسة قرب النافذة، تُشاهد الحُرّاس المنتشرين في كل مكان، في السابق كانت الأسوار عالية، ورغم ذلك استطاعت التحليق بأحلامها، أمّا الآن فصارت الأحلام مهيضة الجناح لا ملجأ لها سوى هذا القفص اللّعين. جاءها صوت مُشرفتهن آمرًا بأن يستعدّوا لحفل ضخم سيُقام غدًا، سيحضره كبار رجال الأعمال، ولا مجال للخطأ فيه. كَم تشتاق الآن لصوت «أبله محاسن» صارخةً فيهن آمرةً أن يُرتّبوا غُرفهن. كانت حانقة وقتها، والآن تتمنى لو تعود هذه الأيام، على استعدادٍ تامٍّ أن تتحمل صوت «أبله محاسن» الغليظ ليلًا ونهارًا، أن تُنظف المَلجأ كل يوم على ألَّا تبيت ليلة أخرى في هذا المكان. عادت تنظر من النافذة شاردةَ الذهن، وكأنّها لم تسمع شيئًا، أمّا عن زميلاتها فقد بلغ اليأس مبلغه منهن، استسلمن للأمر الواقع وطفقت كلٌّ منهن تعد عدتها وزينتها للحفل، حتى «سميحة» اقتربت تسألها أي فستان ترتدي غدًا؟ نظرت لها شذرًا ثم أشاحت بصرها عنها، فزفرت الأخرى ووقفت جانبها تُحاول ترتيب كلامها، ينفرج ثغرها ثم ينغلق، الكلام عالق في حلقها حتى كسرت هي حاجز الصمت قائلةً، ومازال بصرها مُثبّتٌ في الفراغ:

ـ بتجهزي نفسك وتستعدي، إيه بقيتي خلاص زيهم؟ اليأس نسّاكِ إننا مش كده، ولا عمرنا هنكون بالشكل ده!

ـ هه! ولا عمرنا؟! لأ يا حبيبتي، ما إحنا خلاص بقينا كده بالفعل، فوقي بقى دي بقت حياتنا الجديدة، ومفيش مفر منها.

التفتت إليها وقد احتقن وجهها من الغضب، هاتفةً بحِدة:

ـ إذا كنتِ خلاص رضيتي تعيشي في الوحل ويّاهم؛ فأنا مش هقبل بكده أبدًا، وهحاول وأعافر لحد ما أموت.

أجابت وقد لاحت على شفتيها ابتسامة سخرية:

ـ على أساس عندك حرية الاختيار! اللّي زيّنا خرجوا من سجن لسجن أكبر منه، إحنا بالنسبة ليهم مجرد «نملة» دوسة واحدة تحت رجلهم وانتهت حياتنا، إحنا مش قدهم، كفاية عناد بقى، حرام عليكِ، كل ما تتعاقبي قلبي بيتقطّع عليكِ، عارفة إن نفسك طويل، ومابتيأسيش، بس همَّا كمان نفسهم طويل أوي، ومش هيسيبوكِ، وبعدين لو هربتي قوليلي كده هتخرجي تعيشي في المجتمع المقرف ده ازّاي!؟ وهتعيشي منين؟

ـ مش خايفة، ولا حاملة هَم حاجة، ليّا رب كريم، الكون كله ملكه مش ملكهم، أنا اشتكيتله وواثقة إنّه هينجيني، أنا عارفه إن ربنا بيختبر صبري، وأنا قدّها، هصبر للآخر، مش هستسلم زيكم.

نهضت سميحة مُبتعدةً عنها ناظرةً لها بإشفاق، رغم ما حدث مازالت هي الفتاة الحالمة العنيدة،لم تتغير وربما يُكلّفها هذا العِناد حياتها..

كلمة «حفلة» في مفهومها تعني أنّ جسدها غدًا سيكون ملكية عامة، تُدنّسه أياديهم العابثة؛ لذا هرعت لله ساجدةً. لم تنم تلك الليلة، ظلّت تُصلّي وتتضرع إلى الله أن يُنجيها ويُعجّل بالفرج، رغم ما حدث؛ ثقتُها بربّها لم تهتز، ويقينهالم يتزعزع. قذف الله الطمأنينة في قلبها، لأول مرة مذ خرجت من الملجأ تنام آمنةً مُطمئنّة.

مرّت ساعات النهار من اليوم التالي سريعًا، وأتى موعد الحفل.

كُلُّهن مشغولات بالاستعداد إلَّا هي، تجلس أمام نفس النافذة تتأمل السماء، وقد أُسدلت الستائر السوداء المُرصعة بالنجوم عليها، دخلت المُشرفة فوجدتهُنّ جاهزات إلَّا هي، أمرتهُنّ بالانتظار في الأسفل، خرجن من الغرفة، فاقتربت وجلست جانبها قائلةً:

_ ماجهزتيش ليه يا ريفيرا؟!

نظرت لها بحِدة:

_ اسمي فاتن، أنا مش ريفيرا.

_ فاتن دي البنت اللّي كانت في الملجأ، دلوقتي إنتِ مش فاتن، اسمك بقى ريفيرا.

_ وإنتِ بقى جابوكِ من أنهي ملجأ؟ وياترى اسمك كان إيه زمان؟

نظرت إليها مشدوهة، لامست «فاتن» جُرحًا قديمًا جاهدت في إخفائه بين حنايا قلبها:

_ تعرفي إنك بتفكريني بيَّا زمان؟ أنا كان جسمي كله متخرشم من التعذيب زي حلاتك، بس في النهاية عقلت.

_ قصدك تقولي استسلمت، أنا يمكن بفكرك بالتعذيب، لكن ما أظنش هكون زيك في الاستسلام!

_ يعني هتعملي إيه مثلًا؟! مفيش في إيديك حاجة تعمليها، خلاص بقى أمر واقع في حياتك، كفاية بقى وبطّلي تعافري، استسلمي عشان مهما عافرتي مش هتعملي أي حاجة، هتفضلي واقفة في مكانك، يلّا قومي اجهزي عشان العربيات جت تحت.

ـ ما إنتِ لسه قايلة جسمي متخرشم من التعذيب، مش هقدر أروح.

ـ بس وشّك مفهوش خدش، قومي يلّا.

التمعت عيناها، فزفرت الأخرى بعنف، وقالت:

ـ خلّصيني بقى، أنا لو بحايل عيّل صغير كنت خلِصت، قومي.

اتجهت نحو الخزانة، قلّبت الفساتين، ثم قالت:

ـ كلهم قصيرين، هجيبلك واحد طويل من عندي عشان يداري الجرح اللّي في رجلك، يلّا اتحركي.

خرجت تُحضر الفستان، ونظرت هي للسماء، ففاضت عيناها بالدمع، ودقات قلبها تُتمتم «يا رب».

تقف أمام المرآة، تتأمل جسدها المستور بقطعة قماش سوداء طويلة لامعة مشقوقة الجانب الأيسر، تلتصق بجسدها تكاد تلتحم مع جلدها، تفضح أكثر مما تستر، ويُسمُّونها فستانًا! تُمرر يديها على شعرها، وتتذكر حجابها فاقشعرّ بدنها، اقتربت المرأة هاتفةً بحِدة:

ـ ارحمي نفسك شوية، عينيك ووشك دبلوا من كتر العياط، يلّا حُطي حاجة على وشك عشان اتأخرنا، كلهم مشيوا وأنا قاعدة هنا أحايل في سيادتك.

ظلّت واجمةً تنظر للمرآة ولا تُحرك ساكنًا، فتناولت المرأة قلم حُمرة وصبغت به شفتيها، والأخرى مازالت مُستسلمة، لا تقوَ حتى على الاعتراض. جذبتها من ذراعها، وسارت نحو السيارة التي انطلقت بهما سريعًا إلى الحفل.

***

تجلسُ مُنزويةً في ركن بعيد، تُتابع الحفل بعيون زائغة، منذ أن حضرت وهي تصدُّ هذا وتُبعدُ ذاك، حتى أتاها نذيرٌ ووعيد، طافت عيناها بالمكان بحثًا عن رفيقتها؛ علّ وحشةَ قلبها تزول، لمحتها ترقص وتتمايل بغنج أمام أحد الحضور؛ فازدادت وحشتها، وتقلّصت معدتها وهي تتابع الوجوه من حولها، تشعر بالغثيان، رائحة الخمر التي يعبق بها المكان تُثيرُ معدتها وتدفعها للتقيؤ، كممت فاهَا بكفّها، وركضت نحو المرحاض، أفرغت ما بمعدتها ثم جلست تسترد أنفاسها قليلًا، غسلت وجهها وخرجت بهدوء إلى الحديقة، انزوت بعيدًا عن اللّاهين، وجلست على الأرض تُقاوم دُوّارًا داهمها. نظرت للسماء مُغرورقة العينين ففاجأها وميضُ آذى عينيها، أغمضتهما سريعًا ثم فتحتهما بهدوء تنظر لهذا الواقف أمامها يُمسك بـ «الكاميرا»، ويُحاول التقاط صورةٍ أخرى لها، فهتفت بغضب:

ـ إنت مين قالك إني عاوزه أتنيل أتصور!؟

ـ الصورة الحلوة هي اللّي بتيجي على سهوة من غير ما نرتبلها، وفي الغالب مابنكونش عاوزين نتصورها في الوقت ده.

ـ يلّا من هنا، عندك أهه حفلة فيها أشكال وألوان، صوّر على غفلة براحتك بعيد عنّي.

جلس جانبها، وكأنّها لم تطلب منه الرحيل للتوّ، فرفعت حاجبها الأيسر قائلةً:

ـ إنت مابتسمعش!

ـ أصلي بصراحة لفّيت الحفلة كلها، وصوّرت أشكال تجيب الهم، لحد ما عيني وقعت على بدر سَابِ السما وقعد ع الأرض، عوزاني بقى أبقى أهبل، وأسيبه وأقوم؟!



_ بقولك إيه يا ظريف، أنا الكلام ده مابيمشيش معايا، اتفضل يلّا من هنا، قلّب عيشك في حتة تانية.

_ قلّب عيشك! أعوذ بالله، اللّي يسمع كلامك مايقولش إن ده لسان واحدة بالجمال والدلال والرقة، والفستان اللّي هياكل من عليها حتة ده!

قال جملته غامزًا، وهو يُطالع جسدها، فبدأت تشد أطراف الفستان بارتباكٍ لتستر العاري منه، ثم نظرت له مُحتقنة الوجه، وصاحت زاعقة:

_ إنت قليل الأدب، ومش محترم، إنت وأهلـ..

_ لااا.. عند أهلي خط أحمر، لا مؤاخذة يا ذات الخمارِ الأسودِ نسيت إنك متوضية! جرا إيه يا حلوة إنتِ هتشتغليني؟ جاية هنا باللبس ده تصلّي العشا مثلًا! ما إنت واحدة منهم واللّا إيه؟

نظرت له مُتّسعة العينين، بدأت الدموع تلتمع في عينيها، فأخفضتهما في خجلٍ، وهي تُتمتم بحروفٍ مُتلعثمة:

_ أنا كنت أ.. عـ.. عندك حق!

أشاحت بصرها عنه، ورغمًا عنها فاضت عيناها، حاولت أن تكتم صوت بكائها، فَعَلَا نحيبُها، لانت ملامحه، وهو يُناولها مِنديلًا ورقيًّا، ويقول بحنوٍّ:

_ أنا آسف إني قسيت عليكِ في الكلام، أنا على فكرة لاحظت من وقت ما دخلتي إنك لا تنتمي لمكان قذر زي ده، بس قلت كده عشان أستفزّك، وأتأكد من شكوكي، وصراحة عندي فضول أعرف

إيه اللّي رماكِ الرمية المهببة دي؟ شكلك بنت ناس ملكيش في العك اللّي بيحصل ده!

قالت بصوتٍ مُتهدج:

_ لمّا إنت عارف إنه مكان قذر، إيه اللّي جابك هنا!؟

_ أكل العيش بقى، والله أعلم يمكن ربنا بعتني عشانك.

عقدت حاجبيها، ثم سألت بصوتٍ باكٍ يُخالطه بصيص أمل:

_ هو إنت تقدر تساعدني أهرب من هنا؟

_ مش أعرف حكايتك الأول؟

أجابت لاهثة:

_ بص أنا وباقي البنات دول مش كده، أنا ماعرفش حكاياتهم كلهم، لكن اللّي أعرفه حكاية كام بنت كده وحكايتي أنا وأختي «سميحة»، اتربينا سوا في الملجأ، وجُمْ خدونا على إنهم هيشغلونا في مصنع، وطلع كل ده كدب، جابونا عشـ... عشان..

ابتلعت ريقها، ونظرت بالأرض؛ فسأل:

_ همَّا مين بقى؟

_ همَّا اللـ .. وإنت بتسأل ومهتم أوي كده ليه؟!

_ عادي يعني مجرد فضول، وبعدين ممكن لمّا أعرف أساعد باقي صحابك مش إنتِ بس.

_ أنا أعرف أسامي وحاجات تودّي في داهية، هقولك على كل حاجة أعرفها، بس تخرجني من هنا الأول.

_ أيوه بس إنّي أهربك من هنا دلوقتي صعب جدًّا.

سمعا صوتًا من خلفهما يسأل:

_ أقدر أساعدكم؟

التفتا نحو الصوتِ بذعر، نظر لفاتن بتوجسٍ فتنفّست الصعداء وهي تُطمئنه:

_ ماتقلقش، دي أختي اللّي لسه قايلة عليها.

جلست «سميحة» جانبهما قائلةً:

_ إنت شكلك طيب وابن بلد، أبوس إيديك هرّبها من هنا، مش مهم تلحق باقي البنات، ولا حتى أنا، خلاص رضينا بالأمر الواقع، لكن هي قلبي واجعني عليها، عنادها ووقوفها قصادهم هيتسبب في موتها، وأنا لو حصلتلها حاجة هروح فيها.

_ ماتقلقيش، كلكم إن شاء الله هتخرجوا من هنا، بس دلوقتي صعب جدًّا.

_ أنا ممكن أساعدكم.

_ إزاي؟

_ هعمل نفسي بهرب وألّهي الحراس، لحد ما إنت وهي تهربوا.

_ صباح الخير بالليل، دي حركة اتهرست في ٦٠٠ فيلم قبل كده، أبسط حاجة هيعملوها يبعتوا نفر واحد بس من الشُّحُطه المرصوصين في كل حتة دول يجيبك من قفاكِ، ههربها بس مش النهارده.

لاحظ أن هناك امرأة تراقبهم من بعيد، فهمس «فيه واحدة واقفة بعيدع اليمين، بقالها كتير بتراقبنا، اعملوا نفسكم بتتصوروا مع بعض

بسرعة». فعلتا ما طلبه منهما، ثم اقتربت سميحة منه لمّا لمحت المشرفة، تُمثّلُ أنّها تهمس في أذنه، وتضحك في دلالٍ بصوتٍ عالٍ تسمعه حتى رحلت، اقترب من «فاتن».

عرض بعض الصور عليها، وطلب منها أن تُشير للرجل الذي أخرجهما من الملجأ، وبحوزته باقي الفتيات، أشارت إليه فتمتم «البنداري! كده اللعب احْلوّ أوي»، سأل عن عنوان سكنهما ولأنهما لا تعرفان المكان؛ فقد حاولت «فاتن» أن تصفه أو تذكر شيئًا مميزًا رأته.

_ تمام، يلّا بقى ابعدوا عن هنا؛ عشان شكلنا كده بقى مُثير للشكوك.

تأبّطت سميحة ذراع أختها، وقبل أن ترحلا التفتت «فاتن»، وشدّت على يده؛ فانتفض جسده وكأنه لمس سلك كهرباء عارٍ، سألت برجاء:

_ إنت هتهرّبني من هنا، صح؟

غرق في بساتين عينيها الخضراوين، تلعثم ولم تُسعفه الكلمات ليُجيب؛ فأومأ.

_ وعد؟

أجاب باسمًا «وعد».

تركت يده، وودّعته بابتسامة امتنان صافية، ينظر ليده الفارغة ويشعر أن يدها مازالت تملأ فراغها، دقّات قلبه تعزف لحنًا لم يسمعه منها من قبل، فابتسم وتمتم «وعد، إني هعمل المستحيل عشان أنقذك».



وسارت هي جانب سميحة باسمة الوجه، تنظر للسماء مُتمتمة «شكرًا، بحبك أوي يا رب».

***

مرّ أسبوعان وهي تنتظر، تشكو وسادتها كلَّ ليلة من دموعها التي أغرقت جنبيها، اقتربت منها رفيقة دربها، لامست جبهتها لتتفقد حرارتها، تنفّست الصعداء مُتمتمةً «الحمد لله؛ حرارتك انخفضت». تُربت على كتفها، وتُرسلُ أناملها لتمسح الدموع عن وجنتيها قائلةً:

_ كفاية بقى عشان خاطري.

_ طيب تفتكري هو اتأخر ليه كل ده!؟

_ إنتِ لسه مافقدتيش الأمل! مش هييجي يا حبيبتي، دول كانوا كلمتين بياخدنا على قد عقلنا بيهم وخلاص.

التفتت إليها قائلةً:

_ لأ. مش كلمتين وخلاص، صدقيني والله، أنا شفت الصدق في عيونه وهو بيقولي «وعد».

لم تُرد إخماد جذوة الأمل التي منّ الله بها عليها وجعلها تنجو من الحُمّى، وتحيا لهذه الليلة؛ فغيّرت دفّة الحديث:

_ فاكره لما كنت بضفرلك شعرك؟

ابتسمت «فاتن» بوهن، فنهضت الثانية وأحضرت مشطًا، أجلستها وجلست في مواجهة شعرها، بدأت تُمشّطه لها وَتُغني بصوتٍ متهدج «بقى هي الدنيا كده؟ بقى هم الناس كده؟! لترد «فاتن» بصوتٍ واهن «يا خسارة فرحتي، يا خسارة ضحكتي، يا مين ياخدني تاني، يرجّعني لدنيتي»

توقفتا عن الغناء حينما بدأت الذكريات تتدفق أمام ناظريهما، فألجمت الدموع لسانَيْهما، وتسلّمت دفّة الحديث، نطقت الدموع بما عجز اللسان عن البوح به، صرخت بما يُدمي قلبيهما، أراحت «فاتن» ظهرها المكسور في صدر «سميحة»، فعانقتها الأخرى واحتوت جسدها الواهن بين ذراعيها، وصوت نحيبهما يُزلزِلُ سكون الليل.

وفي اليوم التالي، تحسّنت صحة «فاتن»، عادت علاقتها بـ «سميحة» كما كانت بعدما توتّرت منذ مجيئهما إلى هذا المكان. دخلت المشرفة للغرفة تطلب منهن أن يرتدين ملابسهن، وينزلن معها أسفل؛ فهناك من سيختار واحدةً من بينهن، تركتهن «فاتن» مُتّجهةً نحو فراشها، فأوقفتها المرأة قائلةً:

ـ الكلام ليكِ إنتِ كمان يا سنيورة.

ردّت سميحة:

ـ بس دي لسه فايقة من الحُمّى النهارده!

ـ مش خلاص فاقت، وبقى فيها النَّفَس!؟ أوامر الباشا كل البنات تنزل، وهي أوّلهم، وياريت ماترُدّيش عنها تاني، هي فيها لسان، ماتوديش نفسك في داهية يا سالي.

قالت جملتها وخرجت، فنظرت فاتن لسميحة بخوفٍ تستنجد بها، طمئنتها أنّ المرض ترك بصمته على وجهها، مازال ذابلًا، ولا تظن أن يختارها ذلك الرجل، هبطن في طابور، ووقفن أمامه يتفحصهن بنظراتٍ وقحة، كم تشعر بالهوان بوقوفها هكذا! وكأنها في زمن الجاهلية تقفُ في سوق النخاسة، انتشلها من شرودها لكزة من «سميحة»؛ لتكتشف أنهم ينادون اسمها الجديد ولم ترد، جذبتها

المشرفة بعيدًا عن الصف، فنظرت لرفيقتها وقد ارتسمت قسمات الرعب على وجهها، فهتفت سميحة دون تفكير:

_ أنفع أنا مكانها يا باشا؟

رمقها الرجل بغضبٍ، ثم نظر للمُشرفة، فاعتذرت وعادت تنظر لها والشرر يتطاير من ًعينيها، أمرت الفتيات بالصعود لغرفهن، واقتربت من سميحة هامسةً «حذرتك يا سالي، وماسمعتيش الكلام اشربي بقى». شيّعتهُنّ فاتن وهن راحلات بعيونٍ زائغة، ثم عادت تنظر لهما وقد غشيها الوجوم، سمعتهما يتحدثان:

_ اخترت أشرس وأعنَدْ واحدة، استحمل بقى.

ضحك الرجل قائلًا:

_ وأنا أحب القطط اللّي تخربش أوي، ومستعد أدفع اللّي تطلبه.

_ لا.. لا، اعتبر المرة دي عربون صداقة جديدة بينا، بس خد بالك لازم تعرف إن إنت كده غالي عندي أوي، أنا عمري ماعملتها وطلّعت بنت من دول بره الفيلا غير معايا، بس عشان خاطرك هتنازل عن المبدأ ده، لحظة واحدة بس، أخليهم يجهّزوها.

_ لا.. لا، أنا عاوزها كده، عندي دولاب مليان هدوم، حابب أشوفهم عليها.

أشار لأحد رجاله؛ فأحضر رجلَيْ حراسة.

_ دول معاكم لحظة بلحظة، عشان يرجّعوا البنت هنا من غير ما يتعبوك.

_ ولو إنه ملوش لزوم، بس معنديش مانع.

سحبها الرجلان إلى السيارة، ومازالت واجمةً مُرتجفة، تشعر أنّها في عالم آخر، آثار الحُمَّى تسكن جسدها، تسمع الأصوات غير واضحةً كحبيسة غرفةٍ من زجاج. أغمضت عينيها فرأت وجهه أمامها، سمعته يهمس في أذنها «وعد»؛ فانسابت دموعها وجذوة الأمل بدأت تنطفيء داخلها، توقّفت السيارة أمام بيتٍ لا يقل ثراءً عن الذي أتت منه، هبطت من السيارة مُحاطة بنفس الرجلين، وعند باب البيت أوقفهما صاحبه، وأمرهما بالانتظار خارج البيت، ثم نظر لها قائلًا: «اتفضلي». لم تتحرك؛ فجذبها من ذراعها للداخل، وأغلق الباب ثم صعد بها لغرفةٍ بالطابق الثاني، استفاقت من وجومها لتجد نفسها في غرفة وحدها مع هذا الرجل. نظرت حولها فلمحت مزهرية زجاجية وُضعت على طاولة صغيرة في ركن الغرفة، نظرت له بتوجّس وهو يُولّيها ظهره ويُغلق الباب، ركضت نحو المزهرية، وحملتها بيدين مُرتعشتين، استجمعت قوتها ورفعتها استعدادًا لأن تهوي بها على رأسه.



ما أغلق الله على عبدٍ بابًا بحكمته؛ إلا وفتح له بابَيْن برحمته.

ابن القيم



تسيرُ في ليلة حالكة، السماء خالية من نجومها، وقمرها محاقٌ، تستكشف المكان حولها ولا تعرف أين هي! تأمّلت الأشجار المُتراصّة المُتلاصقة، ترى أغصانها المُتشابكة وكأن كل شجرة تمد ذراعها لأختها بحثًا عن الدفء والأمان في هذا المكان المُوحش. الصمت يحفُّ المكان إلا من صوت رياح كعويلِ الأيامى، تسير في خوفٍ على غيرِ هدى. فجأةً، ظهر من العَدم ظِلُّ رجل رغم الظلام تبيّنت أنّه المُخيف الذي يُطاردها في أحلامها، نشب الرعب أسنانه في عُنقها، وبدأ يُرسل كُرات الثلج لتُجمّد عمودها الفقري، وتَشُلّ حركتها. اقترب منها خُطوة، فعادت للخلف خُطوات، ثم بدأ ساقاها يُسابقان الريح مُبتعدةً عنه. لم تجرُؤ على النظر خلفها، اكتفت بسماعها لصوت قدميه تدُكّان الأوراق الذابلة وهو يركض خلفها، تجري بكل ما أوتيت من قوة، وقفت لاهثةً، نظرت خلفها فلم تجده، اختفى فجأة كما ظهر. بدأت تُفنّد المكان بعينيها في خوفٍ، وتلتفّ حول نفسها، اختبأت لاهثةً خلف إحدى الأشجار الضخمة. فجأةً، شعرت بأنفاسٍ حارّة تلفح رقبتها، ارتجف جسدها ودون أن تلتفت له سألت بصوتٍ مُرتعش «إ..إنت عاوز مِنّي إيه؟»، لم يُجبها بلسانه بل بطعنةٍ من خنجرٍ غرسه في قلبها، سقطت أرضًا، وبدأت تغيب عن الوعي، ولكنّ أُذنها التقطت صراخ طفل قادم من بعيد، تغيب عن الوعي، والصوت يزداد قوةً حتى فتحت عينيها؛ لتجد «زينة» تصرخ في مهدها، حاولت أن تنهض فباغتتها الألم، وكأنّ خنجر الكابوس مازال مغروسًا في قلبها. وضعت يدها موضع الألم مُتأوّهةً ثم تناست ألمها ونهضت مُسرعةً تجاه «زينة»، حملتها بين ذراعيها،

جلست على سريرها وأراحتها على قدميها ثم ألقمتها ثديها مُتأمّلة إبداع خلق الله في هذا الكائن الصغير، لثّمت وجنتها ومسحت على شعرها بحنان، شردت في كابوسها فشعُرَت بوخزةٍ في قلبها، تفتقد حضن «مازن» الذي كان ينتشلها من ألمها، ويبث في قلبها الأمان حينما تستيقظ مفزوعة من كوابيسها، تذكّرت شجارهما، تلك هي المرة الأولى التي يتشاجران فيها ويستمر شجارهما لثلاثة أيامٍ، حدث ذلك في اليوم التالي لعودتهم من الإسكندرية، كانت جالسةً تتصفّح إحدى المجلّات وهو يقرأ الجريدة جانبها، أتاه اتصال فترك الجريدة على المنضدة المُقابلة للأريكة وتحدّث بالهاتف، استرعى انتباهها عنوانٌ كُتب بخطٍ أحمر عريضٍ أعلى صفحة الجريدة، تركت المجلة وتناولت الجريدةً «انتحار راًقصة الخمس نجوم بالإسكندرية». جحظت عيناها وهي ترى صورة «سميحة» مُرفقة بالخبر، أسرعت عيناها تلتهم السطور، توقّفت عند «ولكنِ الطبيب الجنائيّ له رأي آخر، يظن أنّها ليست حادثة انتحار، بل قتلٌ عمدٌ مع سبق الإصرار والترصّد، وصرّح أن السبب في ظنونه وجود كدمات وآثار عنف على جثمان الضحية..». لم تُكمل، زاغ بصرها، ارتجف جسدها، فشعر «مازن» برجفتها، امتقع وجهها، فأنهى المكالمة، وسأل بخوف:

_ مالك يا «صبا»؟!

لم تجبه، هي الآن تسمع في أذنيها صوت سميحة هامسةً «وهو لو كنت أقدر كان زماننا بنتكلم بصوت واطي كده زي الحرامية!». نظرت مرة أخرى للسطر الذي كانت تقرؤه وربطت هذه الأحداث برسالة سميحة الأخيرة لها، وقعت الجريدة من يدها، وبدأت جيوش

الصداع تزحف إلى رأسها مُمزّقةً كل عصب في طريقها بلا رحمة، ماجت بها الأرض ودارت، فأسندها مازن، سقاها كوب ماءٍ، وبدأ يُربت على ظهرها حتى هدأت، طفقت دموعها تسيل وتعود لجسدها رجفته، فتوسّدت صدره تُردد:

_ أنا خايفه أوي.

ضمّها بقوةٍ ليبث قلبَها الأمان، يسألها عن سبب خوفها، بدأت تهذي وتُغمغم، وهو يُحاول طمئنتها، مُحاولًا فهم ما حدث لها، ظلّت بين ذراعيه حتى هدأت، فرفع رأسها ثم أمسك كتفيها، وسأل:

_ ممكن بقى أفهم السبب في حالتك دي؟!

_ ممكن نأجّل الكلام في الموضوع ده؟

_ هو إنتِ لسه مش بتثقي فيّا يا «صبا»!؟

_ لأ طبعًا، إيه اللّي بتقوله ده! إنت أكتر شخص في الدنيا دي بثق فيه.

_ أمال إيه طيب؟! لازم أفهم، مش معقولة هنفضل بالشكل ده، كل ما أسألك مالك فيكِ إيه؟ تقولي كويسة، ممكن نأجل الكلام دلوقتي؟ هنأجل لحد إمتى فهّميني؟!

صمتت هُنيهة، تنهّدت ثم مالت بجذعها قليلًا، تناولت الجريدة الواقعة على الأرض، وأشهرت صفحة الخبر أمام عينيه، تناول الجريدة وقرأ الخبر، ثم سألها- مُتعجبًا- ما علاقتها به! قصت له ما حدث بينها وبين سميحة منذ أن رأتها في المرة الأولى وحتى يوم عودتهم للقاهرة، اعتدل في جلسته ولاح الغضب في عينيه، يسمعها مُحافظًا على صمته، فسألت:

_ ساكت ليه؟!

_ مش لاقي حاجة أقولهالك، وحقيقي احْترت.. مش عارف أعاتبك على إيه واللّا إيه!

نظرت للأرض في ندم، واعتذرت له، فلم يُجبها. فقط تركها في البهو وحدها وصعد لغرفته، نظرت للفراغ الذي كان يحتله منذ قليل؛ فانسابت دموعها، أكان ينقصها غضبه!

تبعته للغرفة، وحينما فتحت الباب تصنّع النوم؛ فاقتربت وجلست جانبه تعتذر في ندم، وتُبرر أنّها كانت تشعر بالحيرة والتّيه، اعتدل والتفت إليها قائلًا- بحِدة:

_ وهو كل اللّي بعمله ده ليه! مش عشان ما تحسيش لا بتوهه ولا حيرة! هتخبّي عنّي لحد إمتى؟ لحد ما تتأذي وما أقدرش ألحقك!

_ لأ ماتقلقش، مفيش حاجة هتحصل، خلاص عشان خاطري سامحني.

_ تمام، هسامحك بس ياريت تجهّزي الشنط عشان هنرجع على أول طيّارة رايحة لندن.

منذ أن عادوا من الإسكندرية ويريد العودة للندن، وهي تُماطله، ولكنّها صدمته الآن حين قالت: لن تغادر مصر، فسألها مُتعجبًا:

_ أنا بجد مش فاهمك يا «صبا»! إنتِ بتفكري في إيه؟ وناويه على إيه؟!

_ ولا حاجة، كل الحكاية إنّي عاوزه أعيش في مصر وخلاص، مليت من العيشة بره، أنا مش مبسوطة يا مازن، مابقتش أحس بسعادة ولا راحة.. غير وأنا في مصر وسط أهلي.

امتقع وجهه، شعرت أنّها جرحته؛ فتداركت الأمر قائلةً:

_ أنا قصدي، يعني إيه المشكلة إننا نعيش أنا وإنت وزينة هنا؟

انتفخت أوداجه قائلًا- في غضب:

_ المشكلة إنّي تعبت، قولتي عاوزه أستقر هناك وأبني حياة جديدة؛ نفّذت. وفي خلال شهر، كنت ناقل كل الشغل والتعاملات هناك، أنا صفّيت الشغل اللّي في مصر، عاوزه دلوقتي تقوليلي أرجع أستقر هنا! ده يبقى اسمه خراب ديار!

_ خلاص، وأنا ماقولتلكش تنقل كل شغلك، اشتغل هناك وابْقى تعالى أجازات ليّا أنا وزينة.

رمقها بنظرة لوم؛ فشعرت بحمق ما قالت للتوّ، وأنّها إن استمرّت ستجرحه أكثر؛ لذاً قررت أن تلوذ بالصمت، فتنهّد بحرقة، ثم قال بصوتٍ يملؤه الألم:

_ أنا عارف لو عليكِ أنا مش فارق معاكِ، ولا وجودي مهم، لكن للأسف أنا مقدرش أعيش لحظة لوحدي من غيرك إنتِ وزينة.

قال جملته، وولّاها ظهره تاركًا الغرفة، بل ترك البيت وعاد في منتصف الليل، شعرت به يُبدّل ملابسه، استعدت لتعتذر، ولكنّها فوجئت به يخرج من الغرفة، ويبيت بغرفة أخرى، استمر هكذا ليومين، واستيقظت اليوم باكرًا على صراخ زينة، فلم تجده جانبها، تلوم نفسها على تسرُّعها وجرحها له، عزمت أن تنهي الخصام الليلة. أراحت زينة في مهدها، ونهضت تُحضر دفترها لِتبَث فيه وجعها، وحينما فتحته وقعت منه ورقة، تناولتها فوجدت رقم ملك وعنوانها،

جلست على طرف سريرها تتأمل الورقة، وتسأل نفسها «هل ستصمد أمام إصرار مازن، وتتصل بملك لتبدأ مشوارها؟، أم أنّها ستنصاع لإلحاحه، وتسافر وكأن شيئًا لم يكن؟»

أخفت الورقة في طيّات الدفتر، حاولت النوم مرة أخرى، وبلا جدوى، فجلست تتنقل بين تصفُّح الإنترنت، قراءة الكتب أو تصفُّح برامج التلفاز المُملة حتى عاد مازن ليلًا، ودون أن يتفوّه بكلمة دخل إلى غرفته، وأغلق الباب خلفه. بكت زينة فأرضعتها وهدهدتها حتى نامت، وضعتها في مهدها، ثم هبطت للطابق الأسفل، وطفقت تقطع البهو جيئة وذهابًا، تخطو خطوة ناحية الغرفة وتعود للخلف ثلاثًا. شهقت بقوةٍ ثم بدأت تزفر بهدوءٍ، واتجهت ناحية الغرفة دون تردد، أمالت المقبض، فتحت الباب فوجدته نائمًا، دنت وجلست أرضًا بالقرب منه، لكزته بلطفٍ فلم يُجب، أعادت الكرّة دون جدوى، التمعت عيناها وهي تتمتم «أنا آسفة»، وجدت نفسها تتحدث، وكأنه مُستيقظ يسمعها:

_ أنا عارفة إنّي جرحتك، بس والله ما أقصد، أنا بجد تعبانة أوي يا مازن، ماكنتش عارفة أحدد إنت إيه بالنسبة ليّا، بس الأيام اللّي هجرتني فيها دي بينتلي إنك كل حاجة، حرماني من ضمّتك اللّي بتطمني لحظة ما أقوم مفزوعة من كوابيسي عرّفتني إنك أماني وحمايتي، أنا بحبك حب مختلف، بحسّك أب ليّا، أصل مفيش راجل هيصبر على واحدة زي ما إنت صبرت عليّا إلا لو كان أبوها، عارفة إنّي آذيت مشاعرك، وجيت عليك كتير، بس والله ما أقصد. إنت بالذات عمري ما هفكر أجرحك بقصد، أنا بس كان نفسي تتفهم

خوفي وضعفي المرّة دي، وتصبر عليّا للآخر، أنا عارفة إنك صاحي وسامعني أنا آسفة حقّك عليّا.

أنهت كلماتها، ثم نهضت، وهمّت بالخروج؛ فأمسك معصمها، توقّفت والتفتت إليه، اعتدل من نومته وجلس مُبتسمًا، قبّل راحة يدها فارتمت بين ذراعيه باكيةً تعتذر، ضمّها بقوةٍ وظلّ يربت على ظهرها ويُمسّد شعرها بحنان، قائلًا:

ـ إنتِ اللّي سامحيني، غضبي كان غصب عنّي، وكانت أنانية منّي، بس أوعدك مش هتتكرر تاني يا بنتي وحبيبتي وكل حياتي، أنا هنفّذ كل اللّي إنتِ عوزاه، هنقل كل حاجة لمصر، مش مهم عندي أخسر أي حاجة، المهم راحتك إنتِ وبس.

رفعت رأسها، مسحت دموعها، ثم ضمّت وجهه بين كفّيها قائلةً:

ـ لا يا حبيبي ماتنقلش أي حاجة، أو تتعب نفسك، همَّا شهرين بس وبعدها هرجع معاك، ونكمل حياتنا، ووعد مني مش هسمح لأي حاجة تعكّر علينا حياتنا تاني أبدًا.

ـ ليه شهرين؟ طيب ناوية على إيه!؟ فهّميني.

كانت على وشك أن تخبره بقراراها، لكنّها تراجعت قائلةً:

ـ مش ناوية أعمل حاجة، ولا هدخّل نفسي في مشاكل تاني، بس هستجم في مصر وأغيّر جو، وبعدها هرجع تاني، وإنت بلاش تعطّل نفسك، ممكن تباشر شغلك، وتبقى تجيلنا أجازات، ومش معنى كده إني مش عوزاك جنبي، إنت عارف كويس قد إيه بعاني في غيابك، لكن أنا قصدي بس لمدة شهرين، ودي مدة افتراضية ممكن

أبقى كويسة قبلها وأرجع، وماتقلقش.. كل حاجة هترجع طبيعية إن شاء الله.

ابتسم ابتسامة جزلة، ثم قبّل رأسها وأفسح لها مكانًا جانبه، تمددت فضمّها، وظلّ يمسح على شعرها؛ حتى استسلمت للنوم.

***

استيقظت باكرًا، ونظرت لزوجها النائم جانبها بحبٍّ، نهضت من الفراش بهدوء، صعدت لغرفتها وتفقّدت صغيرتها النائمة، طبعت قبلة على جبينها، ثم أخرجت الدفتر، فتحته وتناولت الورقة المُدوّن عليها رقم ملك، وعبثت بأزرار هاتفها، دوّنت الرقم ثم ضغطت زر الاتصال دون تردد، بعد ثوانٍ جاءها صوت ملك بتحية الإسلام، ردّت تحيتها ثم سألت «ملكً» من المُتّصل؟ لمّا أخبرتها أنّها «صبا» حيّتها بودٍّ، وفرحت لأنّها حسمت قراراها، وعادت مصر، اتفقا على أن تذهب «صبا» لزيارتها اليوم عند الرابعة، تفاجأت بمازن يضمّها من خصرها، سائلًا:

ـ مين دي بقى اللّي هتروحيلها الساعة أربعة!؟

حاولت السيطرة على توترها، ابتسمت ثم لفّت جسدها؛ لتُصبح في مقابلته، وقالت:

ـ هو إنت لازم كده كل شوية تفزعني! عمومًا يا سيدي لمّا كُنّا في رحلة تركيا اتعرفت على واحدة مصرية، إدتني رقمها وعنوانها؛ عشان أبقى أزورها يعني ونتواصل لمّا أرجع مصر.

انطلت عليه كذبتها هذه المرة كذلك، وأخبرها أن لا مانع لديه، وسيوصلها لبيت صديقتها وقتما تشاء.

***

تلاقا عقربا الساعة، وتعانقا عند الرابعة، وصبا تهبط الدَّرج حاملة زينة بين ذراعيها، وتتجه نحو السيارة حيث ينتظرها زوجها، اتصلت بملك حينما وصلت للعنوان المُدوّن بالورقة؛ فأخبرتها أنّها بانتظارها في شقتها، ودّعت زوجها ثم صعدت للشقة المنشودة، تعانقا بودٍّ ثم جلستا ببهو البيت، جلست «ملك» جانبها، وعادت تُرحّب بها، وتسألها عن أحوالها، حتى سألتها «صبا» عن ياسمين وزوجها؛ فأجابت:

ـ كان نفسي تكلميني أول امبارح، كنتِ هتلحقيهم قبل ما يسافروا.

شعرت بخيبة الأمل تُخيّم على قلبها؛ فطمأنتها ملك قائلةً:

ـ بس ما تقلقيش هم ماسافروش بره مصر، راحوا يصيّفوا في شرم، وكلها أسبوع- إن شاء الله- ويكونوا هنا، أنا حكتلها كل حاجة عن مقابلتنا، وعن اللّي حكيتيه، فِرْحت إنها- أخيرًا- عرفت عنك حاجة، وزعلت جدًّا عشان اللّي حصلك، حتى اتكلمت مع زوجها وطمّنها إن رجوع الذاكرة في الحالة دي- بإذن الله- يكون سهل؛ ما تقلقيش.

اطمئن قلبها، وبدأ الأمل يتسرّب إلى شرايينها من جديد، تطرقوا للحديث عن المعيشة والأولاد وتربيتهم، ثم عادت «صبا» لبيتها شاعرةً بالراحة، وتنوي تكرار زيارة «ملك» كما وعدتها حتى تعود ياسمين من سفرها.

***

ترى كابوسًا كعادتها، تئِنُّ مُتلاحقة الأنفاس، فتحت عينيها تلهث، ومازال صوت رصاصة كابوسها يُلاحقها، تشعر بصداع يكاد يفتك رأسها، وألم شديد موضع الرصاصة، كادت تُوقظ «مازن» النائم جانبها، ولكنّها تراجعت، تشعر بحاجة ماسّة لأن تكون وحيدة؛ فخرجت بهدوءٍ من الغرفة، هبطت الدرج ومازالت مُمسكة برأسها. تشعر أن كوابيسها ستقتلها، باتت تتمنى أن يقتلها هذا الرجل، ويُنهي عذابها بدلًا من أن تشعر بالموت كلّ ليلة ألف مرة! تناولت قُرصًا مُسكّنًا للصداع، ثم خرجت تستنشق الهواء في حديقة البيت. وصلت لآخرها، تمددت بالأرض، وفردت ذراعيها تتأمل نجوم السماء، تشهق وتزفر بهدوءٍ، وتستجدي دموعها؛ علّها تستريح. ولكنّنا- أحيانًا- نتحايل على عبرتنا؛ لتُريحنا بنزولها حاملةً الثقل الذي يضغط على قلوبنا، ولكنّها تأبى ذلك، تخنقنا عبرتنا، أهي هكذا تَتَعَنَّتُنا، أم أنّ ألمنا أكبر وأثقل من أن تحمله دمعة ساقطة في لحظة وهن؟ ربما لأن جُرحنا عميق حدَّ الصمت القاتل، جُرحٌ مُتعالٍ، أكبر من أن تُترجمه كلمات أو قطرات دموع، فنزُفّ أنفسنا إلى حالةٍ الموت واللّا موت. حالة السكون والصمت العميق، حالة تجعلُك وسط الألوف مُنعزلًا في عالم آخر، تصول عينك وتجول مع روحك بحثًا عن أحدٍ تتشبّث في تلابيبه ليُنقذك، بحثت روحها عن هذا الشخص، وفي كل رحلة بحث تعود «بِخُفّي حُنين»!

أمعنت النظر في السماء، وتذكّرت أنّها نسيت أحنَّ حضن، تذكر الآن وصايا والدتها قبل أن تسافر، نصحتها إن شعرت أن الأبواب مُغلقة في وجهها؛ فلتتذكر أحنَّ حضن، حينما تضمّك الأرض في

سجدتك لخالقك، تشكوه بما هو أعلم به منك،لم تُطبّق هذه النصيحة سوى مرة واحدة في بداية سفرها، حينما أُغلقت الأبواب في وجهها، وشعرت أنّها تنهار، وها هي الآن تنهار مرة أخرى، نهضت واتجهت نحو المرحاض، أحنت رأسها وفتحت الصنبور، تركت الماء ينساب فوق رأسها؛ علّ البراكين الثائرة فيها تخمد! رفعت رأسها ومدّت يدها للماء، بدأت تتوضأ، وتُسقط كلَّ همٍّ عالق في قلبها، صعدت لغرفتها بهدوء، وأخرجت زيّ الصلاة الذي أهدتها إياه والدتها. خرجت من الغرفة على أطراف أصابعها إلى إحدى غُرف الطابق السُفلي، ارتدت الزي واتخذت تجاه القبلة صامتة لبرهة، رفعت كفّيها وتمتمت- بخشوع- «الله أكبر»؛ فشعرت أن زلزالًا ضرب قلبها، ثارت الدموع علىً عينيها، وكسرت قيودها، «الله أكبر» فوق الألم والحزن «الله أكبر» فوق الوجع والقهر. شرعت تُرتّل فاتحة الكتاب حتى بلغت «إيّاك نعبد وإيّاك نستعين»؛ فارتجف جسدها، وبكت حتى انقطعت قراءتها، ظلّت تُرددها ليسمعها قلبها، تُرتل الآيات وتسمع صوتها المُبلل بدموع الخشية، فطفقت الراحة تسكن قلبها، وتهدأ نفسها. أحنت لله صُلْبَها، ونكّست هامتها استكانةً لهيبته، ثم رفعت قامتها وشعرت بتضاؤل حجمها أمام أوجاعها؛ فهرولت وخرّت لله ساجدةً، تبكي بحرقة ويعلو نحيبها، تدعس جبينها في نسيج السجاد وتكاد تحرق الأرض به، تخشى أن تنهض فتترك معيّة الله وتُواجه أوجاعها مرة أخرى، أرادت أن تدعوه ولكنّها لم تجد من الكلمات ما يُسعفها؛ لذا ظلّت فقط تبكي وتُردد «أغثني يا الله».

***

عسعست ليال، وتنفّست أصباح، ومرّت أربعة أيام سريعًا،لم تنتهِ كوابيسها، ولكنّهاً- على الأقل- عرفت كيف تُطمئن قلبها منها، تقود سيارتها لبيت «ملك»، ولا تُصدّق أن زوج ياسمين قطع أجازتهما لعملٍ هامٍّ، وعادوا للقاهرة. تشعر أن الله استجاب لدعائها، وصلت للبيتً وحينما قابلت ياسمين لم تتعرف عليها كالباقين، قابلتها الثانية بودٍّ وواستها. حاولت تذكيرها بالأيام التي جمعتهما، ولكن دون جدوى حتى اتّصل زوج ياسمين يُخبرها أنّه أنهى عمله، وينتظرها هي وصديقتها،. ودّعتا ملك ورحلتا. رحّب بها الطبيب، ثم نظر لزوجته فاستئذنت وأخبرتها أنها ستنتظرها بالخارج، وقفت «صبا» مُرتبكة فابتسم «محي» وحثّها على الجلوس، جلست؛ فجلس على كُرسيه خلف المكتب، ثم قال:

_ ياسمين إدّتني فكرة عامة عن اللّي حصلّك، بس أنا حابب أسمع منّك بالتفصيل، وأرجو ماتنسيش وماتستهونيش بأبسط التفاصيل، قد يكون بداية الحل من عندها.

أومأت، ازدردت ريقها بصعوبة، ثم مرّرت لسانها على شفتيها الجافتين مُحاولةً ترطيبهما،لم تكن تعلم أن أمرَ البوح صعبٌ لهذه الدرجة. كانت كلماتها تتصادم، تنطقُ بعضَ الكلمات وتبتلعُ بعضها كُلّما ازدردت ريقها الجاف، لاحظ مُعاناتها؛ فنظرت له مُعتذرة. ترك كُرسيه خلف المكتب وجلس بالكرسي المُقابل لها؛ لتنزع ترددها وخوفها، وبدأ يُشجّع كلماتها على الخروج. سحبت نفسًا عميقًا ثم زفرت بهدوء، صرفت بصرها عنه، وبدأت تقص ما حدث من اللحظة التي استفاقت فيها وحتّى هذه اللحظة. مرّت ساعة ونصف

وهي تحكي ما يعتمل في صدرها، تارة تبكي وأخرى تضحك، وحينما انتهت ناولها كأسًا من الماء، فشَربَتْه دُفعةً واحدة، ثم نظرت له بترقُّب، وهو يتراجع في كُرسيه ويعدل مَن وضع نظّارته الطبية، نظر لها مُبتسمًا، ثم قال:

ـ اللّي حكيتيه، واللّي شفته في الأشعة وتقارير الدكاترة بيقول إن عندك أحد أنواع الـ (سيكوجينك أمنيجيا) يعني السبب نفسي راجع لصدمة ما حصلتلك أكبر من إن مخك يستوعبها، في الوقت اللّي حصل فيه الحادث اللّي ساعد بشكل كبير على فقدان الذاكرة، والحمد لله ربنا نجاكِ، لكن المخ رافض رجوع الذكريات دي بأمر لا إرادي منّك، بس ماتقلقيش بسيطة، وممكن الذاكرة ترجعلك بسرعة جدًّا؛ فتهللت أساريرها، ثم قطّبت جبينها حين قال:

ـ وممكن لأ! الأمر بيتوقف عليكِ إنتِ.

ردّت مُنفعلة:

ـ والله حفظتها، الأمر بيتوقف عليكِ، بيتوقف عليكِ، أنا بجد تعبت، أعمل إيه أكتر من اللّي عملته!

ـ لازم نعرف الصدمة اللّي تسببت في فقدان الذاكرة، يعني نلاقي سبب الداء عشان نعرف نتعامل بالدواء الصحيح اللّي مش هيضيّع وقتنا، ويستنفد طاقتنا على الفاضي.

ـ وبما إنّي مش فاكرة الصدمة دي، ولا حد من اللّي حوليّا يعرفها، المُفترض أعمل إيه؟!

ـ تتواجدي في مكان الحادث، ربما يكون ليه تأثير كبير على رجوع الذاكرة، بل بالتأكيد هيكون ليه، إن شاء الله، اضغطي على نفسك

على قد ما تقدري، وخلّي معاكِ دفتر دوّني فيه كل ملاحظاتك، وأي حاجه تفتكريها أو أي شيء في المكان تحسّيه مألوف، وكمان دوّني فيه كوابيسك اللّي حكيتيها بكل التفاصيل اللّي فكراها؛ لأن ممكن تكون زي ما حسيتي مش كوابيس، بل ذكريات محبوسة بتحاول تتواصل معاكِ عشان ترجع، ومفيش وقت أفضل ليها من وقت نومك، اللّي بيكون ملكيش فيه أي سيطرة على عقلك، وقد يكون الراجل اللّي بتشوفيه ويقتلك كل مرة ومش قادرة تحددي شكله مش رجل، بل رمز بيعبر عن الصدمة اللّي عشتيها، ومش قادرة تميّزي ملامحه؛ لأنك مش عارفة إيه هي الصدمة!، أهم حاجة يكون عندك عزيمة وأمل؛ لأنك لو يئستِ مش هتقدري توصلي لأي حاجة، حرري ذاكرتك من سجن الصدمة اللّي اتأسرت فيه، اتكلمي مع آخر الناس اللّي كانت موجودة معاكِ قُبيل الحادثة، وطبعًا الناس اللّي تواجدت معاكِ ليلة الحادثة؛ لأن غالبًا الصدمة مُتعلّقة بيهم.

أومأت بتفهم، وشردت قليلًا حتى قال:

_ هنتظر حضرتك تطمنيني الأسبوع الجاي إن شاء الله، ولو فيه أي حاجة ممكن تاخدي رقمي من ياسمين، وتبلّغيني.

شكرته وعادت لبيتها تُفكّر فيما قال، وحينما خطر ببالها أنّها ستذهب لمكان الحادث؛ سَرَت قشعريرة أسفل عُنقها، لكنّها عزمت على هزيمة خوفها،لم يعد هناك مجال للخوف أو التراجع والاستسلام! بدّلت ملابسها، واستأذنت زوجها في الذهاب للاطمئنان على والدتها. وصلت لبيت خالها فاستقبلوها بترحاب مُعتاد، وانفردت «هدى» بـ «زينة» على إحدى أرائك الصالة، جلست «منى» تتحدث

لصبا، ولكنّ الثانية شاردة؛ فمذ دخلت البيت وأنفها يلتقط رائحة مميزة أربكتها، تشعر أنّها تعرفها جيدًا وصورة عمر لا تُفارقها منذ أن التقط أنفها الرائحة، تجاهلت الأمر، واقتربت من «منى» تهمس:

_ منى، أنا بتابع من جديد مع دكتور نفسي، وكنت محتاجة مُساعدتك في حاجة مهمة.

نظرت «منى» لوالدتها الجالسة تُتابع أحد برامج التلفاز، وجانبها عمّتها مُنشغلة بملاعبة الصغيرة بتعجب، ثم همست:

_ أنا دايمًا جنبك، ومُستعدة، بس إنتِ موطّيه صوتك ليه؟!

_ عشان ماما ماتسمعش، أنا مش عاوزه حد يعرف إني بتابع مع دكتور حاليًا، هو قال إنّي لازم أزور مكان الحادثة، وأضغط على نفسي شوية، وربما ما احتجش أضغط عليها وأفتكر بسرعة، ممكن توديني هناك من غير ما حد يعرف؟

_ أنا معرفش غير المستشفى اللّي نقلناكِ منها في الصعيد، لكن المكان تحديدًا محدش يعرفه غير عمر.

سرت قشعريرة في جسدها حينما سمعت اسمه، تمالكت نفسها، وسألت:

_ طيب هو راجع إمتى؟ أو نقدر نوصلّه ازّاي!؟

_ هو نزل أجازة إمبارح، ولسّه خارج من شوية يقابل صحابه.

عَلِمَت الآن لمن تنتمي الرائحة التي أراحت قلبها وصحبتها صورته في عينيها، لم تنسَ رائحته إذًا! أيُعقل أنها كانت تُحبه لهذا الحد؟! وإن كان الأمر كذلك لِمَ افترقا؟! انتشلها من شرودها تقترح عليها أن تنتظر عودته، وتُخبرهَ إلا أنّها لا تُريد لفت انتباه والدتها؛ فآثرت أن تُخبره «منى» حتى لا يُلاحظ أحد.

صمتت «منى» هنيهة، ثم ردت:

_ إنتِ حظك حلو، مرات خالو عملت عملية، وماما كانت رايحة تزورها النهارده قبل ما إنت تيجي، وعمتو قالتلها هتروح معاها، ممكن تستني بس شوية، همَّا يمشوا وأنا هتصل بعمر ييجي، وتقوليله براحتك، لمّا إنتِ تشرحيله الأمر؛ أفضل.

غمزت لها، ثم نظرت لوالدتها وسألتها:

_ هو حضرتك وعمتو رايحين عند طنط أُلفت إمتى يا ماما؟

_ شوية كده، يكون أبوكِ رجع؛ عشان يودّينا.

لم تُكمل جملتها، ووجدوا عبد القادر يفتح باب الشقة؛ فتهلّلت أسارير الفتاتَين، وبالفعل بعد نصف ساعة كانتا وحدهما بالبيت. اتصلت «منى» بأخيها، تركتها «صبا» تتحدث إليه بالبهو، وسارت نحو إحدى غرف البيت؛ لتُرضع صغيرتها، أنارت الغرفة فاتسعت مُقلتاها، تتأملها لتكتشف أنّها في غرفته، أغمضت عينيها، واستنشقت رائحته التي يعبق بها المكان. نظرت نحو «منى» بريبة، وجدتها مُنشغلة بالهاتف فأغلقت الباب بهدوء، أرضعت الصغيرة وهدهدتها حتى نامت، ثم وضعتها فوق سريره، واقتربت من حائط جمع صورًا له، تتأملها باسمةً، استرعى انتباهها رفٌّ وُضعت عليه كؤوس وأوسمة وشهادات تقدير. وجدت أغلبها تنتمي لمسابقات فروسية، هناك صور تجمعه بفرس أسود فاحم تأمّلته بإعجاب شديد، لمحت قميصه مُعلّقًا خلف باب الغرفة؛ فاقتربت ومدَّت يدها بتردد، التقطته بيد مُرتعشة وقرّبته من أنفها، مازالت رائحته تُغرق القميص، ها هي تُغمض عينيها وتستنشقها، نبضات قلبها تتحوّل إلى

عبوات ناسفةٍ تكاد تنفجر وتُطيح بها، تشعر أنّه يضمّها الآن لا هي التي تضم قميصه، يجتاحها شعور غريب بالأمان والسكن. سمعت طرقًا على باب الغرفة ففزعت. وبسرعة، أعادت القميص كما كان مُعلّقًا، دخلت «منى» تُخبرها أن زوجها يتّصل بها، تناولت هاتفها بارتباك، خرجت «منى» وتركتها تنظر للشاشة المُضيئة بخوف، تسأل نفسها.. أيكون قد شعر بخيانتي له؟! إن تحدّثتُ إليه الآن أسيشُمّ رائحته في ملابسي، أسيفضحني صوتي! بترت تساؤلاتها وازدردت ريقها، ثم ضغطت زر الهاتف، وأجابته، فكوى قلبها بكلماته:

_ إيه يا «صبا»! إنتِ هتقعدي عندهم اليوم كله، واللا إيه؟ وحشتيني أوي يلّا ارجعي.

توقّفت الكلمات في حلقها، ظلّ يُنادي اسمها، فتنحنحت وأخبرته أنّها لم تجد والدتها؛ لذا ستنتظرها حتى تعود، سألها هل يأتي لاصطحابها؛ فأخبرته أنّ ابنة خالها ستوصلها للبيت. أنهت المكالمة، وجلست على حافة السرير تشعر بالذنب، وتلوم نفسها على جُرمها في حق زوجها. تُريد أن تُوقف نفسها عند حدّها، لكنّ اسمه كُلّما مرّ أمامها يُلقي قالبًا من الطوب في بركة حياتها الآسنة، ستصبر حتى تُنهي ما بدأته وتعود ذاكرتها. وقتها، ستهرب من كل شيء مع زوجها إلى «لندن»، وتُعوّضه عن لحظات الألم والصبر التي عاشتها معها، هو فقط من يستحق حُبّها وإخلاصها. سمعت صوت قدميّ «منى» تقترب من الغرفة؛ فتظاهرت بتمسيد شعر صغيرتها، وقفت أمام الباب تنظر للصغيرة النائمة باسمةً، ثمّ حوّلت بصرها لصبا، وقالت:

ـ عمر عند صاحبه ساكن بعدنا بشارعين، يعني ثواني وهيكون عندنا إن شاء الله.

ـ إنتِ قولتيله؟

ـ لأ ماقولتش أي حاجة، طلبت منه ييجي بسرعه عشان عوزاه في موضوع ضروري.

ـ تمام، هقوم أصلّي العصر.

هربت منها؛ لتبكي في سجدتها، كما يحلو لها، وتدعو الله أن يهدي حيرتها.

***

يجلسُ مُسلّطًا حواسّه على رقعة الشطرنج مُغضّنًا زوايا عينيه، رفع أحد حاجبيه وابتسم بانتصار قبل أن يُحرّك قطعته بثقة، ويُعلن «كش ملك»؛ فهبّ صديقه واقفًا بعصبية، ودفع رقعة الشطرنج بجيوشها وملكها أرضًا في رعونةٍ كالأطفال، هاتفًا بغضب:

ـ لا بقى كده كتير، أنا كان باقيلي خطوة! ده أنا فضلت الفترة اللّي فاتت أتدرب، ومستنّي أجازتك عشان أعلّم عليك.

اهتز كتفاه بمرح وهو يضحك، عاد للخلفِ في كرسيه، ووضع ساقًا فوق الأخرى في غرور مُصطنع قائلًا:

ـ ها..ها.. أنا دايما سابق بخطوة، وبعدين مش عمر عبد القادر اللّي يتعلّم عليه يا خطّاب، يلّا طلّع اللّي تحت البلاطة عشا الشلّه كلّها عليك الليلة.

فصفّق أصدقاؤهم الجالسون يشاركونهم الجلسة، وبدأ كل منهم يُلقي تعليقاته المُضحكة؛ ليزيدوا غيظ صديقهم الذي خسر التحدّي

للتو. رن هاتف عمر برقم «منى»، أجابها فطلبت منه العودة للبيت، أنهى المكالمة، ووضع الهاتف في جيبه مُعتدًّا بنفسه وهو يعُدّل ياقته، وقد داخله بعضٌ من غرور طفولي، ثم نظر لرفيقه قائلًا:

_ حُطّها حلقة في ودنك، مش أنا اللّي أتغلب في الشطرنج، جهّز جيوبك أيها الخاسر.

استأذن رفاقه في الذهاب للبيت والعودة إليهم سريعًا، ترك صديقه يُغمغم بغيظ، رحل ومازال يضحك بمرح، وصل وصفّ سيارته أمام البناية ثم صعد للبيت، دسّ يده في جيبه فلم يجد المفتاح يبدو أنّه نسيه، طرق الباب وانتظر أن تفتح «منى» فيما كانت في المرحاض، وصبا أنهت صلاتها للتو، سَمِعت طرقًا على باب الشقة فذهبت لتفتح، مُنتظرًا يُدندن بأغنية ما حتى فُتح الباب، وشعر- فجأة- أنّه انتقل للقطب الشمالي! يتأملها غير مُصدّق أنّها تقف أمامه، أتكون هي أم صورتها خرجت من غياهب عقله لتتلبّس «منى»؟! يشعر باندفاع الدم إلى وجهه، تتلاحق أنفاسه وتتسارع نبضاته، وهناك ارتعاشة لعينه تملّكت جسده الذي ينخره الوهن كما ينخر الدود في جثامين الموتى، ارتعش لسانه مُكوّنًا حرف «صاد» ثم استجمع قوته وارتعشت شفتاه لثوانٍ قبل أن ينطق اسمها بصوتٍ مبحوح «صبا»؟ حينما رأته واقفًا أمامها شعرت أن الأرض الهامدة اهتزت وربت من تحتها، نظر في عينيها فأصبح كل نفس يدخل رئتيها يؤلمها، هل شعرت بمأساته التي يعيشها عندما نظرت في عينيه. هل رأتها في دموعه التي استوطنت عينيه الآن، وتأبي أن تنهمر!؟ لا تعلم لم خطر ببالها زوجها في هذه اللحظة، ربما ضميرها أراد أن يُذكّرها



بأنّها هنا ليُساعدها في استعادة ذاكرتها فقط من أجل زوجها! أشاحت بصرها عنه، وارتعشت شفتاها قبل أن تقول «إزيك يا عمر؟» انطلق صوتها الطفولي الناعم كتغريد عصفورة في صباح هادئ ينثر الورود والفراشات حوله، تنبّه فجأة وكأنّه استفاق للتوِّ من حلم لحلم آخر بعيد المنال، تنحنح ثم رد «الحمد لله»، تركها وولّى هاربًا لغرفته، هي أيضًا ولّت هاربةً في أحد أركان الصالة. صك باب الغرفة ووقف خلفه يسترد أنفاسه المُتلاحقة، ويُعيد أفكاره لنصابها، يشم رائحتها في قميصه المُعلّق جانبه هل كانت تحتضنه أم أنّه يتوهّم ومازالت رائحتها عالقة في أنفه! بدأ الألم من جديد يُرهق فؤاده، كان عصفورًا حالمًا معها تعلّم التحليق في السماء، ورحيلها عن عالمه نتَفَ ريشه وكسر جناحيه، فأُسرت روحه في قفص الحياة المُظلم البارد، لكنّه بات مأواه الآمن، البقاء فيه أرحم لطائر مهيض الجناح من التحليق في السماء، ورؤية من علّمته الطيران تُحلّق في الأفق عاليًا مع غيره، استرعى انتباهه الملاك النائم على سريره، اقترب بخُطى حثيثة يتحقق مما يراه، ركع على ركبتيه جانب السرير، ومرر أنامله بهدوءٍ على وجهها، التمعت عيناه وابتسم رغمًا عنه، يرى نسخة مُصغّرة من صباه، يشعر بأبوّة نحوها لكنّه تذكّر فجأة أن أباها غريمُه، كم تمنّى أن تكون ابنته! ولكنّ أظافر الأيام انتزعت فرحته بلا رحمة من بستان الحياة، وزوّجته بالإكراه للوحدة؛ لتُنجب له الهم والحزن، ابتُلي بهما قلبه واستعمراه، فتحت الطفلة عينيها بهدوء، وبدأت تُرفرف بيديها، لم تجد أمها جانبها فزمّت شفتيها، وكادت تبدأ في البكاء؛ لولا أن حملها باسمًا، ضمّها إلى صدره، وبدأ يُهدهدها ويُضاحكها، قبّل وجنتيها وتركها تتوسد

كتفه، يربت على ظهرها بحنان، طرقت «منى» باب غرفته ودخلت، حكت له ما أخبرتها به «صبا»، وأنّها تحتاج للحديث معه لمساعدتها، تقافزت دقات قلبه ورقصت فرحًا حينما عَلِمَ أنّها بدأت مرة أخرى تُحاول استرجاع ذاكرتها المفقودة، وضع «زينة» التي نامت على كتفه بهدوءٍ في سريره، وخرج بصحبة «منى» ليجدا «صبا» جالسة تنتظرهما بالبهو، لاحظ ارتباكها وتوتُّرها؛ فأشاح بصره عنها، وتجنّب النظر إليها حتى لا يُربكها ويُربك نفسه بنظراتها، استجمعت شجاعتها وقصّت له ما قاله الطبيب، وأنّها تحتاج مُساعدته، استمع بإنصات، قصّ لها كيف وجدها هناك وما وصلت إليه التحقيقات في قضيتها التي أُغلقت بعد سفرها، ثم تطرق للحديث عن بيتها في الصعيد، سمعته مشدوهة وحينما أخبرها بشعوره أن ثمة سر يتعلّق بقضيتها هي وحدها تعرفه؛ دبّ الرعب في قلبها، وبدأ الصداع ينشرِ جيوشه ليحتل رأسها، لاحظ عمر أمارات التعب على وجهها المُتقلِّص من الألم؛ فسأل:

ـ إنتِ كويسة؟

ـ أ.. أيوه، بس مصدّعة شوية، أنا كنت عاوزه أشوف البيت ده في أقرب وقت ممكن؟

ـ معنديش أي مانع، ومُستعد جدًّا في أي وقت تحدديه.

ـ جوزي هيسافر بعد يومين، أظن ده وقت مناسب نسافر فيه.

كلمة «جوزي» انطلقت كسهم سامٍّ واخترقت قلبه، ابتلع مرارته وصمت؛ لتُكمل هي قطع وتينِهِ بكلماتها:

_ياريت ماتجيبش سيره لماما، أنا مش قايلة لأي حد على اللّي ناوية أعمله، حتى جوزي حبيبي اضطريت أخبّي عليه؛ لأنّي عاوزه أعملهاله مفاجأة، تعبته كتير أوي معايا، ويستحق بجد أتعب وأجاهد علشانه، وعلشان التوازن يرجع لحياتنا.

لم يكن هناك داع لقول جملتها ولكنّها تعمدت؛ ربما لم تكن تريد إسماعها لعمر، بل لنفسها لتُوقفها عند حدّها، لم يتحمل أكثر من ذلك، هبّ واقفًا وأنهى اللقاء بعد أن أخبرها أنّه مُستعد للسفر بأي وقت، ثم استأذن في العودة لرفاقه، لايعلم كيف هبط الدرج وفتح سيارته، وانطلق بها بهذه السرعة، استفاق من غضبه ليجد نفسه سائرًا بلا هدف،لم يكن في مزاج يسمح له بالسهر مع رفاقه، بدأ يقود سيارته إلى الـ لا مكان، وكلماً ترددت كلماتها في أذنه؛ أسرع أكثر. انتشله من نوبة غضبه صراخُ امرأة، نظر أمامه لينتبه أنّ هناك طفلًا يقطع الطريق؛ فضغط المكابح بقوةٍ، حتى توقفت السيارة أمام الطفل مباشرةً. التقطته أمه، حبسته في صدرها وهي تصبّ جام غضبها على عمر، اعتذر وقاد سيارته مُبتعدًا عن صوت بكائها وسبابها له. توقّف على جانب الطريق يُحاول استيعاب الكارثة التي كان على وشك أن يرتكبها، يُردد «سامحكِ الله يا «صبا»،لم يكن عصبيًّا من قبل، كان شخصًا هادئًا حليماً حتى في عمله يتصرّف بحكمة وهدوء عكس باقي زملائه، منذ أن ظلمته وتركته افترش الغبار ساحات قلبه وأصبح يُقاسي في حرب ضروس مع الوحدة والألم، التقط دمعة فارّة من عينيه، نسيته وحتىً إن عادت الذاكرة فهي تُريد عودتها فقط من أجل غريمه. قرر أن يتناسى؛ لذا انطلق بسيارته عائدًا إلى رفاقه.

منذ أن أوصلتها «منى» لبيتها وهي شاردة، تشعر أنّها كانت قاسية على عمر، وعلى نفسها أكثر منه، ولكنّها تُقنع نفسها بأن ما فعلته هو الصواب.

مرّ اليومان وهي تهتم بزوجها وتُدلّله، وكُلّما قبضت على نفسها تُفكر في عمر؛ تتضرع إلى الله أن يُخلّصها، ويعينها على إسعاد زوجها. ذهبت لتُودّعه في المطار، ودّع طفلته وأخته، اقترب من «صبا» وضمّها بحنان؛ فانخرطت في البكاء، ظلّ يربت على ظهرها، ويُمسّد شعرها واعدًا إياها أنّه سيتحدث إليها كلّ يوم، ويُشاركها كل لحظة، حتى يُنهي عمله ويعود إليها. سمعوا نداء طائرته فحثّته «ميرال» علًى الإسراع، قبّل كفّي «صبا» ثم طبع قبلة طويلة على جبينها ورحل. نظر لها قبل أن يدخل من البوابة وعيناه تُقبّلها وتضمّها، لاتعلم لم في هذه اللحظة انتابها شعور غريب لم تستطع تفسيره، لكنّها تناسته وعادت للبيت بصحبة ميرال، انتظرت حتى رحلت ثم اتصلت بمنى تُخبرها أنّها مُستعدة للسفر، أعدّت حقيبتها، وذهبت لبيت خالها، تبادلت النظرات هي ومنى، تُحاول أن تجد إجابات لأسئلة والدتها، اهتدت لفكرة:

_ أه يا ماما، هي البنت دي أنا يعني اتعرفت عليها وأنا بره مصر، وبقينا صحاب أوي، ومش هينفع ما أسافرش وأكون جنبها في وفاة مامتها.

_ طيب وجوزك يا «صبا» استأذنتي منه؟

_ ما أنا بكلّمه مابيرُدّش، هو لسه ماوصلش لندن أكيد، وهيبقى يكلمني وهقوله على طول، حتى كمان عشان مايقلقش واخدة معايا «منى» هُمَّا يومين في إسكندرية، وهنرجع.

انطلت عليها كذبتها، ودّعتا والدتيهما، وانتظرتا عمر في الأسفل، أخبر والدته أنّ هناك قضية هامة ويتوجّب عليه العودة للصعيد الآن، ودّعها ولحق بالفتاتين. قاد السيارة في طريقهم نحو صعيد مصر، أو كما تشعر «صبا» الآن أنّها رحلة نحو الحقيقة.

***

وصلوا لمنتصف طريقهم، وكان بين الفينة والأخرى يختلس النظر إليها من مرآته، شاردة في ظلام الليل، يزداد ضرب دقّاتها لقفصها الصدري كلما اقتربوا من المجهول، تشعر كما لو كانت ستُقابل رجل كوابيسها هناك! أخرجها من شرودها توقّف السيّارة على جانب الطريق، هبطت «منى» من الكرسي الأمامي، وعادت للخلف تقول بصوتٍ ناعس:

_ بدّلي يا «صبا» أنا مش قادرة، بنام وعمر محتاج حد صاحي جنبه؛ عشان الطريق.

قلّبت بصرها بينهما لثوانٍ، بدأ قلبها يدق بعنف، ترتبك كلما سمعت اسمه، فهل ستستطيع الآن الجلوس قريبة منه لهذا الحد؟!

أراحت رأس «زينة» على كتفها، وبدّلت الأماكن، تمددت «منى» بالكرسي الخلفي وجلست هي تُصارع توترها، وتُحاول السيطرة على دقات قلبها، مر وقت طويل والصمت يُخيّم على المكان، وكلاهما يُحاول الانشغال عن التفكير في الآخر، حاول كسر حاجز الصمت؛ سائلًا:

_ ناوية تقعدي قد إيه في الصعيد؟

فزعت وارتجف جسدها حينما سمعت صوته فجأة؛ فاعتذر، أومأت مُبتسمة، ثم أجابت:

ـ مش عارفة، أنا ماحطتش وقت معين، أتمنى ماطولش هناك، هو الدكتور طلب مني أقعد في البيت، وأحاول مع ذكرياتي، قد تنجح التجربة، وقد تفشل.

ـ إن شاء الله هتنجح.

عاد كُلٌّ منهما ينظر للطريق ويتصنّع الانشغال، هو يشغل نفسه بالقيادة، وهي تشغل نفسها عن التفكير فيه بالمجهول الذي اقتربت من معرفته. لديها شعورٌ قوي أنّ الألغاز التي تُحيطها ستجد حلّها هناك في هذا البيت، داهم عينيها النُّعاس فاستسلمت له، تأمّلها عمر بولهٍ وهي نائمة في هدوءٍ جانبه، تنهّد مُشيحًا بصره عنها.

انقشع الليل وطفقت الشمس تُضيء الكون بأنوارها، انعكست أشعتها على نافذة السيارة، وطرقت جفنيها، فتحت أبواب عينيها قليلًا، فلمّا اقتحمتها الأشعة؛ أسدلت جفنيها لتمنعها من الوصول لحصون عينيها. «صباح الخير» أجبرتها جملته على فتح عينيها، نظرت حولها، ثم قالت مُعتذرة:

ـ أنا آسفة، والله ماحستش بنفسي، ونمت.

ـ ولا يهمك، أنا متعود أوقات على السفر لوحدي، ومابيفرقش معايا يكون حد صاحي جنبي أو لأ، حمدًا لله على السلامة.

ـ الله يسلمك، إحنا وصلنا؟

ـ وصلنا الحمد لله، لكن الجبل، قُدامنا تقريبًا ربع ساعة ونكون هناك في البيت.

انشغلت بمراقبة الطريق، وتأمل سحر الطبيعة المُتمثّل في المساحات الخضراء الشاسعة على جانبي الطريق، صفاء السماء وزقزقة العصافير، ابتسم حينما رأى ابتسامة عينيها، وعلّق:

ـ أنا برده انبهرت كده أول مرة جيت فيها الصعيد.

ـ فعلًا، كل حاجة مُبهرة، الطبيعة، والجو، ونشاط الناس.

ـ بس هتلاقي عكس الكلام ده أول ماندخل في طريق الجبل، ويؤسفني أقولك إنك هتتحرمي من الجمال ده لأنه على بعد مترين.

ضحكت بمرح، فرقص فؤاده طربًا على أنغام ضحكتها، انتبهت فجأة إلى أنها تمادت ونسيت اتفاقها مع نفسها؛ فتنحنحت ولثّمت وجنة «زينة» النائمة على قدميها، ثم عادت تتأمل الطريق في صمت. وكما أخبرها، اختفت المساحات الخضراء وكأنّها دُفنت تحت رمال الجبال التي بدأت تغزو المكان، تظهر أشجار كثيفة تُعاند شموخ الجبل المقابل لها، أمعنت النظر للأشجار، غضّنت زوايا عينيها، تحوّل النهار حولها إلى ليل حالك، ترى هناك نفسها تجري وسط هذه الأشجار، بدأت تسمع طَلقات الرصاص في أذنها، والصداع يتسلل إلى رأسها، ها هي تخرج من بين الأشجار، توقّفت أمام السيّارة، عمر يقترب من طيفها الواقف أمامها، وهي تنظر له بأنفاسٍ مُتلاحقة، اقترب عمر أكثر فصرخت: «أقف، أقف بسرعة»

ضغط المكابح بعنفٍ؛ فأصدرت السيارة صريرًا مُفزعًا، وارتجّ مَن بالسيارة مما أيقظ «منى» من نومتها، فتحت عينيها بفزع تسأل «في إيه!؟»، نظر عمر لصبا يُكرر سؤال منى،لم تجبهما ناولت الصَغيرة

لعمر ثم فتحت باب السيارة وهبطت، طفقت تتأمل المكان وتضغط على صدغيها، وكأنما تحاول أن تتذكر شيئًا، أعطى الطفلة لـ «منى»، ثم هبط يلحق بها:

_ «صبا» إنتِ كويسة؟

عاد النهار كما كان، نظرت حولها، ثم أجابت بوهن:

_ معرفش! أنا فجأة شُفت نفسي واقفه قدامنا في نص الطريق، وإنت كنت على وشك تخبطني؛ فصرخت، وطلبت منك تقف.

_ وده شيء مُبشّر جدًّا.

نظرت له بتعجب، وسألت:

_ وإيه المُبشر في كده؟!

_ إنتِ واقفه تحديدًا في مكان الحادثة، العربية خبطتك هنا لما خرجتي بسرعة من وسط الشجر.

اتسعت عيناها تنظر له ثم للأشجار، تيقّنت الآن أن كوابيسها لم تكن سوى ذكريات من ماضيها، نظرت لعمر سائلةً عن البيت، فانحنى قليلًا، وأشار من وسط الأشجار لسور أبيض بعيد، أخبرها أنّه سور البيت، ثم طلب منها العودة للسيارة ليذهبوا إليه، عادت بعيون زائغة وصدر يعلو ويهبط بسرعة، انطلقت السيارة نحو البيت، وحينما توقّف عمر أمام البوابة، هبطت «صبا» وتوجّهت نحوه هائمةً على وجهها، نظر لـ «منى»، وهمس:

_ «صبا» محتاجة تقعد لوحدها شوية في البيت، إيه رأيك نروح الاستراحة بتاعتي، وناخد معانا زينة ونبقى نرجعلها؟

_ بس أنا قلقانة عليها أوي يا عمر، مش شايف منظرها! هنسيبها لوحدها ازّاي؟!



_ ماتقلقيش، مش هنتأخر عليها، بس هي بالفعل محتاجة تكون لوحدها دلوقتي.

لحقا بصبا التي كانت واقفة في منتصف الممر المؤدي لباب البيت، اقتربا منها، فسألت «صبا»:

_ فين الحارس اللّي حكتلي عنه؟

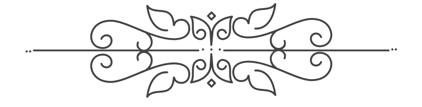
_ اتصل بيّا امبارح يطلب أجازة، وسافر لأهله في أسوان، بس لو حابه تستفسري عن حاجة ضرورية ممكن أكلمه يجيلك.

_ لأ.. لأ، مفيش داعي، على الأقل دلوقتي.

أكملت طريقها للباب، فأوقفها عمر، وأخبرها أنّه سيذهب برفقة «منى» وزينة لاستراحته، ثم يعودون إليها بعد ساعة، نظرت له بامتنان، هي بالفعل تحتاج الآن لأن تكون وحيدة، تابعتهم وهم يرحلون بالسيّارة حتى اختفوا عن ناظريها، نظرت للمفتاح الذي أعطاها إياه عمر، أولجته بالرتاج وفتحت الباب ثم دخلت بهدوء، وأغلقته خلفها، تُفنّدُ المكان بعينيها، بدأت تسمع أصواتًا في رأسها، وترى طيفها يمر أمامها بكل مكان، اقتربت من الدَّرج فرأت طيف والدها يضمّها تحت جناحيه، ويدخلا إحدى الغرف، اقتربت من هذه الغرفة، أخرجت دفترًا من حقيبتها، ودوّنت ما رأت وسمعت منذ قليل، عادت تنظر للغرفة، أمالت المقبض، دفعت الباب برفق وخطت خطوة للداخل، كانت الغرفة تسبح في الظلام، سلّطتً ضوء هاتفها نحو الحائط، فصدق حدسها ووجدت زر الإنارة، ضغطته فصعقت، ووقع الدفتر من يدها، إنها تقف بأحد كوابيسها، ها هو المكتب بكل تفاصيل الغرفة كما رأتها، والكتب التي تملأ

الحوائط الأربعة، «التمثال» ردَّدَتها وهي تبحث عنه، وجدته كما رأته في كابوسها، اقتربت وبدأت تتحسسه، وقفت تتأمل الحائط شاعرةً أنّها ستُقابل الرجل المجهول خلف هذا الباب، سحبت نفسًا عميقًا وأغمضت عينيها قبل أن تضغط قلب الوردة، فتحت عينيها في انتظار تحوُّل الحائط إلى باب لغرفة سريّة، ولكنّ شيئًا لم يحدث، قطّبت جبينها ثم نظرت بهدوءٍ في قلب الوردة، فلم تجد أثرًا لأي زر، بدأ العرق يتصبب من جبينها، تُفتّشُ عن زر يحويه التمثال فلم تجد، باتت تُفتّشُ بالمكتبة كالمجنونة، تسمع أصواتاً داخلها، لا تُميّز من بينها سوى «الظرف»، ظلّت هذه الكلمة تتردد في رأسها، ازدادت سخونة جسدها، وغلت مراجل غضبها، فبدأت تهز المكتبة وتدفعها بجنون صارخةً، خارت قوّتها فركعت على الأرض وبدأت تبكي وتُردد «يااا رب». رأسها يضج بالضحكات والأنين والأصوات تتردد داخلها؛ فسدّت أُذنيها بكفّيها، وصرخت «كفااية»، وقفت مرة أخرى وبدأت تهز المكتبة التي رأتها في كابوسها بابًا سرّيًّا؛ فوقع أحد المُجلّدات فوق رأسها، توقّفت فجأة، شيء ما بدأ يحدث لها، تصلّبت عضلاتها، وتشنّج جسدها بعنف، وكأنها تُصعق بالكهرباء الآن، ها هي الغشاوة ترتفع لتُصبح رؤيتها أوضح، بدأت الذكريات تتقافز وتعود دفعة واحدة لتملأ عقلها، ولكنّ رأسهالم يعد يحتمل كلَّ هذا السيل المُتدفق من الذكريات، امتلأت جبهتها بالعرق البارد، شعرت بألم شديدٍ يخترق فؤادها، والمشاعر والأحاسيس تتسلل إلى قلبها، الأصواتُ والمشاهد أمام عينيها تتداخل، وكأنها تمر بسكرات الموت، ضغطت على رأسها بقوة عساها تُوقف دوّامات عقلها، جحظت

عينيها، ها هي الصدمة جليّة أمامها، تملّكت جسدها رجفةٌ عنيفة، أصبحت رئتاها لا تشبع بالأكسجين ولا قدرة لديها على التخلص من ثاني أكسيد الكربون، حاولت كثيرًا ورفعت وتيرة التنفس حتى أرهقت عضلات تنفُّسها وبدأت تدخل في نوبة اختناق، كما زحف التنميل إلى يديها، وأحاط فمها، تُمسك رأسها بعنف وتهزّها وكأنها تنفض الأحرف المتداخلة منها،لم تعد تحتمل الألمً، بدأت تطوف بالغرفة وتلتف حول نفسها صارخةً بعنف، تترنح كالسكارى بغير خمر، الأرض تدور بها بسرعة،لم تتحمل أكثر من ذلك؛ فخرّت مغشيًا عليها.



من المفترِض أن يخاف النّاسُ مِن المجهول، ولكنّ الجهلَ يُصبح نعمةً عندما تكون المعرفة مُخيفة..

لوريل هاميلتون



قلّبته في يديها، هناك رغبةٌ جامحة تجتاحها لشم المُغلّف وتقبيله، رغبة في اللّحاق بآخر شيءٍ يحمل رائحة «زين العابدين»، اختنقت دموعها في عينيها وهي تستنشق المُغلّف، تُجاهد في خنقها أكثر حتى أصبحت عيناها كالألق، سماء تبرق بلا مطر! مُتلهّفة لأن ترى ما كتب، فضّته فوجدت أوراقًا مُرقّمة وورقة صغيرة مطوية، فتحت الأولى وابتسمت حينما رأت خطَّه المُنمّق، تنهّدت وبدأت عيناها تلتهم السطور بشوق:

«صغيرتي، لا أعلم متى ستصلك آخر كلماتي، لكن ما أنا مُتيقّنٌ منه حينما يكون هذا الظرف بحوزتك، لن أكون على قيد الحياة، ربما يُرهقكِ الفضول لأنني أرسلته مع «هدى»!

اخترتها تحديدًا لأنها الوحيدة التي وثقت فيها بعد «صبا»، أو ربما أردت أن تصلك الحقيقة بين يديها لتعودي بعد قراءة كلماتي تحت جناحيها، وتطلبي السماح لي ولك!

كنتِ دومًا تطرحين سؤالًا يُربكني وأتهّرب منه «كيف قابلت أمي؟» لا أعلم لمَ كنتُ أهرب منه!

أظن لأنّه يُعرّيني أمام نفسي، ويُذكِّرُني كم كنت أنانيًّا ظالمًا في حق «هدى»! المرأة التي أحبّتني بلا مُقابل، وصبرت على ظلمي حتى النهاية. سأُجيب الآن عن سؤالك؛ فأنا لم أعد موجودًا لأخجل، ثم أنّي صليت ليالٍ طوالًا ليغفر ليَ الله ويُسامحني، بداية إجابتي يا صغيرتي لن تكون من اللّحظة التي قابلت فيها «هدى»، بل من قبلها بسنوات، فتحت عينيَّ على دنياي وهي أمامي، وحُبُّها يترعرع في قلبي، «صبا» المرأة التي لم أحب أحدًا مثلما أحببتها «سواكِ».

كلّلنا عشقنا بالزواج، عشنا أجمل عامين في حياتنا، ونسينا أن السعادة لا تدوم، بدأت تشعر بآلام غير طبيعية في معدتها، وخَسرَت نصف وزنها في مدة قليلة جدًّا حدَّ القلق الذي دفعني لأُصرَّ على أن تخضع للفحوصات، رضخت لإصراري وذهبنا لطبيب صديق لي، طلب منّا أشعة وفحوصات بأسرع وقت ممكن، ربطًت طلبهً بشكوكي التي بدأت تُساورني من تصرفاتها الأخيرة ووضعها الصحّي، أكل القلق فؤادي ولكنّي تظاهرت بعكس ذلك كي يطمئن فؤادها، أُصيبت حبيبتي بسرطان في معدتها، حالتها مُتأخّرة وأيامها في الحياة معدودة، تخيلي حالتي وقتها، كنت أتنفسها، مجنون هذا الطبيب يُخبرني أنّ أنفاسي مُهددة بالانقطاع في أي لحظة!

كانت تذبل أمامي يومًا بعد يوم،لم تُمهلني الحياة الوقت لأستفيق من الصدمة لترميني بصدمة أخرى وفاجعة بموتها على صدري، ماتت صباي فشاخ قلبي فجأة، دفنتها تحت التراب ودفنت نفسي فوقه، صارت الدنيا- بوسعها- قبرًا ضيّقًا يضمّني، كان كل شيء فيَّ يشتاق لصبا بسخاء، حتى اقتربت من الجنون، تابعت مع طبيب نفسي، ولم أكن أنام إلا بالمهدئات والمنوّمات، عانيت كثيرًا يا «صبا» صدقًا عانيت، «شقتي القديمة» أتعلمين الآن..لم كنت أعشق المَكوث فيها أطول وقتٍ ممكن؟ كنت أغرق في تفاصيلها، فهي المكان الذي جمعني بحبيبتي في الفرح والألم والصحة والمرض، كل ضحكاتها مُعلّقة على الجدران، أنفاسها تُعطر كل ركن بالمكان، منذ موتها وأنا أبكي كل ليلة، وأتحدّث إليها حتى هذه الليلَة يا صبا، بعد مرور كل هذه السنين أبكيها، أتت المهدئات ثمارها، وبدأت حياتي

تعود لطبيعتها بعض الشيء، بدأت أُباشر عملي وكدّي نهارًا، أمّا ليلًا؛ فأعيش فقط مع ذكرياتي وطيف حبيبتي الذي لا يُفارقني لحظة، عزفت عن الزواج سنينًا طويلة حتى بدأ الشيب يُلوّن سواد رأسي، وفي أحد الأيام دُعيت إلى عرس أخت صديق مقرّب لي،لم أستطع رفض دعوته وربما كنت أستطيع، لكنّه القدر الّذي ما كنت أعلم أنّه يُخبيء ليَ المفاجآت!

رأيتُها هناك تقف جانب العروس، فظننت أنني بدأت بمرحلة الهذيان التي تُصيبني فتجعلني أرى وجه حبيبتي في كل من حولي، أغمضت عينيّ لثوانٍ، ثم فتحتهما فوجدتني أرى نسخة منها واقفة أمام ناظري، سألتُ صديقي بهدوءٍ عنها؛ فأخبرني أنّها صديقة العروس، شردت بالفراغ، فمال عليّا هامسًا:

ـ بالمناسبة، هي ليست متزوجة، وسمعت من أختي يومًا أنها تعشق شاعرًا يُدعى زين العابدين، الطريق مفتوح لك يا صديقي.

قال جملته الأخيرة مُبتسمًا، غامزًا لي فنهرته،كيف يُفكر في أمر كهذا!كيف لي أنا أخون حبيبتي، وأقبل بأخرى، حتى وإن كانت تُشبهها! بدأت أشغل نفسي عن النظر إلى وجهها بكل شيء حولي، ومع الأسف كلما نظرت لركن يَحُثُّني على استراق النظر لوجهها الملائكي، جذبني صديقي واقترب من العروسين؛ حيث تقف جانبهم هذه الفتاة التي جذبت كل حواسي، وحينما اقتربنا منهم صرخت بانفعال «الشاعر زين العابدين؟».

غمزني صديقي، رسمت ابتسامة مُتوترة وأجبت بإيماءة رأسي؛ فاعتذرت لانفعالها، وأوضحت أنّها تُتابع دواويني أولًا بأول، وأنني من أفضل الشعراء الذين تتلذ بقراءة كلماتهم، شكرتها وتصنّعت

الانشغال بالمباركة للعروسين، انزويت بعيدًا عن الصخب، وشردت في «صباي» حتى سمعت صوتًا ناعمًا ينتشلني من لَجّةِ أفكاري قائلًا:

ـ هل لي بتوقيعك على الديوان الأخير؟

التفت إليها مُتعجبًا:

ـ وهل دائمًا تحملين الدواوين في الأعراس؟

ضَحِكَتْ فأربكت دقات قلبي، ثم قالت:

ـ دواوينك فقط سيدي التي أصطحبها معي أينما ذهبت، فكُلّما شعرت بملل؛ أقتله بكلماتك.

ابتسمت لها امتنانًا، أخرجت القلم من جيب سترتي، تناولت الديوان وأنا أسألها عن اسمها؛ فأجابت:

ـ هدى اسمي «هدى سالم».

لا أعلم لِمَ كنت مُنتظرًا أن تقول «صبا»! رفعت عيني، فغرقت في بحور عينَيها الحالمتين، ذكّرتني عيناها بلحظة وقوعي في عشق «صبا» من النظرة الأولى،لم أكن أرى «هدى»، ولا أنظر لها، بل كنت أرى أمامي «صبا «، تركت العرس ذلك اليوم وهربت، عدت لطيْفِ حبيبتي أطلب منها غفران خيانتي الأولى لها، كانت كلما أغضبتها تُسامحني شريطة أن أكتب فيها قصيدة، إلّا حينما تغار لم تكن قصائدي تُرضيها! سمعت بالخارج صوت الرعد مُدوّيًا، وأضواء البرق تشق السماء؛ ففزع قلبي وتذكرت نوبات غضبها، شعرت أنّها الآن غاضبة مني أكثر من أي مرة مضت، هذرمت نحو أوراقي وقلمي وعكفت على الكتابة، لا أعلم كمْ مرَّ من الوقت وأنا أكتب، لكن ما أعلمه أنني لم أبرح مكاني حتى كتبت ديوانًا لها!

ثم أخرجت صورنا وذكرياتنا، وطفقت أبكي وسطها وأنوح، ومن ليلتها قررت الانعزال، مرَّ شهرٌ وأنا حبيس شقتي، أُنفّذ حكمًا أنا من حكَمَه على نفسي،لم أكن أفتح الباب لأي طارقٍ حتى أصر أحد أصدقائي وهو بذات الوقت طبيبيَ النفسيّ ولم يغادر المكان حتى فتحت، فقط سألني «ما بك؟» وكأنني كنت أنتظر هذا السؤال؛ لأُطلق سراح لساني بعد أن تقيّد لشهر لا يتحدث إلى مخلوق، بدأت أقص ما حدث فعلّق:

«أنت مريض بصبا يا زين، مريض بعشقها، هي المرأة الوحيدة التي استعمرت قلبك، فاختصرت فيها نساء الكون حتى أصبح عشقها مرضًا تملّك قلبك وعقلك، وإن استسلمت له أكثر من ذلك قريبًا ستكون أحد ساكني مصحتي للأمراض العقلية، أصبحت كمدمني المخدرات، تحتاج للعلاج من إدمانك يا صديقي، ابتعد عن هنا، أنت لففت نفسك بخيوط الذكريات، وجلست تبكي مكانك من الاختناق، اترك هذه الشقة، اذهب إلى أبعد مكانٍ عنها، وابدأ ببناء حياة جديدة، صدّقني لن تكون خيانة لها، لو كانت على قيد الحياة لما أعجبها حالك. هيا، قم الآن هذّب هذا الشعر الأشعث وانفض عنك غبار الذكريات، لن أبرح المكان حتى آخذك منه، أردت أن أذهب في رحلةٍ إلى الإسكندرية، وقررتُ- نيابةً عنك- أنك ستأتي معي، هيا بنا».

لم يُمهلني الفرصة لأتفوّه بكلمة، وبعد أربع ساعات وجدت نفسي جالسًا أمام البحر، كان لا يتركني وحدي أبدًا، يُحاول شغلي بشتّى الطرق حتى تحسّنت حالتي. مرَّ أسبوعان ولم أَمَلّ من بحر

الإسكندرية، كنت جالسًا أمامه حينما جاء صديقي، ووضع فوق قدمي كتابًا، رفعت أحد حاجبيّ وأنا أجد اسمي منقوشًا على الغلاف، فتحت الديوان؛ فاتسعت عيناي، وسألته:

_ كيف خرجت هذه القصائد من بيتي؟ وكيف يتم نشرها دون عِلمي؟

سحب كُرسيًّا، وجلس جانبي ناظرًا للبحر صامتًا لثوانٍ، ثم قال:

_ خرجت معك من القاهرة، حينما كنت أُعِدُّ حقيبتك وجدت الديوان على مكتبك؛ فلم أستطع منع فضولي من قراءة أولى الصفحات، علمت أنه الديوان الذي أخبرتني عنه، أرسلته لدار النشر، وبالمناسبة الديوان مطبوع من أسبوع.

وقفت غاضبًا، وهتفت بحدة:

_ بأي حق تفعل ذلك؟ أنت صديقي المقرب، وطبيبي المعالج، ولكن لا حقَّ لك بأن تنشر شيئًا لي دون علمي، لم أكن أريد نشره، هو خاص بها هي فقط، وليس عامة الناس.

ردّ بهدوءٍ:

_ ولكنّها لم تعد موجودة لتقرأ يا صديقي، هي حتى لم تعد موجودة لتغضب منك أو تغار عليك، فتخطب ودَّها بقصيدة! أعلم أنك لا تنشر القصائد التي كتبتها لها، وأظنك هنا لتبدأ حياة جديدة، وقد أذنت لي أن أساعدك، وها أنا أساعدك، اجلس يا زين هيا لا تنظر لي هكذا.

أمسك معصمي وجذبني لأجلس، جلست غاضبًا من تصرفه، فأشعل غضبي أكثر قائلًا:

_ نسيت أن أخبرك، الليلة سيُقام حفل لنجاح ديوانك.

سألته غاضبًا:

_ هل تمزح معي؟!

_ لا أمزح، سيُقام الحفل الليلة هنا بالإسكندرية.

لم أُعلق، شعرت أن جسدي يغلي، وربما أنفجر فيه بأي لحظة؛ لذا تركت الديوان، ونزعت ملابسي غير مُبالٍ ببرودة الجو الذي بدأ يجلدني بسياطه، أغرقت جسدي بماء البحر؛ علّه يُطفيء ثورته، ولم أخرج منه حتى هدأت.

لم أحتكّ به، ولزمت غرفتي؛ فاقتحم عُزلتي حاملًا سترة جديدة، ويطلب منّي أن أستعد للحفل، نظرت له بلا مبالاة، ثم تمددت على سريري، وتصنّعت محاولة النوم، فشد الغطاء عن جسدي، قائلًا:

_ إن تحدثت بصفتي طبيبك؛ فلتعلم إن شئت أو أبيت أنّ هذه طريقتي، وأنت لجأت إليّ فلتتحمل، أما إن تحدثت كصديق، فسأرجو صديقي ألَّا يخذلني، وأن يتعافى بأسرع وقت ممكن، فأنا أحتاج إلى ضحكته التي غابت منذ زمن، أحتاج لقوّته التي كانت تُساندني وتشد أزري دومًا، أنا أنتظرك بالأسفل يا صديقي.

قال جملته، وخرج غالقًا الباب خلفه، نظرت للباب ثم للسترة التي تركها مُعلّقةً خلفه، زفرت بحنق وأنا أنفض ما تبقّى من الغطاء عن قدمي، احتجت نصف ساعة لأكون جاهزًا واقفًا أمامه بالبهو، ابتسم وربّت على كتفي، لم أنبس ببنت شفة فقط سبقته إلى السيارة، وصلنا

للحفل، كان صغيرًا أغلبه يضم أصدقاءنا المشتركين وأصدقاءه وبعضًا من قُرّائي. رسمت ابتسامةً مُتَكَلِّفَةً وجلست وسطهم أُطالع الساعة التي تُحيط معصمي كل دقيقة، أحتاج لأن أكونٍ وحيدًا،لم أعد أحتمل، اعتذرت وانزويت بالفناء أملأ رئتي بالهواء وأُراقبهم من بعيد، حتى تجمدت في مكاني. فجأة، أغمضت عينيّ لثوانٍ، ثم فتحتهما لأجد الشتاء استحال إلى ربيعٍ قادم نحوي يتهادى بدلالٍ مُرتديًا فستانًا أبيضًا من الحرير الناعمٍ ذا فتحة تكشف عن عُنق مرمريٍّ تعلقت به قلادة ألماسية لامعة، نُقشت عليه الزهور والفراشات، جمعت شعرها البُنّي الناعم في لفةٍ رقيقة على جانب كتفها الأيسر،لم أنسَ طلّتها ذلك اليوم، كانت حقًّا جميلة بل فاتنة مُبهرة، تقترب منّي كـ «سندريلا»، دخلت فقلبت موازين الحفل وأشعلت قلب الأمير، وقفت أمامي باسمة الثغر، قائلةً بالفرنسية «مساء الخير».

كنت أنظر إليها مشدوهًا، فرفعت أحد حاجبيها لأنتبه أنني أتفحصها منذ دخولها، خفضت بصري وحاولت السيطرة على أنفاسي المُتلاحقة، عدت أنظر إليها مُتصنّعًا الجمود،لم أرد تحيّتها بل سألت بحدة غير مقصودة:

_ لَمَ أتيتِ؟!

تلاشت ابتسامتها، وقطّبت جبينها سائلةً:

_ هل يُزعجك وجودي؟!

تنبّهت لحدتي بالحديث معها، فاعتذرت مُتعللًا بأني لا أحب الحفلات، ضحكت وقالت: «وأنا أيضًا لا أُحبها»، صمتت لثانية، ثم أكملت:

_ لكن حينما عَلِمت أنّ ثمة حفلٍ لك، هنا نسيت أني لا أحب حضور الحفلات.

سألت مُتسع العينين:

_ وهل أتيت من القاهرة؛ فقط لحضور الحفل؟!

رفعت حاجبيها، ثم أخفضتهما بهدوء، وقالت:

_ بالمناسبة أنت من أتى إلى الإسكندرية، أنا أسكن هنا وذهبت إلى القاهرة؛ لأحضر عرس صديقتي.

مرة أخرى يقودني القدر إليها، هربت من القاهرة بسببها ولم أكن أعلم أنّي هربت إليها.

_ تفضّل، هذه المرة قررت أن أغتنم الفرصة بما أنّك هنا؛ أحضرت كل دواوينك لتُوقّعها لي.

قالت هذه الجملة وهي تمد الدواوين إليّ، تناولتها ووضعتها على سور الفناء، طفقت أُوقعهم ديوانًا تلو الآخر، شكرتني باسمةً قبل أن تفتح الديوان الأول، وتبتر ابتسامتها مُتسعة العينين، قائلةً:

_ ظننت أنك مازلت تذكر اسمي! أنا «هدى» ولست «صبا»!

تناولت الدواوين من يديها، فوجدتني أكتب اسم «صباي»، اعتذرت مُتلعثمًا:

_ آسف، أنا مُتعبٌ للغاية، ولم أُركّز من كثرة التوقيعات، أعتذر آنسة «هدى» لحظة سأُصلح الاسم.

شطبت اسم «صبا» وكتبت بدلًا منه «هدى»، ولم أكن أعلم وقتها أن القدر يُنبهني بأن «هدى» لن تشطب فقط اسم «صبا»، الذي زيّن دواويني لتستبدله باسمها، بل ستكون طامعةً بشطبه من قلبي.

رأيتها بعد يوم الحفل مرّتين قدرًا، وبعد أن عدت للقاهرة كانت هي الضيف الأساسي بأي حفل أو مكان أتواجد فيه، عَلِمتُ أنّ والدها توفي؛ فانتقلت للعيش بالقاهرة بعد وفاة والديها، فلم يعد لها أحد سوى أخيها «عبد القادر»، ويعيش بالقاهرة لذا كان عليها أن تنتقل، ربما لم تكن هذه الظروف هي السبب الحقيقيّ بل قدرنا، أصبحنا نلتقي كثيرًا، تسللت إلى حياتي دون شعور منّي حتى أصبحت أتشوّق لرؤيتها والحديث معها، تحسّنت حالتي بوجودها جانبي، فنصحني صديقي بأن أتزوجها. في البداية، كنت مُستبعدًا فكرة الزواج، وأظنها مستحيلة حتى أخبرتني أن ابن عمّها طلب يدها للزواج، اشتعلت الغيرة في قلبي ووجدتني أذهب لأخيها، وأطلب الزواج منها دون تفكير. في البداية، رفض لفارق السن الكبير بيننا، ولأنني أرمل ولكنّه رضخ أمام إصرارها ووافق،لم أُتح لنفسي فرصة التعرّف عليها عن قرب، التعرّف عليها كشريكة حياة، فقط كانت تُسيطر عليّ فكرة امتلاكها،كنت ظانًّا أن مشاعري لها وأنني أُحبها، ولكن بعد شهور من الزواج اكتشفت أنني فقط كنت أبحث عن «صبا» وأحاول تعويض غيابها بـ «هدى»، ظننت لأن ملامحها تُشببها كثيرًا ستكون مثلها في كل شيء، لكنّها كانت بعيدة كل البعد عن صباي، لم تكن تُغضبني أبدًا ولا تُجادلني، تسلك كل السبل لترضيني وتسعدني. ابتعدت عن هواياتها واستبدلتها بهواياتي، كانت تُقلّدني وتُحاول أن تُصبح نسخةً أخرى منّي، أي رجل كان سيسعد بامرأة مثالية كهذه، لكن أنا لم أكن سعيدًا، أريدها أن تكون نسخة أخرى من «صبا» وليس منّي أنا،كنت أطرح المواضيع المختلفة بيننا اشياقًا



لجدال «صبا»، وليس الخضوع بـ «حاضر، معك حق»، حتى وإن لم يكن معي الحق!

أختلق المشاكلَ اشتياقًا لعنادها وغضبها، أشتاق للفترات التي كانت تغضب مني فيها، وتُعاقبني بهجري والانعزال بغرفة أخرى؛ فأخطب ودّها بالقصائد واقفًا أمام بابها المُوصد حتى ترضى عنّي، اكتشفت أن سر عشقي لصبا كان روحها؛ لذا اشتقت إليها أكثر مما كنت أتوقع، واكتشفت فجأةً أنني لم أحب «هدي» قط، بل كانت مجرد دواءٍ ظننت أنّه سيشفي علّتي، لأجده مُسكّنًا مؤقتًا للآلام، وبعدما ينتهي مفعوله ستعود آلامي أقوى مما كانت، وهذا ما حدث. ذهب مفعول سحرها؛ فوجدتني أعود لإدماني «صبا»، عدت لسهري وذكرياتي وبكائي ليلًا، لاحَظَت ابتعادي عنها ولم تشكُ، أو تتذمر؛ فشجعتني لأبتعد أكثر وأُحيي عشق «صبا» من جديد. زادت الفجوة بيننا، وفكرت كثيرًا في طلاقها، اتخذت القرار، وطلبت منها أن نتحدث قليلًا،كان وجهها مُشرقًا على غير عادتها، وكل ملامحها تبتسم، قالت:

_ وأنا أيضًا أود الحديث معك بأمرٍ هام.

_ حسنًا، أنتِ أولًا.

صمتت قليلًا، وبدأت الدموع تملأ عينيها، ومازال ثغرها باسمًا، فلانت ملامحي، وسألت:

_ هل تبكين!؟ ما بك؟

لم ترد، بل عانقتني، وتلك هي المرة الأولى التي يطول فيها عناقها دون أن تخجل كعادتها، تَمتَمت بصوتٍ متهدج: «أنـ.. أنا حامل».

اتسعت عيناي، وقلت: «لم أسمع، ماذا قلتِ؟» أعادتها بصوت أعلى «أنا حامل، أنا حامل يا زين»، تسمّرت مكاني، وارتخى جسدي، فارتخى عِناقها، وعادت للخلف تنظر لي بتوجس:

_ لِمَ أنت واجم هكذا؟! ألم يُفرحك الخبر؟!

تصنّعت الابتسام، وأجبت:

_ لا.. لا، بل أسعدني كثيرًا، إنّها فقط المرة الأولى التي أُجابه موقفًا كهذا.

عادت ابتسامتها، وعاد عناقها فعانقتها مُتصنعًا السعادة؛ حتى لا أكسر فرحتها، نظرت إليّ سائلةً:

_ صحيح، ماذا كنت تود إخباري؟

_ لـ.. لم يعد يهم، دعينا ننسى كل شيء، الآن نحن ننتظر ضيفًا جديدًا سيُنير حياتنا.

هذه الليلة،لم تتركني ونامت بين ذراعيّ، كلما حاولت أن أسحب جسدي الملتصق بجسدها؛ لأنفرد بنفسي قليلًا، تستيقظ وتلتصق بجسدي أكثر، جافاني الكرى، وأنا أفكر في المولود المزعج الذي أفشل كل مخططاتي، وربطني بهدى في نفس اليوم الذي قررت فيه قطع أحبال الوصال بيننا. لا أخفيكِ سرًّا كنت مُنزعجًا من حملها،لم أشعر بفرحة الأب، بل شعرت أن هذا الجنين سجن مؤبد لي، انقضت الشهور التسعة سريعًا، وجاء يوم الولادة، أظنه لم يكن يوم ولادتك فقط يا صغيرتي، بل ولادتي أنا أيضًا من جديد، كنت مُنتظرًا مع عبد القادر وزوجته بالخارج، أنظر إليهما والقلق بادٍ على وجهيهما؛ مُحاولًا التفتيش عن القلق داخلي فلم أجده! ربما كان قلقي الوحيد



على حياتي التي ستتعكر أكثر بعدما يأتي هذا الضيف الثقيل. سمعنا صراخك وأُقسمُ أن قلبي كان يخفق بشدة، شعرت للحظة أنني مُتلهّفٌ لرؤيتك، خرجت الممرضة تحملك وتُهنئنا بقدومك، تناولتك منها بيدين مُرتعشتين، نظرت لوجهك الملائكي فشعرت فجأةً أنني «أب». قذف الله بِحُبكِ في قلبي، وجدتني أضمك إلى صدري، وأبكي لا أعلم هل هي دموع فرح لم يكن له وجود مذ علمت بحمل والدتك، أم ندم لأنني لم أكن أريدً قدومك؟

حملتك بين ذراعي طيلة الوقت ورفضت أن أُعطيك حتى لوالدتك، كنت مُتيّمًا بكِ من اللحظة الأولى يا صغيرتي. سأَل عبد القادر:

_ ماذا ستُسمّون هذه الحلوة؟

_ «صبا».

قُلتها باسمًا دون وعي منّي ولا تخطيط مُسبق، حتى أنها سألتني مرارًا عن الاسم الذي أحب تسمية الجنين به، وكنت أقول «اختاري أَنت ما تشائين»، لم أكن أنظر إليهم، كنت أنظر لعينيكِ الساحرتين وأنَا أنطق باسم «صبا»، ولم أفهم نظرات والدتك الغريبة لي يومها إلا مُتأخرًا!

كنت مُتيّمًا بمراقبتك وأنتِ تكبرين يومًا بعد يوم، كلما مرَّ عام تشبهين «صبا» أكثر حتى طباعَك كانت نفس طباعها، وكأنكِ ابنتها هي لا «هدى»!

مرت السنون، وكبرتِ، فأصبحتِ أقربَ رفيقٍ لي، وأنا أُهمل والدتك، وكأنها ليست موجودة بعالمي، كل اهتمامي وحبّي وخوفي لكِ فقط، نسيت أنّها زوجتي، ونسيت أيضًا أنها والدتك، شجعني

على أنانيتي صمتها الدائم، تمنّيتُ لو تثور مرة أو تشكوني، دائمًا أرى الحزن في عينيها وملامح وجهها الذي تجاهد أن ترسم عليه ابتسامة باهتة، كانت «هدى» زهرة يافعة وأنا دخلت حياتها فذَبُلت، كانت ربيعًا، أرادت أن تنثر من ربيعها على شتائي؛ فأحلْتُه أنا لشتاءٍ قارس البرودة، أعترف أنني أناني يا «صبا»، كسرتها واستغليت طيبتها، لكن لا تُنكري أن طيبتها أيضًا كانت سببًا لأظلمها، فالظالم حينما يجد المظلوم خانعًا راضيًا صامتًا لا يثور، يزداد ظلمه رغمًا عنه، ازداد ظلمي لها حتى أصبحت أعاملها بقسوة، لا أعلم السبب! أظن لأنني كلما نظرت في عينيها احتقرت نفسي! أمقت هذا الشعور؛ لذا قسوت عليها».

عادت «صبا» لذكريات طفولتها، ترى أمامها الآن والدها يصرخ في وجه والدتها، ويُعاملها بجفاء؛ فتصمت وتبتلع مرارتها، تنزوي في غرفتها وتبكي فتتسلل «صبا» خُفية، تربت على ظهرها وتُواسيها باكيةً،لم تستطع نسيان آخر يوم جمع ثلاثتهم سويًّا. استيقظت على صراخ والدتها؛ فهرولت للبهو تضم دميتها المقرّبة، وجدته يضربها بعنف، وقفت تُراقبُ مُنزويةً في أحد الأركان تسيل دموعها بلا انقطاع، وتكتم شهقاتها حتى رأتها والدتها؛ فابتسمت لها رغم اللكمات والضربات المُنهالة على جسدها، وأشارت إليها أن تدخل إلى غرفتها، فلم تشعر «صبا» بنفسها إلا وهي مُنطلقةٌ كالسهم نحو والدها تضربه بدميتها، وتجذبه ليبتعد عنها، تلك الليلة بكت كثيرًا حتى داهم عينيها النُّعاس واستيقظت لتجد كل شيء هُدم، ووالدتها تُعلن الانسحاب من حياتهم، سالت دموعها عندما تذكّرت مشهد

والدها يقتلعها من بين ذراعيها وهي تشد على يدها وترجوها ألا ترحل، تهز رأسها مُحاولةً نفض كوابيس طفولتها من رأسها. عادت للقراءة، مرت بعينيها سريعًا على حادث هذا اليوم المقيت، ولم تُعيد قراءته؛ فهي تحفظ ما حدث فيه عن ظهر قلب، وقفت عند السطر الذي سيُجيب على فضولها:

«أتدرين؟ أنا نفسي لا أعلم لِمَ قسوت عليها لهذا الحد، كنت أضربها دون وعي، حينما رأيتها تجلَس في مقهى مع ابن عمّها، والذي تقدّم لخطبتها قبلي، اشتعلت غيرتي ليس لأنني أحبها، بل لأنانيتي التي جعلتني أشعر أنني امتلكتها، وكيف سوّلت له نفسه أن يقترب من شيءٍ يخُصُّني!

لم أشعر بنفسي إلَّا وأنا أجذبها أمام الناس، دفعتها داخل السيارة، وبمجرد وصولنا للبيت بدأت أنهال عليها بالضرب حتى استيقظتِ أنتِ، وأفقتيني بدميتك وضربكِ في صدري بيديكِ الصغيرتين، رغم صِغر كفيك تألمت كثيرًا، وكأنكِ تملكين قبضة من حديد!

خارت قوتكِ وفقدتِ الوعي، أفقناكِ فطفقت تبكين حتى غلبكِ النُّعاس. كنت أتأملكِ بأسى وأنا أصب جام غضبي على نفسي وأنانيتي، خرجت للبهو فوجدت «هدى» جالسة تضع على الطاولة أمامها الكثير من أوراق الجرائد، المجلات القديمة، وورود ذابلة، ودواويني التي كانت دومًا تشتريها، قلّبت بصري بينها وبين هذه الأشياء، ثم اتسعت عيناي وأنا أراها تضع ذكرياتي مع «صبا»، والتي خبأتها جيدًا في غرفتي أمامها، وقبل أن أنطق بكلمة؛ قالت كلمات لم أنسَهَا طيلة حياتي:

_ أترى هذه الأشياء السخيفة التي أضعها أمامي؟ يُسمونها ذكريات حب، أنا أراها غير ذلك، هي أكبر دليل أثبت لي أن الحب ذل، الحب الذي جعلني أقبل بالهوان والذل فقط لأكون جانبك! اُنظر لأوراق الجرائد والمجلات،كنت أتلهّف شوقًا إليها لأقص صورةً لك منها، وأضمّها لمجموعتي التي ملأت جدران غرفتي، دواوينك كانت وردًا يوميًّا أقرأه حتى حفظت قصائدك ربما أكثر منك، كنت أعشقَك قبل أن أراك، وحينما تحقق حلمي وأصبح سقف واحد يضمّنا بذلت كل ما بوسعي لأرضيك، كنت أتعجّب كثيرًا، وأسأل نفسي ما العيب فيَّ!؟ وما الخطأ الذي ارتكبته من دون قصد؛ لأشعر أنك معي جسد بلا روح؟ حتى وجدت هذه الأشياء التي خبأتها في غرفتك، والتي هي أيضًا دليل على أنّ حبك لصبا ذلٌّ وسجن سجنْتَ نفسك فيه بإرادتك سنينًا ومازلت. حبها دفع بك لأن تذلّني وتُدمر حياتي وأحلامي، أكنت تظن أنني لا أعلم بما تُخفيه عنّي كل ليلة؟! كنت تبكي بغرفة أخرى على أطلالها وتظُنّني أغط في نوم عميق، ولا تدري أنني كنت أبكي مثلك بغرفتي على أطلال حبّي لكَ، تُخرج ذكرياتكما، وتتحدث إليها كما لو كانت معك، وأنا أيضًا كنت أُخرج هذه الذكريات، أتحدّث إليك وأغرق في أحلام يقظتي بما أردت أن أعيشه معك على أرض الواقع، أستيقظ كل ليلة خائفة من «أنت طالق»؛ لذا لم أكن أرفض لك طلبًا ولا أُجادلك في شيء؛ خوفًا من أَن تُطلّقني؛ لأنني كنت أعشقك ولا أتخيل حياتي بدونك، كما أنني خفت أن أكون عِبئًا على أخي في مُجتمع لا يرحم المُطلّقات،لم يكن لي أحد سواك فكسرتني وظلمتني، وزدتَ أوجاعي وجروحي جُرحًا

آخر حينما اخترت اسم «صبا» لابنتنا، يوم نطقت بالاسم كُسرت فرحتي بمولودتي الجديدة، وبعد كل هذا الصبر تتهمني بالخيانة دون وجه حق، ودون أن تعطيني الفرصة حتى لأدافع عن نفسي! صدقًا لم أعد أحتملك، اعلم أنني لن أُسامحك ما حييت يا زين، لن أسامحك يا ظالم.

ثم صرخت بقهر: طلّقني!

وقفت أنظر إليها مبهوتًا، «سكتت دهرًا ونطقت كُفرًا»، طلبت منها أن تشرح لي ماذا كانت تفعل مع ابن عمّها، ولكنّها أجابت «فات الأوان، ولم يعد يهم إن علمت أو لا»، لأول مرة أشعر بالخوف من فقدانها، قُلت باستعطاف:

ـ هل حقًّا تُريدين الطلاق؟

ـ أنت من أراد ذلك منذ أكثر من أحد عشر عامًا، أتذكر؟ يوم أتيتك أُخبرك بحملي، أعلم أنك وقتها كنت تنوي طلاقي ومنعتك صبا،لم أعد أحتمل الألم، أنا هنا مُجرد خادمة لك ولابنتك يا زين. حتى ابنتك سلبتني حق أمومتي لها، تُبعدها عنّي وكأنني مجرد مُربّية تستأجرها لا أم! لم أشعر منذ تزوجتك أنني زوجة مُكرّمة، نبهني أخي، تحديته فخذلتني سامحك الله، أنا ببيت أخي أنتظرُ ورقة طلاقي.

تَقَدَّمَتْ نحو الباب، فهتفت بغضب:

ـ إن خرجتِ من هذا البيت الآن؛ لن تعودي له أبدًا.

وقفت مكانها فظننتها ستعود، ولكنّها اقتربت من الباب وفتحته، وقبل أن تخرج ناديتِ عليها، وتشبّثتِ بملابسها فنَزَعْتُكِ من بين ذراعيها، وأحلتُ بينكما وأنتِ تصرخين، وتطلبين منها أن تبقى،

قهري لها كان أكبر من أي شيء في هذه اللحظة، فتركتنا ورحلت، عزمت على الانتقام وأن أحرق قلبها عليك رغم أنني حرقته بالفعل منذ زمن! نقلت أعمالي لـ «لندن»، وخاصةً بعد أن مات أخي وترك لي أولاده لأتولّى مسئوليتهم. بعد الطلاق، سافرنا إلى لندن دون أن أخبرها عن مكاننا، كُنْتُ سابقًا نقطة ضعفها وحينما فقدت السيطرة عليها، قررت أن أنتقم بكِ، تقصّيت أخبارها من بعيد وازداد غضبي حينما علمت بزواجها من ابن عمّها، أثبتت شكوكي نحوها، فلم أكتفِ بحرمانها منكِ، بل لم أكن أذكرها لكِ إلا بالسوء، وأُقنعك أنها خائنة؛ تركتكِ لتعيش حياتها مع حبيبها حتى كرهتيها، أعلم أن قدوتكِ الآن تسقط من ناظريك، تحتقرينني أليس كذلك!؟ صدقيني احتقرت نفسي بما يكفي، عاقبتها وصلّيت كثيرًا ليغفر الله لي ويُسامحني. لقد أعماني ظُلمي وكِبري أن أعطيها حق الدفاع عن نفسها، أو أن أسمعها في آخر فرصة كانت لي لأُصلح ما أفسدته في حياتها. بعد عودتنا من لندن، زرت الشقّة، وحينما فتحت الباب تلعثمت بأظرفٍ مُلقاة على الأرض، يبدو أن أحدهم كان يُرسل الخطابات من أسفل عُقْب الباب، رفعتها عن الأرض، وتصفّحتها فلم أجد شيئًا ذا أهمية حتى تسمّرت عيناي على ظرف كُتب عليه اسم زوج والدتك، فتحته وقرأت ما كتب بخطابه، وتمّنيتُ وقتها أن تنشق

الأرض وتبتلعني، لقد أرسله لي بعد سفرنا ليُخبرني بالحقيقة حينما بحث عنّي ولم يجدني، اتهمت «هدى» بالخيانة ظُلمًا، والحقيقة أنّها كانت مريضة، وأخفت عنّي وعن أخيها الأمر، الوحيد الذي كان يعلم هو طبيبها «ابن عمها»، والذي قابلها صدفةً بالمشفى حينما شعرت

بآلام غير طبيعية، وذهبت هناك لاستشارة الطبيب. ويوم رأيتها، لم تكن جالسة معه، كان يتحدّث إليها بالقرب من المقهى الواقع أمام المشفى، ويُقنعها بسرعة الخضوع للعلاج وعدم إهمال حالتها. شَعُرَت بدوار فأجلسها على أقرب كرسي في نفس اللحظة التي أتيت فيها لعمل بالمشفى، ورأيتها بالمقهى وهو يجلس مُقتربًا منها إلى حد أشعل غضبي وأعماني لأفعل ما فعلت وأدمر كل شيء. مرض قلبها من قهري لها يا «صبا»، أهُناك بشاعة أكثر من ذلك؟! حاولت كثيرًا أن أذهب إليها، وأطلب منها السماح، لكن مع الأسف فات الأوان لمُسامحتي، وهل «آسف، سامحيني» ستُعيد شيئًا مما فات؟! هل ستجعل جراحها تندمل؟ ستُعيد صحتها وشبابها!؟ لا شيء سيعود، هدمت كل شيءٍ وانتهى الأمر. كُنت خجلًا من رؤيتها حتى أنني وقفت يومًا أمام باب عبد القادر أكثر من ربع ساعة مُترددًا، وحينها تشجّعت وطرقت الباب خرجت جارتهم لتُخبرني أنّهم بالإسكندرية. عزمت العودة مرةً أخرى، رغم شعوري بأنّها لن تُسامحني أبدًا. ومرّت الأيام والسنون ولم أعد، انشغلت بأمرٍ هام يتعلق بأرواح أبرياء، أظن أنّ الله أرسل لي أنا تحديدًا أمرًا كهذا لأُكفّرً عن ذنوبي وخاصةً ذنب «هدى» أنقى وأوفى امرأة قابلتها في حياتي، لن أُطيل عليكِ أكثر من ذلك. ما أطلبه منك أولًا هو أن تعودي لأحضان والدتك، عانقيها واطلبي منها أن تُسامحني، عوّضيها شبابها الذي سلبته يا صغيرتي، قررت أن أُقابلها وأعتذر لها، ولكنّي مازلت لا أظنها ستسامحني، وهذا حقها، سأفعل ما بوسعي وسأُرسل هذا الظرف معها، أما طلبي الثاني منكِ فهو عندما يأتيكِ شخصٌ يُدعى «د. إبراهيم نصّار» ثقي به، وبالفريق

الذي معه ثقة عمياء، وأعطيهم الأمانة التي تركتها عندك، مكان هذه الأمانة ستعرفينه بعدما تقرأين الورقة الصغيرة المطوية مع خطابي، فقط أعطيهم أمانتهم، ولا تُقحمي نفسك في شيء، ولا تثقي بأحد أبدًا سوى من ذكرتهم، ولا تُخبري أحدًا بهذا الأمر حتى والدتك. صغيرتي، أرجو ألَّا تنسي «بيت الجبل» أبدًا، يجب أن أتركك الآن. أرجوكِ سامحيني على ما فعلت، وسامحيني لأنكِ الآن تبكين، ولا أستطيع كفكفة دموعك، لا تنسي الدعاء لي؛ فقد انقطع عملي من الدنيا، ولم يبقَ لي سوى دعائك، أُحبكِ يا صغيرتي..

«والدك/ زين العابدين»

ظلت ناظرةً لاسمه الذي ذيّل الخطاب بعيونٍ دامعة، تُحاول تصنيف مشاعرها الآن، غاضبة منه، تُريد أن تلومه وتُعاتبه، ولكنّ قلبها لا يستطيع أن يقسو عليه، شعرت بدوار؛ فتركت الخطابات وتمددت على فراشها، أغمضت عينيها؛ فأحرقها لهيب دموعها. فتحتهما فسال خيط الدموع من ذنبهما، تأملت السقف الذي تحوّل الآن لصفحة ترى عليها ذكرياتها وذكريات طفولتها، كم عانت وحدها رغم أنّ والدها وفّر لها كل سبل الراحة، وكان قريبًا منها،لم يكن مجرد أب بل كان صديقًا لها. كان كل شيء ولكنّ ذلك لم يُعوضها عن فقدان الأم، كثيرًا تبكي في الخفاء اشتياقًا لضمّتها، بمراهقتها كانت تخجل من إخبار والدها بأمور كثيرة في حياتها، وتمنّت وقتها لو كانت بحياتها «أم»، أي بؤس هذا الذي عاشته، أيُ ظلم هذا الذي قاسته! أن تعيش اليُتم.. وأمُّها مازالت على قيد الحياة!

تُردد بحرقة «سامحك الله يا أبي»، تذكّرت آخر كلمات خطابه واسم «إبراهيم نصّار» الذي أرسل لها رسالة بالهاتف، فنهضت وفتشت بالمُغَلَّف عن الورقة المطوية، فتحتها وبدأت تقرأ، وحاجباها يرتفعان كُلّما قرأت سطرًا،لم تفهم شيئًا؛ فأعادت القراءة، ودون جدوى حتى انتشلها من تركيزها ومحاولاتها طرق «مازن» على باب الغرفة، طوت الأوراق سريعًا وأخفتها بالظرف، ثم وضعته في حقيبتها، وأَذِنَت له بالدخول. كان يطمئن عليها فطمأنته وطلبت أن يعودا للقاهرة في الصباح الباكر ولم يعترض. تمددت بالفراش، ولّته ظهرها وتصنّعت أنّها ستنام، فأطفأ الأنوار وخرج ليتركها تستريح، وأي راحة تلك التي ستجدها بعد ما قرأت!

كانت طوال الليل تتشظّى بين النوم والصحو، تسترجع كلمات رسالته التى حفظتها عن ظهر قلب، تشعر بما قاسته والدتها وحيدة، هي الآن بحاجة ماسّة لضمّة «هدى»، لأن تُقبّل يديها وقدميها، وتطلب منها الغفران على مافعلته هي ووالدها بها. سالت دموعها وهي تتذكر لحظات طفولتها معها وكُلّما لاحت ذكرى تمتمت «سامحك الله يا أبي»، جال بخاطرها رسالته الثانية، بدأت تسترجعها في ذهنها، وتُحاول فك خيوطها أو فهم شيء مما قال. وبعد مناوشات عديدة مع نفسها، استقر بها المطاف إلى أن تذهب للفريق الذي حدّثها عنه في رسالته لتجد إجابات تُرضي فضولها.

تنفّس الصبح وهي جالسة تسترجع ذكرياتها وتُفكّر في سر والدها، نهضت باحثةً عن «مازن» فوجدته نائمًا بالبهو. رقّ قلبها لحاله؛ فاقتربت منه وأيقظته بهدوءٍ مُعتذرة له عن حالتها البارحة،

ثم طلبت منه العودة للقاهرة الآن،لم يُناقشها، هو أيضًا يُريد العودة فانطلقت السيارة بهما إلى القاهرة،كان في طريقه إلى بيتهما حينما طلبت أن يتركها وحدها قليلًا في شقة والدها. أوصلها للشقة وأخبرها أنّه سيعود لعمله، أخذت جولة سريعة بها، وفي كل ركن تتذكر والديها، وقفت مُقطّبة جبينها ناظرة لأحد الأركان ترى أمام ناظريها طيفَ والدها يضرب والدتها ويُعنّفها في هذا المكان. تنهّدت بحرقةٍ هاربة من الذكريات إلى البهو، تجلس على الأريكة وتُمسك هاتفها، تعبث بأزراره بحثًا عن رقم الرجل الذي اتصل بها البارحة، اتصلت به وأخبرته أن لديها الظرفَ، وقرأت ما فيه لكنّها لم تفهم شيئًا، وطلبت أن تُقابله هو وباقي الفريق الذي ذكره والدها بخطابه.

***

وصلت أمام المركز التجاري في الموعد الذي اتفقا عليه، صفّت سيارتها ثم اتصلت به، طلب منها أن تترك السيارة وتدخل للمركز، تتجول قليلًا ثم تخرج من البوابة الثانية، وسيكون بانتظارها في سيارته التي أعطاها مواصفاتها ورقم لوحتها. أنهت المكالمة ثم فعلت كما طلب، أوصدت السيارة وتجوّلت بالمركز قليلًا ثم خرجت من البوابة الخلفية تُفنّد المكان؛ بحثًا عن السيارة حتى وجدتها. اتجهت نحوها بخطى حثيثة فوجدت رجلًا يجلس خلف المقود ويرتدي «كوفية» تُغطي نصف وجهه، يبدو أنّه كان يُتابعها بالمرآة منذ أن خرجت من البوابة وحتى اقتربت منه، فبدون أن ينظر لها فتح الباب وطلب منها أن تصعد ففعلت، وانطلق مُسرعًا بالسيّارة. بدأ القلق يُساورها من الصمت المُطبق عليهما؛ فسألته من يكون؟لِمَ هو حذر لهذا الحد!؟

وممن هو خائف؟ طلب منها أن تؤجل أسئلتها حتى يصلوا، حاولت السيطرة على سيل الأسئلة المتدفق في رأسها، وصمتت إلى أن وصلوا لأحد أحياء القاهرة الشعبية، صفّ السيارة، ونظر لها قائلًا:

ـ مش هنقدر ندخل بالعربية، هنركنها هنا، ونكمل طريقنا مشي.

هبطت من السيارة تُتمتم في حنق «وكمان لسّه هنمشي تاني في المكان ده! يا ترى مخبّي إيه يا بابا!». سارت خلفه من زقاقٍ إلى زقاق حتى توقّفا عند بيت أهلكه الزمان من طابقين، صعد فصعدت خلفه في حذر، تشعر أنّ هذا الدَّرَج المُتآكل سيهبط بهما، وقف أمام شقة بالطابق الثاني، نقر الباب القديم ست نقرات تكاد هي الواقفة جانبه تسمعها، فُتح الباب، دخل وطلب منها أن تتبعه، فعلت فأغلق الباب خلفها، تأملت الشقة حولها مشدوهة، حوائطُ مُشققة، كِلْسٌ مُتساقط وأثاث مُتهالك، طافت عيناها بالمكان حتى توقفتا عند الرجل الذي اصطحبها إلى هنا، خلع كوفيته وسترته فبانت ملامحه، ربما جاوز عِقده الثالث، طويلٌ نحيف، أسمر البشرة، عيناه سوداوان جاحظتان بعض الشيء، وشعره أسود مُجعّد، وآخر يقف جانبه من المؤكد أنه من فتح الباب لهما، تظن أنّه يُودّع العَقد الثالث، له جسد رياضي ضخمٍ قليلاً، شعرت للوهلة الأولى أنه أحد لاعبي الملاكمة أو ربما حارساً شخصياً لأحد الشخصيات الهامة، ذو بشرة خمرية، عيون بُنّية، أصلعٌ وله لحية خفيفة، عادت تنظر للرجل الأول سائلةً:

ـ أقدر أفهم بقى الحكاية كلها؟

ـ تقدري طبعًا يا فندم، بس ممكن ندخل جوّه عشان تتعرفي على باقي الفريق؟

تأففت وهي تسير خلفهما نحو إحدى غُرف البيت، فُتح الباب فرأت رجلًا وفتاتين في مقتبل عمرهم، وآخر كانت تعلمه جيدًا، رحّبوا بها بابتسامة صافية، فأماءت لهم مُبتسمة، طلب منها الرجل أن تجلس ففعلت، جلس بالكرسي المقابل لها، وقال:

ـ أولًا بنرحب بحضرتك وسطنا يا مدام صبا، إحنا ناويين ننفذ وصية دكتور زين- الله يرحمه- مش هندخّل حضرتك في أي حاجة، بس كل اللّي محتاجينه الأمانة اللّي متشالة عندك، وبعدها مش هتشوفينا تاني.

ـ لأ. أنا آسفة؛ مش هتحرك من هنا غير لما أفهم كل حاجة بالتفصيل من أولها لآخرها.

زمّ شفتيه، ثم نظر لهم فأعطوه إشارة خضراء ليتحدث، سحب نفسًا عميقًا، ثم زفر بهدوء قبل أن يقول:

ـ أحب أعرفك الأول، أنا دكتور «إبراهيم نصّار» تلميذ دكتور زين- الله يرحمه.

ثم أشار لمن فتح الباب:

ـ وده الأستاذ الصحفي «سعد هاشم».

ـ سعد هاشم؟ أهلًا وسهلًا، أنا قرأت لحضرتك مقالات قبل كده، لكن أول مرة أشوفك، بحيِّيك عليها وعلى شجاعتك.

شكرها باسمًا بودٍّ، ثم أكمل إبراهيم مُشيرًا للباقين بالترتيب:

ـ دكتورة سهيلة زوجتي، فاتن، المهندس فارس.



تأملتهم، بدأت بـ «سهيلة»، فتاة نحيفة وتظهر نحافتها في وجهها الخمري النحيل، ملامحها دقيقة، تمتلك قدرًا كبيرًا من جمال الملامح الشرقية، تُحيط عينيها السوداوين عُويْنات طبّية بإطارٍ أبيض رقيق، شعرها أسود طويل تركته مُنسدلًا على كتفيها، انتقلتْ ببصرها إلى «فاتن» ورأتها حقًّا- اسم على مُسمّى- فاتنة، هناك شيء في وجهها الأبيض المُستدير يجذب الناظر إليها، ويجعله- رغمًا عنه- يطيل النظر فيه، عيناها واسعتان خضراوان، قدّها ممشوق، وترتدي حجابًا ورديًّا يُشبه لون الورد الذي يُزيّنُ وجنتيها، لها ثغرٌ صغيرٌ باسمٌ، وحتى لا يبدو تصرُّفها غريبًا وهي تتأملها نقلت بصرها سريعًا إلى «فارس»، بدين قليلًا، شعره بُنيٌّ طويلٌ بعض الشيء، بشرته بين الخمرية والبيضاء، ربما بشرته بيضاء لفحتها أشعة الشمس، له عينان عسليان، تفترش الهالات السوداء تحتهما بشكلٍ ملحوظ، كما تُحيطهما عُويْنات سوداء بإطارٍ سميك. وقبل أن ينطقَ اسم الأخير الذي كانت تعرفه لأنه صديقٍ قديم لوالدها؛ قاطعته:

_ رجل الأعمال سمير السُّكري.

رجل ربما في عِقده الخامس أو جاوزه، قصير، بدين، لوّن الشيب شعره بالفضيّ اللامع، أماء قائلًا:

_ أهلًا يا بنتي.

_ أهلًا يا عمو، وأهلًا وسهلًا بحضراتكم.

نظرت لإبراهيم قائلةً:

_ اتفضل يا دكتور، كُلّي آذان صاغية.

بدأ يسترسل في الحديث،لم يكن أحد منهم يعرف الآخر، حلقة الوصل بينهم هو «زين»، جمعهم ليُصبحوا فريقًا يعمل بقلب وقبضة رجل واحد. بدأت الحكاية من ليلةٍ كان فيها إبراهيم ساهرًا في المشفى، دخل عليه أحد زملائه وطلب منه الذهاب لبيته وهو سيتطوّع ويأخذ «النوبتجية»، ولأنّه كان بالفعل مُنهكًا وافق شاكرًا زميله دون التفكير في السبب الذي يجعله يتخلّى عن وقت راحته، ويأخذ مكانه!

ركب سيارته مُتجهًا نحو بيته، تذكّر الهدية التي اشتراها لزوجته، أوقف السيّارة يضرب ناصيته براحة يده، يظن أنّه نسيها بدُرج مكتبه، عاد للمشفى وتعجّب حينما وجد سيارات مجهولة الهوية تقف أمام الباب، وهُناك حركة غير طبيعية بالمشفى، قرر أن يدخل ليُحضر الهدية، ويرى ماذا يحدث ربما تكون حادثة ويحتاجون إليه. دخل من باب الطوارئ ومنه إلى مكتبه، بحث عن الهدية فلم يجدها، اكتشف أنّها في جيب سترته التي يرتديها، زفر بغضب وعنّف نفسه، ولم يكن يعلم أن قدره جرّه إلى هنا؛ ليكتشف جريمةً بشعة تحدث بين أروقة المشفى، مدير المشفى وبعض الزملاء- ومنهم بالطبع زميله الذي عرض عليه أن يأخذ مكانه الليلة، بالتعاون مع أطباء أجانب- يقومون بعمليات مشبوهة وغير شرعية بالمستشفى ليلًا، وعلى رأسها تجارة الأعضاء.

اتسعت عيناها، فصمت إبراهيم قليلًا؛ ليرتشف بعضًا من كأس الماء الموضوع أمامه، ثم أكمل:

_ طبعًا مارجعتش البيت ليلتها، وحاولت أخرج، وعانيت عشان أقدر أخرج في الخفا، بمجرد ما بعدت عن المستشفى كلّمت



دكتور زين، ورروحتله البيت، حكتله اللّي شفته واللّي سمعته وما اتفاجئش، قالي إنه كان شاكك وأنا أكدتله شكوكه، ولأنه ساب المستشفى كنت أنا وسهيلة مراتي- اللّي لما عرفت أصرت تساعدنا- عينيه هناك. بذلنا مجهود كبير جدًّا، والحمد لله قدرنا نوصل لحاجات تدينهم، لكنّها ماكنتش قوية كفاية، وهنا جه دور العبقري فارس.

رفع «فارس» كتفيه بغرورٍ مُصطنع، قائلًا:

_ معاكَ المهندس فارس، عبقري كمبيوتر، وهاكر مش سهل، من الآخر أَنا خسارة في البلد دي.

رغم قلبها المنقبض مما تسمع؛ ابتسمت لطريقته الفُكاهية، لكزته فاتن في كتفه:

_ مش وقت هزارك خالص يا فارس.

_ حاضر يا باشا، عُلم ويُنفّذ.

ابتسم إبراهيم وهو يعود برأسه لصبا، مُستطردًا حديثه:

_ بما إننا من خلال مُراقبتنا وبطرقنا الخاصة قدرنا نحدد أسماء الدكاتره المُتورطين، دكتور زين طلب معلومات شاملة عنهم وعن سجلهم في أمن الدولة من ضابط تقريبًا اسمه «عمر».

ارتجف قلبها حينما سمعت اسمه، تنحنحت وحاولت التركيز فيما يقول «..»

_ وصراحة ماقصّرش، جابله تاريخهم من يوم ميلادهم، والغريب إن سجلُّهم نضيف ومفيش أي حاجة تُدينهم، أستاذ سمير السُّكري عيّن- على كل واحد اسمه مذكور في الملف اللّي جمعناه- واحد من رجالته يراقبه كويس جدًّا، ويكون عينه عليه طول

الوقت، في الوقت اللّي كان فارس شغّال فيه وقدر يقرصن حسابات كتيرة للمستشفى، وللدكاترة المتورطين. في نفس الوقت ده، الأستاذ «سعد هاشم» اتكلم في مقال عمل ضجة كبيرة عن تجارة السلاح والمخدرات والأعضاء، لكنّه في مقاله ماذكرش أسماء. مُجرد بس إنه أشار عنهم بحروف، دكتور زين قدر يتواصل معاه، وحقيقة تعبنا جدًّا عشان يثق فينا، ويتعاون معانا، قالنا الأسماء الحقيقية اللّي لم يتم ذكرها في مقاله. ويا للمفاجأة!، أسماء كتير منها اتكررت وشفناها عند الدكاترة اللّي في القايمة المشبوهة، وفيه مكالمات تمت بينهم وصور جمعتهم في حفلات، ماكُنّاش فاهمين أي حاجة هل دي مافيا تجارة أعضاء واللا سلاح واللا مخدرات؟! أستاذ سمير قدر يعرف إن فيه حفلة كبيرة قريب هيتجمع فيها كل رؤوس الفساد اللّي ملفاتهم وقعت تحت إيدينا. دكتور زين اجتمع بينا وقسّم علينا المهام، حددنا مكان الحفلة ووقتها، وعرفنا إنها خاصة جدًّا ومستحيل حد يدخل من غير دعوة. فارس مش بس مهندس كمبيوتر، هو كمان مُصوّر ومن خلال علاقاته مع مصورين البلد واللّي تقريبًا يعرفهم كلهم؛ قدر يجيب دعوة للحفلة، وبما إن إحدى مواهب فارس التقليد قدر وبجدارة إنه يزوّر دعوة باسمه كواحد من المصورين المدعوِّين لتغطية الحفلة، ومع الأسف اكتشفنا بعد الحفلة دي إن المافيا ماسكة كل فروع الفساد في البلد، تجارة أعضاء وسلاح ومخدرات وخطف أطفال ودعارة. اكتشفنا إنهم بيستغلّوا الملاجئ أسوأ استغلال، بيتبنّوا منها الأطفال لتجارة الأعضاء بالإضافة لأنهم بياخدوا البنات للدعارة، بيضحكوا على أطفال الشوارع، ويستدرجوهم ويخطفوا الأطفال

ويبيعوهم، شركات ومحلّات معروفة، مستشفيات ومؤسسات كتير خيرية مشهورة في البلد مجرد ستار لقذارتهم، كثفنا شغلنا واتّحدنا لحد ما قدرنا نجيب كل حاجة تدينهم من خلال الأوراق وكمان عملنا نُسخ منها على أسطوانات، تعبنا كتير وبقالنا سنين بنجمع في المعلومات دي، كنّا على وشك نكشف كل حاجة ونقلب التربيزة عليهم، لكن فجأة دكتور زين غيّر رأيه، بدأ يشدد علينا مانثقش في أي حد غير بعض. طلب مننا كل حاجة جمعناها وقال إنه هيشيلها في مكان أمين، ولو حصلتله حاجة نتواصل مع حضرتك، هو سايبلك ظرف فيه مكان الحاجة.

_ طيب وليه عمل كده؟!

_ هو مادخلش في تفاصيل ماقالش أكتر من إننا انكشفنا، ولازم نوقّف أي تجمُّع بيننا الفتره دي، رغم المخاطر اللّي عرّضنا نفسنا ليها دي كانت أول مرة نخاف فيها، ولما عرفنا إنه اتقتل؛ قررنا نكمل رسالته ومانوقفش.

_ لحظة، لحظة.. حضرتك بتقول اتقتل؟!

_ للأسف دكتور زين اتقتل يا مدام «صبا».

_ لأ، بابا خبطته عربية قصاد عيني.

_ دكتور زين قبل الحادثة بأيام اجتمع بينا، وكان بقالنا كتير ما اتجمعناش هنا، كنا فاكرين هنتكلم في أي حاجة تخص المافيا، لكن لقيناه قاعد معانا بنتكلم ونهزر ونضحك، فضل يوصينا على حاجات كتير في حياتنا، وأهمها إننا نكمل وننقذ أرواح الأبرياء اللّي بتضيع كل يوم، حسينا يومها إنه بيودعنا وبالفعل بعدها بأيام حصلت الحادثة،

واتبعت رسالة تهديد من رقم مجهول لأستاذ سمير السُّكري اتقاله فيها بالنص «بلاش تلعب بنار إنت مش قدّها، إلا إذا كنت حابب تحصّل صاحبك»، ساعتها اتأكدنا إن دي مش مجرد حادثة عادية، وإن دكتور زين- بالفعل- اتقتل.

بدأ الخِدر يسري في جسدها، تشعر بألم شديد يجتاح قلبها، آلام تنتشر في أنحاء جسدها، تسترجع كلماتٍ إبراهيم ويزداد صداعها وألم معدتها، تشعر بالغثيان، وضعت كفّها على فمها، وحاولت النهوض ولكنّ الدوار باغتها فجلست مكانها، نهضت «فاتن» وأسندتها إلى المرحاض، أفرغت ما بجوفها، ظلّت تغمر وجهها بالماء البارد، أغلقت الباب على نفسها، وطفقت تبكي بحرقة، سمعت «فاتن» نشيجها ونحيبها فطرقت الباب بهدوء، شعرت «صبا» أنّها لا تستطيع الوقوف على قدميها ففتحت الباب، أسندتها فاتن وأدخلتها غرفة أخرى غير التي كانوا فيها، أراحتها على سرير نحاسي قديم وُضع في مُنتصف الغرفة، ظلّت مُمددة حتى استفاقتً من دوارها، واعتدلت في جلستها؛ فسألت فاتن:

_ كويسة دلوقتي!؟

_ الحمد لله.

تأملتها هُنيهة، ثم قالت:

_ أنا عارفة اللّي إنتِ بتمرّي بيه صدمة مش هيّنة، أنا نفسي أخدت وقت على ما فقت من صدمة موت الدكتور الله يرحمه، كان بمثابة أب ليّا، بس إحنا لازم نتحرك لو مش عشان دكتور

زين وأرواح الناس اللّي راحت؛ يبقى عشان الناس اللّي هتروح في الرجلين، لازم تجيبي الأوراق اللّي عندك، ونتحد ونفضحهم.

أماءت، ثم نهضت وعادتا للغرفة، سألوها عن حالها؛ فطمأنتهم ثم جلست قائلةً:

_ دلوقتي أنا بالفعل معايا الظرف فيه جوابات خاصة من بابا- الله يرحمه- ليّا، وملهمش علاقة بالموضوع ده غير إنه وصاني أثق فيكم، وجوّه الظرف فيه ورقة صغيرة فيها جُمل، أنا مش فهماها حاولت كتير لكن ماقدرتش حسيت وكإنها لغز.

رد فارس:

_ طيب ماتقوليلنا محتوى الورقة، يمكن نقدر نساعدك تحلّيه.

دست يدها في حقيبتها، وأخرجت الورقة من الظرف، فردتها وناولتها لفارس الذي بدأ يقرأها بصوت يسمعه الحاضرون:

«انظر لهذه المرأة البائسة، أظن الذي صنعها أراد أن يُخبرنا أنّ الفقد والحزن كانا يلوكانها كل ليلة، ورغم ذلك لم تجزع، نبتت من ظهرها وردة يكمن فيها كل شيء، تُذكّرُني دومًا بـ «ريما» التي صفعتني في تشرين الأول، فعاقبتها وأسرتها في ظلمة القبو الأسود، رغم أنّها آلمت قلبي بقبضتها التي شعرت أنها من حديد، إلا أني دفنت في جوفها سر الحياة والنّجاة».

رفع بصره عن الورقة رافعًا حاجبيه؛ فوجد الجميع ينظرون له ببلاهة، تنحنح ثم قال:

_ بصّوا أنا متعود من صغري لما أقرأ حاجة بصوت عالي مابفهمش، لازم أمخمخ كده وأقولها بيني وبين نفسي، فقوموا بينا على ترابيزة الاجتماعات، وكل واحد يقرا ويفكر في سره.

نهض نحو الطاولة الموضوعة في ركن من الغرفة وحولها الكراسي، فتبعوه وجلس كلٌّ منهم على كرسيِّه، فرَدَ الورقة بالمنتصف، وبدأ كلٌّ منهم يقرأها بهمسٍ، ويفكر في حل لغزها، بعد نصف ساعة تحدّث سعد قائلًا:

_ بصوا يا جماعة، أوضح حاجة عرفت أوصلّها في الكلام ده كله هي «تشرين الأول» يعني بالشهور بتاعتنا كده شهر «أكتوبر».

ردت سهيلة:

_ أظن اللّي نركز عليه هو اللّي اسمها «ريما».

_ أيوه. لكن بابا ماكنش في حياته واحدة بالاسم ده!

فصدّق سمير على كلامها، بدأ كلٌّ منهم يُخّمن الحل، حتى شعرت بالصداع يفتك رأسها، نهضت تستأذنهم في العودة لبيتها؛ فقد استنفدت جلَّ طاقتها، وليؤجلوا اللغز ليومٍ آخر، يكفيها ما عرفته الليلة. فردّ إبراهيم:

_ ولا يهمك يا مدام صبا، اتفضلي أوصّلك، وإن شاء الله هبقى أكلّم حضرتك مرة تانية عشان نحدد الميعاد الجاي.

_ أكيد إن شاء الله يا دكتور، سعيدة جدًّا إني قابلتكم النهارده يا جماعة، تشرفت بيكم.

***

قادت سيارتها إلى شقة خالها، اجتاح قلبها بردٌ قارصٌ، وتحتاج الآن لتُدفّئه بضمّة والدتها، وقفت أمام الباب بتردد، رفعت يدها لتطرقه ثم أعادتها، جال بخاطرها ما عانته والدتها، تذكّرت وصيّة والدها وكم هي بحاجة الآن لأن تختبئ من أشباح الألم بين ذراعيها،

فطرقت الباب هذه المرة دون تردد، انتظرت حتى فتحت «منى»، وتهلّلت أساريرها حينما رأتها:

_ «صبا»! تعالي اتفضلي.

لـ لأ، شكرًا، أنا بس كنت عاوزه أقابل مـ.. هيَّ ماما هنا؟

اتسعت عينا «منى» حينما سمعت كلمة «ماما» ولكنّها سرعان ما أخفت دهشتها عندما لاحظت توتر «صبا»، وقالت:

_ عمتو سافرت النهارده مع بابا الزقازيق؛ عشان استشارتها عند الدكتور، ادخلي.

_ لا، لا، مرة تانية إن شاء الله.

لم تُمهلها الفرصة؛ لترد، ولّتها ظهرها وغادرت، قادت سيارتها إلى شقة والدها، فتحت الباب فوجدت زوجها ينتظرها بالبهو، وحينما رآها؛ وقف سائلًا بخوف:

_ كنتِ فين يا «صبا»؟

_كنت بتمشّى ونزلت أشتري حاجات من المول.

نظر ليديها الفارغتين؛ فقالت:

_ مالقتش حاجة عجبتني؛ فرجعت.

_ طيب يلا علشان نرجع بيتنا.

_ معلش يا «مازن»، أنا لسه محتاجة أقعد لوحدي شوية هنا، ممكن؟

نظر للأرض بإحباط، سار خطوتين نحو الباب، توقّف، ثم التفت لها:

_ على فكرة، أنا طيارتي للندن بكره.

ولّاها ظهره، وكان على وشك أن يفتح الباب؛ لولا أن هذرمت نحوه تضمّه من الخلف بقوة، وطفقت تبكي بألم، لفّ جسده وخبَّأها بين ذراعيه، يربت على ظهرها؛ فقالت بصوتٍ مُتهدّج:

_ مازن خليك جنبي ماتسبنيش النهارده لوحدي، أنا محتجالك أوي، لو فضلت لوحدي ممكن قلبي يقف من الألم.

حملها لغرفة النوم، وهي تتشبث بقميصه بقوة، أراحها على الفراش، وتمدد جانبها ضامًّا جسدها مُحاولًا طمأنتها، يعلم جيدًا أنها حين تخاف أو تحزن لا تُريد كلامًا يُواسيها؛ تحتاج لضمة تُلملم شتاتها، وها هو ذا يفعل مُحاولًا تهدئتها، تنتفض كعصفور ذبيح يُرفرف بين ذراعيه وهو يربت على ظهرها كأب يُهدهد طفلته لتنام، سرى دفءُ ضمّته إلى جسدها؛ فتوقّفت رجفتها وهدأ روعها، استكانت حتى داهم عينيها النُّعاس.

***

تتلقّفها رياح الذكريات، تتقلّب في الفراش زافرةً حانقة، تكره الأرق الذي أصبح مُلازمًا لليلها، منذ مقتل «زين» وهي حبيسةُ هذه الشقة خوفًا من أن تصل إليها أيادهم مرةً أخرى، لا تُريد العودة لطريقٍ أُرغمت- سابقًا- على أن تسلكه، ولا أن يكون مصيرها القتل، نفضتِ الغطاء عن جسدها ونهضت، نظرت للساعة بهاتفها، ثم سارت في تؤدة مُتجهةً نحو النافذة، فتحتها بتوجّس وراقبت الشارع والبيوت من حولها؛ فوجدت السكون يُخيّم على المكّان، زفرت بهدوءٍ وأرسلت بصرها إلى السماء، صافحت وجهها نسمات الفجر الباردة؛



فتدفقت من حنايا ماضيها ذكرى وقوفها كلَّ ليلة قُبيل الفجر في نافذة غرفتها، وبصرها يسيح في السماء، ابتسمت بسخرية،كانت تظن- وقتها- أنّها أصعب وأقسى مرحلة بحياتها، وأن النعيم يكمن خلف هذا السور الكئيب الذي يُحيطُها مانعًا أحلامها من التحليق خارجه، وحينما خرجت عَلِمت أن ما كانت فيه هو النعيم بعينه!

وُلِدت لا تعلمُ أين ومتى؟ وُلِدت فألقت بها الدنيا في أتونها، لا أم ولا أب ولا بيت دافئ يضمّها، محوّطةٌ بأسوارٍ لا نهايةَ لها، تدفّقت إلى رأسها ذكريات الملجأ، كم تشتاق لـ «سميحةً»! يؤلمها قلبُها على حال رفيقتها التي قاسمتها لحظات الألم قبل الفرح، والتعب قبل الراحة، دمعة يتيمة تعلّقت بأهدابها، يعزُّ عليها أن تنام قريرة العين وتتركها في الوحل غارقة، جالت في ثنايا ذاكرتها إلى اليوم الذي خرجت فيه من بوابة الملجأ بصحبة رفيقتها وسندها الوحيد في هذه الحياة، تشُدُّ كلٌّ منهما على يد الأخرى محاولةً طمأنة أختها أو بالأحرى بث الاطمئنان في نفسها. غفت سميحة على كتفها وظلّت هي مُتيقّظة يأكل القلق قلبَها حتى توقّفت السيارة أمام بيت، تأمّلته مُنبهرة مشدوهة، لأول مرة تقع عيناها على بيتٍ كهذا خارج شاشة التلفاز، لكزت سميحة فانتفضت، فركت عينيها ومازال النُّعاسِ عالقًا فيهما حتى نظرت من النافذة؛ فطار النوم. تابعتا الرجل هابطًا من السيارة مُتّجهًا نحو البيت، تبادلتا النظرات ثم نظرتا للمرأة الجالسة بالكرسي الأمامي، والتي صحبتهما مع الرجل من الملجأ، لفّت رأسها إليهما، وعلى شفتيها لاحت ابتسامة جانبية حينما لاحظت اندهاشهما قائلةً:

ـ نوَّرتوا الساحل الشمالي يا بنات، يلّا انزلوا عشان تتعرفوا على زمايلكم، وتلحقوا تستمتعوا بوقتكم.

كادت سميحة تفتح الباب؛ لولا أن شدّت على يدها، وجذبتها نحوها سائلةً بحِدة:

ـ ساحل شمالي إيه حضرتك! مش قولتوا هنشتغل في مصنع؟ إيه اللّي جابنا هنا؟!

ـ أممم، شكلك هتتعبيني معاكِ يا..

ـ فاتن.

ـ أه، بصي يا فاتن، الباشا راجل يحب النزاهة أوي، وإنسان بجد، هتحبي التعامل معاه، بيحترم موظفيه من أصغر عامل لأكبرهم، ويهتم بحالتهم النفسية أكتر من أي حاجة؛ لأن همَّا أساس الإنتاج، علشان كده لحد ما يتم عمل التجديدات في المصنع وتجهيزه، هتقعدوا هنا انتوا وباقي زمايلكم من محافظات وبلاد تانية كمان، مُعززات مُكرمات، تستمتعوا بالبحر وبوقتكم لحد ما نبدأ الشغل الجد.

ابتسمت سميحة بارتياح وفتحت الباب، جذبت تلك الواجمة معها ليهبطا من السيارة، لم تُرِحْها ابتسامة المرأة، ولا اقتنعت بكلامها، بل ازداد خوفها، ولكن لا سبيل لها الآن سوى التصديق والاستسلام للأمر الواقع، تعرّفتا على زميلاتهن وبالفعل كُنّ من بلدان مختلفة. مرَّ يومان من النعيم، جُلّ طلباتهن مُجابة حتى اكتشفن أنّه ليس نعيماً بل هدوءٌ يسبق عاصفةً هوجاء، انكشفت الحقيقة وكشّر الوحش عن أنيابه مُنقضًّا عليهن ناهشًا لحومهن، تاهت في دهاليز ماضيها. بدت السماء كشاشة عرض ترى على صفحتها أقسي يوم عاشته في حياتها، لم

تنسَ يومًا فحيحَ أنفاسه الكريهة، أظافره التي انغرست في لحمها، ويده التي تجولت بين أروقة جسدها تنهشه بلا رحمة،كانت تصرخ بعنفٍ وتُقاوم حتى أخرسها للأبد كقنّاص مُخضرم أطلق رصاصته لينتفض جسدها بعنفٍ قبل أن تستكين مقاومتها وترتخي كجثة فاضت منها الروح وتركتها هامدة. طفق الألم يستشري بين حناياها،لم ترحمها الذكريات وعاقبتها على نبش رفات الماضي؛ فأرسلت إليها سيلًا من الألم. بعد ذلك اليوم، تدنّس جسدها وأصبح مُستباحًا تتلقفه أيادي العابثين، الألم ينخر عظامها، ورأسها ما عاد يتحمّلُ الغرق في سيل الذكريات. كانت تُقاوم وتُحاول الهرب فيكون عقابها فوق تحمُّل بشر،كل ليلة تنتظر السَّحر، تترك الماء ينساب ليُطهّر جسدها، آملةً في أن يصل إلى روحها؛ ليُطهرها، ولكن هيهات!

يُجافيها الكرى؛ فتُهْرع لله ساجدة طوال الليل حتى يُصلب ظهرها، وكف دمعها مُتأملةً السماء سائلةً «أقبلت توبتي يا الله؟»، فجاءتها الإجابة من المسجد القريب، صدح صَوت «طوبار» يشُقُّ سكون الليل

جلّ المُنادي يُنادي يا عبادي
أنا ماحي الذنوب والأوزار

إلهي
بنورك اهتدينا وبفضلك استعنّا
وبك أصبحنا وأمسينا
بين يديك نستغفرك يااا الله
يا غفّار.. يا تواب.. يا رحيم

سرت قشعريرةٌ في جسدها، وصوته يخترق خلاياها؛ فبدأ ينشر النور والطمأنينة في نفسها، وكأنّ يدًا حانية تربت على قلبها؛ فتمتمت خلفه «بين يديك نستغفرك يا الله.. يا غفّار.. يا توّاب.. يا رحيم..» لو سُئِلَتْ عن أجمل إحساس في الوجود؛ لأقسمت أنّه ما تعيشه الآن، حينما تشعر أنّ الله سمع صوتك وأجاب بطمأنينة تُثبّتُ فؤادك الحائر، وتُخبرك أيّها التائب أنّك قد قُبلت، فتمتمت بفرحٍ مُختلط بدموعها «أحقًّا قبلتني يا الله؟» لتسمع آذان الفجر يُحطمُ أسوار الصمت مُحلّقًا في عنان السماء كقلبها الذي حلّق الآن، وهي تُردد «الله أكبر، الله أكبر»، تناهى لمسامعها خشخشة نِعال المُقبلين على الصلاة بعيون مازال النُّعاس عالقًا فيها. أغلقت النافذة سريعًا قبل أن ينتبه أحدٌ لوجودها، توضّأت ثم وقفت تُصلّي الفجر، أنهت صلاتها، داهمها النُّعاس فلم تبرح مكانها، تمددت فوق سجادة الصلاة واستسلمت له.

***

أتى الصباح مُترنّحًا، وهي على حالها نائمة بالأرض. طُرقَ البابُ فوصل الصوت لغياهب عقلها ضبابيًّا، اشتدّ الصوت فانتشلها من نومها، فتحت عينيها واعتدلت من نومتها؛ فلم تسمع شيئًا، ظنّت أنّها محض تخيُّلات حتى سمعت صوت الباب يُطرق بعنفٍ، فوقف شعر رأسها وتصاعدت أنفاسها بضراوة، سمعت رنينَ هاتفها؛ فتناولته بسرعة، وأجابت بصوتٍ هامسٍ لاهثٍ:

ـ أيوه يا فارس، الحقني.

ـ إنتِ فين؟ قولي بسرعة.

ـ أنا في البيت، وفيه حد بيخبّط على الباب، أنا مرعوبة، لو كانوا همَّا أعمل إيه!؟

ـ يعني إنتِ في البيت دلوقتي؟

ـ أيوه.

ـ طيب، اعملي اللّي هقولك عليه، قومي واتحركي ناحية الباب.

ففعلت، وسألته بهمس:

ـ أنا عند الباب، أعمل إيه؟

ـ افتحيه، وقولي بصوت عالي.. بحبــــــــــك.

ارتفع حاجباها، وصمتت؛ فقال ضاحكًا:

ـ يعني لو هُمَّا بسلامتك هيخبّطوا ويستنوا لما تفتحيلهم! افتحي يا هبلة، أنا اللّي ع الباب.

فتحت، والشرر يتطاير من عينيها:

ـ إنت بتستهبل يا فارس!، هو ده وقت تهزر وترعبني بالشكل ده!؟

ـ ما إنتِ اللّي بدأتِ، فضلت أخبّط لما إيدي وجعتني، وبدأ شغل الأفلامَ الأكشن بقى بسيناريوهاته يلعب في دماغي.

ـ كنت نايمة، وبعدين إيه اللّي جابك دلوقتي!؟

ـ واحد نفسه مسدودة عن الأكل، جه يفطر مع حبيبته عشان تتفتح نفسه، فيها حاجة دي؟ إوعي كده بقى عدّيني؛ أنا واقع من الجوع.

أزاحها عن الباب ودخل، وضع أغراضه على الطاولة، واتّجه نحو المطبخ، أحضر أطباقًا وعاد قائلًا:

_ جايب معايا طعمية ريحتها جوّعتني أكتر ما أنا جعان.

نظرت لحقيبة عمله، ثم له وهو يُفرغ الإفطار الذي اشتراه بالأطباق، وسألت:

_ على فين بمعدات التصوير الصبح كده؟ شغل جديد ده واللّا إيه!؟

التقط قُرصًا من «الطعمية»، دسّه بين فكّيه وطفق يلوكه بنهمٍ، أشار لها أن تجلس ففعلت، ابتلع ما بفمه، ثم أجاب:

_ واحد صاحبي نحّات، الشغل نايم عنده اقترحت عليه أصوّر شغله، ونعمل دعاية خصوصًا إن موسم السياحة هالل علينا.

_ ربنا يقوّيك ويوفّقك يا حبيبي.

_ بإذن الله هيوفقني ويقويني، مش اصطبحت بوش القمر؟

ضحكت برِقّة، فمد لُقمةً نحو فمها، التقمتها باسمةً، التقطت رغيفًا وبدأت تُشاركه، أنهى طعامه، كانت شاردة الذهن عندما أخرج «الكاميرا» ليُجرّبها، والتقط صورةً لها، فآذى عينيها «الفلاش»، أغمضتهما وكأن وميض الفلاش آلة زمنٍ نقلتها إلى ماضيها..

«تذكّرت اليوم الذي لم يرحموا فيه ضعفها ولا مرضها، وأرغموها على الذهاب مع ذاك الرجل، ومازالت آثار الحُمّى تُوهن جسدها، استفاقت من وجومها لتجد نفسها في غرفة وحدها معه، نظرت حولها فلمحت مزهرية زجاجية وُضعت على طاولة صغيرة في ركن الغرفة، نظرت له بتوجّسٍ وهو يُولّيها ظهره ويُغلق الباب، ركضت

نحو المزهرية وحملتها بيدين مُرتعشتين، استجمعت قوتها ورفعتها؛ استعدادًا لأن تهوي بها على رأسه، التفت وحينما رآها ابتعد سريعًا، وحاول تهدئتها، فنظرت له والشرر يتطاير من عينيها مُحذرةً:

_ لو قرّبت مني؛ هفتح نفوخك.

_ ماتقلقيش أنا تبع «فارس».

_ «فارس» مين؟ أنا معرفش حد اسمه فارس، أقف عندك ما تقرّبش.

_ اهدي بس عشان محدّش بره يحس بحاجة، والله ما هأذيكِ ولا هقربلك، اهدي.

اقترب من باب بالغرفة، وفتحه؛ فخرج منه آخر شخص كانت تتوقعه «رجل الوعد»، ارتخت يداها عن المزهرية وهتفت بدهشة «إنت!»، ده أنا فقدت الأمل!».

ابتسم لها قائلًا:

_ أنا عمري ما خلفت وعودي، يمكن اتأخرت شوية، بس لأن الخطة كانت محتاجة وقت.

_ يعني الراجل ده تبعك! وازّاي قدر يقنعهم أنا مش فاهمة حاجة!

_ ممكن بس نمشي من هنا ونبقى في الأمان؟ ساعتها هحكيلك كل حاجة، وأجاوب على أسئلتك يلّا بسرعة.

هبطوا إلى سرداب بالبيت، منه إلى بوابة خارجية وكانت سيارة «إبراهيم» تنتظرهم، انطلقوا بها إلى شقة الاجتماعات؛ حيث ينتظرهم باقي الفريق، عادت الحُمَّى تقتحم جسدها بعنف، حرارتها ترتفع

ووعيها يغيب، آخر ما رأته وجهه باسماً مُطمئنًا لها، ثم سقطت غشاوة على عينيها، ولم ترَ أو تشعر بشيء آخر من حولها..

***

فتحت عينيها بوهنٍ تتأمل المكان من حولها، وتسأل نفسها «أين أنا؟»، كيف أتيت إلى

هنا؟»، حاولت النهوض فلم تستطع، عادت تُغمض عينيها وترفع يدها، ضاغطةً بإبهامها وسبابتها

على جبهتها، تُحاول تخفيف ألم الصداع الذي يفتك برأسها، سمعت صوتًا رقيقًا يقول «حمدلله على السلامة»، فتحت عينيها لتجد امرأة لا تعرفها فعقدت حاجبيها، وقبل أن تسألها من تكون وجدتها تُنادي باسم «فارس»، وتخبره أنّها استعادت وعيها. بدأت تعود لها الذاكرة تدريجيًا، وتتذكر آخر مرة كانت فيها بوعيها، تأمّلت المكان من حولها؛ لتُؤكّد لنفسها أنّها بالفعل نجت، حاولت النهوض فساعدتها المرأة ووضعت وسادة خلف ظهرها سائلةً «مرتاحة كده؟»، لم ترد بل سألتها «من تكون؟»، أجابت:

_أنا سهيلة.

فتشت في ذاكرتها عن الاسم فلم تتعرف عليه، انتبهت لطرق الباب، أَذِنَت سهيلة للطارق فظهر من خلف الباب «الفارس النبيل» قائلًا- بابتسامة جذلة:

_حمدلله على سلامتك.

أجابت باسمةً:

_ الله يسلمك، هو أنا فعلًا خلاص نجيت منهم؟



ضحك، ثم قال مازحًا:

_ لا، إحنا بس بنعمل بروفة الأول قبل ما ننقذك!

رنّ هاتف سهيلة، فخرجت تُجيب، نظر «فارس» لـها بولهٍ هامسًا:

_كنت قلقان عليكِ أوي.

_ هو إيه اللّي حصل!؟

_ من يوم ما هربنا من الفيلا، وإنتِ عندك حُمّى وبقالك ٣ أيام نايمة، وحرارتك مرتفعة.

_ ٣ أيام! بس إنت عملت كده ازّاي؟ أنا مش فاهمة حاجة! كنت بحسبك نسيت وعدك.

_ لمّا تعرفيني كويس هتتأكدي إن فارس بيقدّس الوعود جدًّا، يمكن اتأخرت عليكِ بس لأن هروبك كان محتاج خطة نفذناها، والحمدلله نجحت.

_ طيب والراجل اللّي كان معانا؟ وقدرتوا تقنعوهم ازّاي!؟

_ اللّي كان معانا ده واحد صاحبي خليناه ينتحل شخصية رجل أعمال جاي من أمريكا، وحابب يستثمر في مصر، زوّرنا كل الأوراق عشان كُنّا مُتأكدين إنّهم مش هيثقوا فيه بسهولة، وبالفعل دوَّروا وراه وهو فضل ورا البنداري لحد ما وثق فيه، واتأكد من صحة معلوماته، رحّب جدًّا بالشراكة بينهم، بل بقى يتودد ليه لدرجة إنه لما سأله عن بنت يعني يقضي معاها كام ليلة ما اتأخرش، وزي ما كنت مخطط ودّاه عندكم، صاحبي كان حافظ صورتك كويس أوي، علشان كده اختارك.

_كل ده! طيب وصاحبك؟ وإحنا ؟ دول ممكن يوصلولنا وساعتها هتكون نهايتنا!

_ صاحبي خلاص سافر، وملهوش أثر، لا هنا ولا في أمريكا، ومستحيل هيقدروا يوصلوله، أمّا عنّنا فماتقلقيش إحنا بقينا في أمان الحمدلله، وحاليًا موجودين في شقة مكانها مش هيخطر على بالهم.

زفرت بارتياحٍ مُتمتمةً «الحمد لله»، ثم عادت تسأله:

_ بس إنت بتّقول خليناه، وزوّرنا، إنتوا مين!؟

_ ماتقلقيش هحكيلك كل حاجة، وهعرّفك على الفريق اللّي أصبحتِ واحدة منّه.

قص لها كل شيء، وتعرّفت عليهم، أمدّتهم بكافة المعلومات التي جمعتها خلال تواجدها في وكرهم، مرّت الأيام وأصبحوا أهلها، وهي التي لم تعرف أهلًا سوى «سميحة»، كانت تتوب كل ليلةٍ عن إثم لم يكن لها يد في اقترافه، ربما نسيتها «المافيا» أو تناستها،لم تعد تُشغل بالًها بهذا الأمر، إلَّا أنها كانت تتحرق شوقًا إلى رفيقتها، تُبكيها كل ليلة، تدعو الله أن يُنجيها وتُمنّي نفسها أنّهم سيحررونها وباقي الفتيات من قبضتهم قريبًا..»

انتشلها من غياهب ماضيها نداءُ فارس، ففتحت عينيها سائلةً:

_ بتقول حاجة؟

_ أنا بقالي ساعة بحكي وأرغي، وفي الآخر أكتشف إنّك مش معايا!

نظر لساعة يده، قائلًا:



ـ إتأخرت أوي همشي أنا بقى، وأبقى أعدّي عليكِ وأنا راجع إن شاء الله؛ عشان نشوف اللّي شاغل بال ست الحسن والجمال.

لملم حاجياته وهي تتأمله باسمةً، اقترب منها، وقال مُندهشًا:

ـ يا نهار أبيض! إيه اللّي فوق ده؟!

التفتت حيث أشار فاقتنص قبلةً وولّى هاربًا قبل أن تصُبّ جام غضبها عليه كعادتها، تابعته وهو يركض خارج الشقة ويُغلق الباب خلفه ضاحكةً، تحسست مكان قُبلته على وجنتها، وقلبُها يطرق قفصها الصدريّ بعنف، تُذكّرها هذه الطرقات بلحظة اعترافه الأولى، حينما قام «زين» بعزيمة الفريق بالإسكندرية في أجازة بعد تعبٍ وكَدٍّ في البحث. كانت جالسة أمام البحر في ليلة قمراء تارة ترسم ورودًا على الرمال وأُخرى تُغمض عينيها لتترك الهواء ينثر قبلاته على وجنتيها. طار طرف حجابها وغطّى وجهها، لم ترفعه، تركته يضمّ وجهها لتشعر أنّها الآن حرة، وقد عاد حجابها يُغطّي شعرها، كانت مُغمضة العينين حينما انتشلها من سكونها صوتٌ مُزعجٌ أفزعها «يا ليل، أنا حبيت يا ليل» تنحنح حينما فتحت عينيها والتفتت إليه فَزِعة:

ـ عارف صوتي زي الغربان، بس صراحة منظر الليل والقمر على البحر كده، إحم، قصدي يعني انعكاس صورة القمر.. ما تفهمنيش صح، المهم أجبرني أغنّي بس بعد ما فزعتك، بفكّر ما أكررهاش تاني.

ضحكت برقةٍ، فجلس جانبها قائلًا:

ـ ممكن أغَلَّس، وأقعد معاكِ شوية؟

_ ما إنت خلاص قعدت!

_ إيه ده! تصدقي صحيح! طيب معلش بقى هغلّس كمان وآخد رأيك في موضوع كده.

_ إتفضل موضوع إيه؟

_ فيه واحدة من أول لحظة شوفتها فيها من غير ما تستأذن؛ سرقت قلبي، بس اكتشتف بعدين إن عمري ماكنت سعيد غير بعد ما ظهرت في حياتي وسرقته، من يوم موت أمي- الله يرحمها- وأنا عايش في وحدة ويُتم، لمّا أمي ماتت رغم إني كنت وقتها كبير وعاقل بس كل ليلة بستنى رجوعها يمكن تحصل المعجزة وترجع! ولمّا البنت دي ظهرت حسيت إن هي المعجزة اللّي كنت مستنيها، وكل ما بكون جنبها الخوف والوحدة والحزن بيبعدوا عنّي وينسوني، وبما إني لما أسيبها وأرجع البيت بيرجعوا يسكنوا قلبي ويتعبوني؛ فقد قررت إنّي أودّع حياة العزوبية وأتقدملها عشان اكتشفت إنّي مابقتش أقدر أعيش من غيرها، تفتكري هتقبلني؟

تستمع إليه بعيونٍ لامعة، وفي داخلها تحسدُ هذه الفتاة، رغماً عنها تسللت الغيرة إلى قلبها؛ فأنّبت نفسها على شعورٍ تظن أنّه ليس من حقها، رسمت ابتسامة مُصطنعة وهي تُجيب:

_ ما تقلقش، إنت أي بنت تتمناك يا باشمهندس، اعمل اللّي عليك وخبّط على الباب، ومادمت لجأت للحلال يبقى أكيد ربنا هييسرلك.

_ يعني أروح أخبّط على باب دكتور زين، وأطلبها منّه؟

رفعت أحد حاجبيها قائلةً:

ـ بس اللّي أعرفه إن بنت دكتور زين اتجوزت ابن عمّها، هتطلبها ازّاي؟!

ـ وهو أنا جبت سيرة بنته «صبا» دلوقتي؟ أصله كان قايل امبارح وإحنا بنتعشى إنه حاسس ربنا رزقه ببنت تانية أخت لصبا واسمها باين كده «فاتن».

اتّسعت عيناها تدريجيًّا، وهي تستوعب جملته الأخيرة، ثم سألت ببلاهة:

- مش فاهمة حاجة، وأنا دخلي إيه؟

ـ هو أنا ماقولتلكيش؟ مش إنتِ العروسة!.

اضطربت وتلعثمت حروفها، شعرت أنّ جسدها ينتفضُ مع كل دقة قلب، استجمعت قواها ونطقت وفي صوتها رجفة تُنذر ببكاءٍ قريب:

ـ أنا أ..فـ.. فارس، لو سمحت المواضيع دي مفيهاش هزار!

ـ والله مابهزر أنا بتكلم بجد الجد كمان.. «فاتن»، تتجوزيني؟

ترقرقت عيناها وصرخت بأعلى صوتٍ «نعم، أوافق». ولكن هذا الصوت لم يتعدَّ حدود صدرها،لم يسمعه أحد سواها، ودّت لو تنطق بما يصرخ به فؤادها، ولكنّها هبطت على أرض الواقع، وتذكّرت

أنّها موسومة بعارٍ سلبها حقَّها في الحب أو الزواج كأي أنثى، ابتلعت ريقها بمرارةٍ وتداخلت حروفها، قالت بصوتٍ واهن:

– لــ..لأ طبعًا ماينفعش.

_ وإيه اللّي مانفّعهوش!؟

_كل حاجة، مجرد التفكير في الموضوع ده ماينفعش.

سألها عن السبب؛ فأجابته بالصمت، ردّ مازحًا:

_ أه، لو تقصدي يعني عشان عيونك ملوّنة، وربنا مَن عليكِ بشوية جمال؛ فخُدي بالك أنا كنت واد حليوة وأبيضاني، بس الشمس علّمت عليّا، لكن أسبوع واحد حبسة في البيت هلمع، ده غير إن أنا ممكن أعمل رجيم، وخُدي بالك دي تُكتب في التاريخ، وممكن ألبسلك «لنسزر» باللون اللّي يعجبك.

_ فارس، لو سمحت مش كل حاجة تاخدها بهزار، الموضوع ده بالذات ماينفعش فيه هزار.

_ طيب آسفين أهه، هنتكلم بجد قولي رفضاني ليه؟ ناقشيني يمكن العيب اللّي مش عاجبك عندي أقدر أصلّحه.

أخفضت بصرها أرضًا، شدّت على طرف تنورتها، وهي تقول:

_ المشكلة مش فيك إنت، فيّا أنا، وإنت فاهم قصدي كويس أوي. فارس، إنت مستوعب إنك عاوز تتجوز واحدة.. واحدة كانتـ..

أثقلت الكلمات لسانها فسلبته حق النطق، ثار بركان كان خامدًا في صدرها والتمع الألق في عينيها، هبّت واقفةً وولّته ظهرها مُهرولةً نحو الداخل، فلحق بها، واعترض طريقها قائلًا:

_ أظن لسّه ماخلّصناش كلامنا عشان تسيبيني وتمشي!

ردّت بصوتٍ مُتهدج:

_ مفيش.. مفيش أصلًا كلام يتقال عشان يخلص! أنا مش هتجوز يا فارس، لا إنت ولا غيرك، وبعدين إنت تستاهل واحدة أحسن وأشرف مني.

_ ويا ترى مفهوم الشرف عندك إيه؟

_ يا فارس، ركّز أرجوك، افتكر أول مرة شفتني فيها كنت فين، وبعمل إيه، وبشتغل مع مين!

_ كل ده مايهمنيش قصاد نظرة البراءة اللّي شفتها في عيونك أول مرة، رغم كل اللّي حصلّك لسه شايفك بنت شريفة وعفيفة لأنك ماقبلتيش تعيشي الحياة دي، ولا كان فيها حاجة من اختيارك، ثم إن أنا مليش دعوة بأي حاجة حصلت في ماضيكِ، مش من حقي أحاسبك غير على اللّي هيحصل من أول لحظة هتبقي فيها ليّا.

_ بس أنا مش هبقى ليك ولا لغيرك، مفيش راجل هيدخل حياتي.

سكتت هنيهة، ثم بدأ الحديث يتدفق من شفتيها مُندفعًا نحوه كرصاصة انطلقت للتوّ من فوهة مسدس:

_ أنا هعيش لوحدي طول الحياة أهون عندي من إني أشوف في يوم لحظة احتقار أو ندم في عيونك؛ إنك اتجوزت واحدة زيي، ومع أول مشكلة بيننا لو لسانك مانطقهاش وعايرني، عيونك هتعاير.

بُهت من قولها، رمقها بلومٍ لبرهة، ثم تمتم سائلًا: «هو ده ظنّك فيّا؟»

_ مش قصة ظنّي فيك، بس إنت رغم طيبتك ونُبلك مش ملاك،

في النهاية إنت بشر، ثم أنا آسفة مش حاسّة ناحيتك بأي مشاعر، ربنا يرزقك بالأفضل منّي اللّي تقدر تصونك وتحافظ على عِرضك ومالك وبيتك، تصبح على خير.

أطلقت رصاصاتها في قلبه دُفعةً واحدة، ثم هرولت للداخل هربًا من النظر في عينيه، تعلم جيدًا أنّ عينيها ستفضح كذبتها، جسدها يُهرول مُبتعدًا وروحها تُقاومُ وتجذبها بقوةٍ للعودة إليه، للصراخ بأعلى صوتٍ أنّها خائفة ولا تطمئن إلَّا بوجوده، وهي التي لم تعرف للاطمئنان طعمًا في حياتها!

لم تعرف معنى الخوف من الفراق أو الفقد إلَّا بعد رؤيته، لم تعرف معنًى للوعود وصدقها إلَّا بعد وعده، لملمت شتات روحها وأسرعت لغرفتها مُوصدةً الباب خلفها؛ مخافة أن تنتصر روحها وتسوقها إليه.

لم تذق للنوم طعمًا هذه الليلة، ظلّت تتقلب في الفراش ينهش روحها القلق والوحشة، أن تُولد عارٍ من الهوية والأصل فلا تظن أن ثياب الكون ستستر عورة روحك، أو حتى تُدفِئ قلبك الذي تجمّد في صقيع الحياة، عاشت ومصيرها في هذا المُجتمع أن تُسمّى بمسمياتٍ ما أنزل الله بها من سلطان، تارة تُلقّبُ بـ «اللقيطة» و أخرى بـ «ابنة الحرام» وتارة «المقطوعة من شجرة»، تشعر أنّها مُجرد ورقة شجر ذابلة في مهب الريح، تترنح في عجز، سقطت من شجرة لا تعلم لها أصلًا ولا جذورًا، كانت جلُّ آمالها أن تحملها الرّيح إلى بر أمان، ولكنّها ضنت عليها بهذه الأمنية، لفظتها بعنفٍ فتهاوت في بركةٍ من الوحل،

لم تشعر يومًا أنّها «إنسان»، هناك من يخاف عليها ويهتم لأمرها إلَّا حينما أوفى هو بوعده، تذكّرت حديثها مع فارسها وعضّت بنان الندم على كذبها وجرحها لمشاعره، فارتفع صوت عقلها داخلها يُحدّثها أنّ ما فعلته هو الصواب، ولابد أن تستيقظ من أحلامها، أسبلت جفنيها تستجدي النوم؛ فرأت صورته منقوشة في عينيها، «تتجوزيني؟»، مازال صدى صوته يتردد بهذا السؤال داخلها.

أسفر الصبحُ وقد بدأت السماء تخلع رداء الليل، وتُعلنُ الشمس سطوتها، حينما لمحت نور الصباح يُحاول اختراق النافذة، كمّمت فاه عقلها، وضربت بكلامه عُرض الحائط، نهضت من الفراش مُسرعةً فهي تعلمُ جيدًا أنّه الآن يُصوّر الشروق كعادة كل صباح مذ قدِموا إلى الإسكندرية، ستذهب إليه وتعتذر، ستخبره أنّها «موافقة» على أن تُكمل الباقي من عمرها معه، ستطلب منه ألَّا يتركها للوحدة والقلق والخوف مرّةً أخرى، تُثبّتُ طرف حجابها جيدًا وتنظر من النافذة لتتأكد من وجوده فلم تجده، خرجت للبحر؛ حيث كان يقف دائمًا تنتظره، رُبما تأخّر في النوم اليوم، وسيخرج بعد قليل، طفقت تتمشّى على الشاطئ حتى أرهقت قدميها، فجلست تنتظر وتبني قصورًا من الرمال إلى أن سمعت صوت «سهيلة» تطلب منها الانضمام إليهم على الفطور، أخبرتها ألَّا شهية لديها الآن، ثم سألتها عن فارس؛ لتصدمها قائلةً:

ـ فارس مشي امبارح بالليل.

_ مشي ازّاي! وليه؟

_ معرفش، قال إن عنده شغل ضروري، بس بيني وبينك شكله كده فيه حاجة مضيقاه، كان قاعد على غير عادته، مابيهزرش واعتذر ودخل أودته، خرج منها بشنطته، وقال هيرجع القاهرة ضروري، ربنا يستر، أجيبلك ساندوتشات هنا تتسلي فيها لو مكسّله تقومي؟

كانت شاردةً، ولم تنتبه لسؤالها فنادتها «سهيلة»:

_ فاتن، فيه حاجة؟!

_ هه! ولا حاجة، قومي إنتِ افطري معاهم، أنا مليش نفس.

رحل فارسها، وتركها وحيدة؛ فاستفردت بها الوحشة، قبضت على حفنة من التراب بقوة تبث فيها من لواعجِ نفسها، خيّم شتاء عينيها، التمعت وبرقت ثم بدأ هطول المطر، لم تحاول مسح دموعها، تركتها ساخنة تنساب على خديها لتصفعها.

كانت أمام البحرِ جالسةً على حالها الصموت مذ رحل فارسها، حينما جلس «زين» قُربها مُتأملًا البحر قائلًا:

_ أبوه كان صاحبي أوي، أفتكر لما مات كان وقتها لسه ١٥ سنة، كنت دايمًا أسمّيه الرجل الصغير، فيه صفات الرجولة، وتَحَمُّل المسئولية من صغره.

_ ه.. هو مين ده؟!

_ اللّي شاغل بالك، وبتفكري فيه من امبارح.

تورّدت وجنتاها، وأشاحت بصرها عنه؛ خجلًا، فأكمل حديثه:

_ كان متفوّق جدًّا في مجاله، وبيطلع الأول على الدفعة، والمتوقع إنه يتعيّن في الجامعة بعد التخرج بس مصر- للأسف- مابتاخدش

بالتفوّق، المحسوبيات رقم واحد، قولتله أنا ممكن أتدخل وليّا معارف كتير في ثواني هيعينوه، لكنه رفع قضية، وزي ماتوقعت خسرها، حس بالإحباط فترة، اتبهدل من محافظة للتانية، واشتغل حاجات ملهاش علاقة بمجاله؛ فاتدخلت بطريقة غير مباشرة، طلبت من سمير يشغّله في شركته وقد كان، سمير عمل إعلان وهو قدم للوظيفة واتقبل، لحد ما رجعت مصر جالي في يوم وقالي أنا عاوز أسافر بره مصر، مابقتش عاوز أعيش في البلد دي، ولا باقي على حد فيها.. لا أم، ولا أب، ولا اخوات، ولا حد أخاف أتغرّب عشانه، أنا كده كده متغرب ووحيد في بلدي. طلبت منه الأول يساعدني في قضية مهمة لو مش عشان البلد يبقى عشان الإنسانية، وفعلًا لمّا حكيتله وافق بس كان منتظر يسافر بمجرد ما نكشف كل الأوراق لحد ما قابلك، ولغى فكرة السفر، بقى ليه حد يخاف عليه، بقيتي ليه وطن، كانت أعصابه مشدودة ومابينمش عشان يخرّجك من المكان اللّي كنتِ فيه، وما اترددش لحظة في إنّه يتقدملك، طلبك مني قبل مايیجي يتكلم معاكِ، أنا ما أعرفش إيه الحوار اللّي دار بينكم، لكن فهمت إنك رفضتيه لما جالي متعصب، وبيقولّي إنه عاوز يسافر في أقرب وقت، وقد كان.. نزل القاهرة عشان يجهّز شنطته وأوراقه، وخلاص يوم واحد بس بيفصله عن السفر.

انتفض جسدها، ونظرت له سائلةً بأنفاس لاهثة:

ـ يعني إيه!؟ يعني فارس هيسافر بكره؟

أماء فظلّت لبرهةٍ واجمةً تستوعب الصدمة، ثم نهضت دون أن تتفوه بكلمة، وركضت تجاه غرفتها، لململت حقيبتها وخرجت لـ

«زين» ترجوه أن يُعيدها للقاهرة الآن، وهذا ما سعى إليه؛ لذا على الفور كان الجميع بسياراتهم مُتجهين نحو القاهرة.

***

يتّجه نحو الخزانة بتثاقلٍ ليلتقط ملابسه ويضعها بحقيبة سفره، شارد الذهن مهموم القلب، يُعنّف نفسه قائلًا: «أولم يكن هذا حلمك يا أحمق؟ مابالك اليوم وكأنّك مغصوبٌ على السفر!» زفر بحنقٍ وهو يجلس على طرف سريره، ينظر لحقيبته وجواز سفره بعيونٍ زائغة، لا يُنكر أنّه بعد ما عاناه بمصر أصبح يحلم بالسفر، يعشق تراب مصر لكن لم يعد يحتمل العيش فيها، يضيق عليه الخناق حتى كاد يلفظ أنفاسه، يود أن يُحلّق بعيدًا ليطلق العنان لأحلامه المحبوسة، وحينما وجدها شعر فجأةً أن القفص الذي يعيش فيه بوطنه هو بحد ذاته حرية، بعد الانتهاء من مهمتهم تمنّى لو تكون هذه التذكرة تذكرتين وجوازيْ سفر، أحدهما له والآخر يحمل اسمها؛ لتُحلّق معه بعيدًا عن الخطر، زفر بعنفٍ مُستلقيًا على ظهره يتأمّل السقف، يتذكّر اللحظة الأولى التى لمحها فيها وأسره طيفها. سمع جرس الباب فرفع أحد حاجبيه سائلًا نفسه.. من يا تُرى سيُفكر في زيارته؟ بتر تساؤله حينما سمع الجرس يرنّ بإلحاح، نهض من نومته مُتّجهًا نحو الباب، فتحه ليجد «زين» ماثلًا أمامه، دُهِشَ وقبل أن يتفوه بكلمة تنحّى «زين» جانبًا لتظهر «فاتن» المختبئة خلفه، فتحوّلت دهشته للهفة مُتأججة، ثم ما لبث أن أخفض بصره بإحباطٍ مُتذكّرًا لقاءهما الأخير.

«ماتسافرش وتسيبني يا فارس»، قالتها بصوتٍ مُتهدج مُغرورقة العينين، فرفع بصره ناظرًا لها بحنان وكأنّه ينتظر جملتها ليَتخلّى عن

سفره، وتتلخص كل أحلامه فيها، تقدّم لخطبتها من «زين»، أراد فارس أن يتم الزواج بأسرع وقتٍ ممكن ليتسنّى له الهرب بعيدًا بحبيبته وحمايتها من الخطر، ولكنّها أصرّت على تأجيل الزواج ليتم القبض على «البنداري»، وإنقاذ رفيقتها لتُشاركها فرحتها بيوم زفافها، وافق شريطة أن يتم عقد قرانهما، وبالفعل تم في حفلٍ صغيرٍ شاركهم فيه باقي أعضاء الفريق.

تدور في خلدها أجمل لحظات حياتها، والتي بدأت منذ لحظة العقد، تسمع الآن في أذنها «بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير»، تشعر بقُبلته التي طبعها على ناصيتها، يجتاحها الدفء الذي شعرت به من ضمّته يومها، تتغيّرُ تعابير وجهها وتملأ الدموع عينيها مع كل لحظة تتذكرها حتى استفاقت من ذكرياتها على رنين هاتفها، اتسعت ابتسامتها مُتأملةً اسمه الذي زيّن شاشة الهاتف، ضغطت الزر مُجيبةً:

_ أيوه يا فارس، خلّصت شغلك يا حبيبي؟

اتسعت عيناها، وقفزت من جلستها كالملسوعة، تُحاول النطق ولكنّ الصدمة ألجمتها؛ فسالت دموع حارقه تلهب قلبها قبل خديها.

***

وقف أمام أحد التماثيل يتأمّله ويدرس الزاوية المناسبة لالتقاط الصورة، يميل برأسه لليمين قليلًا، ثم يُعيدها نحو اليسار، وأخيرًا استقرّ على الزاوية المُثلى، جهّز إعداداته، وجّه عدسته والتقط الصورة،

نظر لها على شاشة «الكاميرا» بإعجاب، التفت لصديقه الجالس أمام أحد التماثيل يضع لمساته الأخيرة قائلًا:

ـ أنا عرفت دلوقتي إيه اللّي موقّف الحال عندك يا ماركو.

أجاب ومازال مُنشغلًا بتمثاله:

ـ خير يا عبقرينو؟ اشجيني.

أكمل حديثه وهو يقترب منه:

ـ لا بجد والله، إنت مش واخد بالك من كمية الكآبة والبؤس اللّي في الوشوش دي؟ اللّي عاوز يكتئب ييجي عندك، أعوذ بالله إلَّا ما في تمثال يحسسك بالأمل كده!

ـ ده اسمه عمق يا جاهل، ملكش دعوة إنت بالفن الراقي ده.

ـ فن راقي وعمق؟ هي مرارة واحدة اللّي عندي، ربنا يكرمك سبهالي أنا مـ..

لمح شيئًا جذب أنظاره فبتر جملته، والتفّ للخلف، اقترب من تمثالٍ رابض في زاوية بعيدة رأى انعكاسه بالمرآة للتوّ، غضّن زوايا عينيه وهو يُدقق النظر فيه، ثم اتسعت عيناه تدريجيًّا وهو يتذكر اللُّغز، لامس الوردة التي نبتت في ظهر التمثال أمامه، وشعر أن «زين» كان يقصد تمثالًا كهذا، بدأت الخيوط تتشابك في ذهنه، رفع «الكاميرا» والتقط صورًا من جميع الزوايا لهذا التمثال، ثم اعتذر لرفيقه وأخبره أنّه ذاهبٌ لعملٍ هام، ثم سيعود ليُكمل ما بدأه، لملم حاجياته وغادر وهو يتصل بـ «إبراهيم»، ويطلب منه رقم «صبا »، اتصل بها وطلب أن تُقابله لأمرٍ هام، اتفقا على المكان، سبقها وجلس مُنتظرًا هناك،

بعد قرابة نصف الساعة وصلت إليه، جلست سائلةً بقلقٍ عن سبب المُقابلة، أخرج «الكاميرا»من حقيبته وفتح معرض الصٌور، وضع صورة التمثال أمامها، وقال:

ـ ركّزي كويس أوي في الصور دي، وافتكري شوفتي زي ده قبل كده؟

تأملت الصور هُنيهة، ضيّقت عينيها، ثم قالت:

ـ أيوه، عندنا زي التمثال ده في بيتنا في الصعيد.

ـ حلو أوي، يبقى أنا كده اتأكدت.

ـ من إيه مش فاهمة؟

ـ بصي يا مدام «صبا» للتمثال كويس، وافتكري لُغز دكتور «زين» مش ده بيثبتلك إنه يقصد التمثال؟ وأكيد فيه وراه غرفة سرية بما إنه بيقول «نبتت من ظهرها وردة يكمن فيها كل شيء» كمان «فعاقبتها وأسرتها في ظلمة القبو الأسود» بتأكد عندي إحساس إن فيه غرفة سرية ورا التمثال.

نظرت للصورة، ثم له مشدوهة قائلةً:

ـ على فكرة كلامك صح، وده بيفسر ليه بابا في رسالته وصّاني ما انساش بيت الجبل.

ـ ممتاز،كده تقريبًا وصلنا للحل، بس أكيد مش هيذكر «ريما» دي من فراغ، حاولي تفتكري أي حد بالاسم ده!

ـ صدقني حاولت ومفيش فايدة، معرفش حد بالاسم ده، ولا عمّو سمير كمان يعرف، بس مش مهم، المهم دلوقتي إني أسافر لبيت الجبل، وهناك أظن هقدر أعرف الباقي من حل اللغز.

ـ أكيد، هتقدري تسافري إمتى؟

ـ لسه معرفش بس ما تقلقش، هشوف ظروفي وأسافر في أقرب وقت إن شاء الله.

لاحظت أنّه غير منتبهٍ، وبصرُه مُثبت على طاولة خلفها، فالتفتت للخلف لتجد امرأة في مُقتبل العمر، تضع المساحيق بشكلٍ مُلفتٍ ومُبالغ فيه، ترتدي فستانًا أسود عاري الكتفين، جالسة معٍ رجلين وتُبادله النظرات المُتوجّسة، فسألته:

ـ تعرفها؟

ـ مدام «صبا»، ممكن أطلب من حضرتك طلب؟

ـ اتفضل.

ـ اللّي قاعدة وراكِ دي تُعتبر أخت «فاتن»، أنا حابب أطمنها عليها وأطمن قلب فاتن كمان، ممكن حضرتك تاخدي موبايلي، وتروحي الحمام تطمنيها عليها، وتخلّيها تكلّمها؟ قوليلها إن فاتن في أمان، وإن الراجل اللّي جه أخدها تبعي، دي كانت خطة منّي وهي معايا حاليًا، واطلبي فاتن من موبايلي تكلمها بس أرجوكِ إوعي تديلها الرقم، ربما يكونوا مراقبين تليفونها، وساعتها فاتن هتبقى في خطر.

ـ حاضر ماتقلقش، بس هي هتفهم ازّاي؟ واللّا أقولها إيه عشان تقوم؟

ـ ماتقلقيش، اسبقيها إنتِ وهتلاقيها جت وراكِ.



نفّذت ما طلبه منها، فأشار بهدوءٍ لسميحة التي فهمته على الفور كما توقّع، وتركت الرجلين مُتعللةً بالذهاب للمرحاض، كانت «صبا» تنتظرها هناك، عرّفتها بنفسها وأبلغتها رسالة فارس، قصّت لها كل شيء في عُجالة، ثم اتصلت بفاتن لتُثبت لها صِدقها، تناولت الهاتف بلهفةٍ ولَهٍ، وضعته على أذنها تسمع الرنين شاعرةً أنّ الثانية تمرُّ دهرًا حتى سمعت صوتها الرقيق قائلًا: «أيوه يا فارس، خلّصت شغلك يا حبيبي؟»، فأجابت بلهفة:

_ يـــااااه، صوتك وحشني، كل حاجة من ريحتك وحشتني.

فأجابتها فاتن بصمتٍ مزعج، صمتٌ يملؤه الصخب، صخبٌ تصنعه دقات قلبها المتلاحقة وأنفاسها اللاهثة، فهمست «طمنيني عليكِ يا فاتن، إنتِ كويسة؟ «بدأت دموعها تسيل وأذنها تلتقط أنين فاتن فقالت بصوتٍ مُتهدج:

_ فاتن، إتكلمي أرجوكِ؛ أنا محتاجة لصوتك يحسس قلبي بالأمان شوية في الغابة اللّي عايشة فيها دي، إنتِ ماتعرفيش أنا عايشة في بؤس ازّاي!

_ سامحيني، أنا آسفة إني سيبتك لوحدك وسطهم، بس أنا مش ساكتة والله، تعرفي إحنا جمعنا معلومات كتيرة هتوديهم في داهية، وقريب البوليس هيقبض على البنداري، وهتتحرري من أسرهم، طيب تعرفي! أنا أصلًا مأجله فرحي عشانك، علشان تشاركيني لأني مش عارفه أفرح وأنا لوحدي.

ـ مدام «صبا» حكتلي على كل حاجة، بس ابعدي إنتِ، ماتعرضيش حياتك للخطر، ولا تقربي منهم تاني عشان خاطري، ده أنا كان قلبي واجعني لأنك اختفيتي، وماكنتش عرفالك طريق، دلوقتي بس قلبي أرتاح، عيشي حياتك مع فارس، إنتِ كان عندك حق طلع شهم وابن حلال، ادعيلي كتير يا فاتن، ولو صحيح بتعزّيني خدي بالك من نفسك.

لم تنتظر ردّها، ولم تودعها فقط أنهت جملتها بتنهيدةِ حرقةٍ قبل أن تُغلق الخط، وتُناول الهاتف لصبا الواقفة تُراقبها بصمت، لم تكن تفهم دور «فاتن» بالفريق، ولكنّها الآن فهمت القصة، انتبهت لسميحة تُناولها الهاتف قائلةً:

ـ شكرًا إنك طمنتي قلبي عليها، أرجوكِ خدي بالك منها.

ربتت «صبا» على كتفها، وضغطت عليه برفقٍ قائلةً:

ـ ماتقلقيش، قريب أوي هيتفضحوا وهتتجمعوا من تاني.

ـ خايفة أعلّق نفسي بأمل كداب.

ـ قريب هتعرفي، إن كل اللّي بقولهولك حقيقة، وترجعي من تاني لفاتن، وتعيشوا بسلام.

ـ يااااه، معقولة، ده ممكن يحصل!

ـ اعتبريه وعد.

ـ طيب لو ماقدرتيش تعمليلنا حاجة مش مهم، المهم تاخدي بالك من فاتن، وتحميها، هو ده الوعد اللّي عوزاه منك.

ـ حاضر، اطّمني، فاتن بخير وفي إيدين أمينة.

ودّعتها وخرجت، تركت «صبا» تتأمل وجهها في المرآة، تتذكر وجه سميحة، بكاءها وحديثها مع فاتن؛ فدبّ الحماس في أوصالها، وقررت أن تُناضل لتفي بوعدها لهذه المرأة المسكينة. خرجت فرأتها راحلةً بصحبة الرجلين، نظرت لها بذَنَبِ عينيها قبل أن تُولّيها ظهرها، وكأنها تُذكّرها بالوعد. جلست أمام فارس، ناولته الهاتف وأخبرته أنّها مُستعدة للسفر غدًا، عرض عليها أن يُسافر وإبراهيمُ معها، لكنّها أخبرته برغبتها في الذهاب لبيت الجبل وحدها.

***

أنهت إعداد حقائبها، ثم تذكرت أنّها لم تطمئن على «ميرال» بعد سقوطها من أعلى الدرج، ذهبت إليها، فتحت الخادمة فدلفت للداخل؛ لتجد «ميرال» مُستلقية على أريكة بالبهو، وقد لُفّت قدمها اليمنى وذراعها الأيسر بالضّماد، اطمأنت عليها، ثم تطرقت «ميرال» للحديث عن «مازن» قائلةً:

ـ مازن كلمني وسأل عنّك، راجع قريب، عاوزين نعمله مفاجئة لعيد ميلاده.

ـ أه، أنا كمان كنت بفكّر أجهزله هدية مختلفة، بس فاقدة التركيز جدًّا.

ـ إيه رأيك نعمل فيلم بصوره مع أصدقاء الطفولة، ونفاجئه بحضورهم يوم ميلاده؟

ـ فكرة ممتازة جدًّا، بس المشكلة أنا معنديش لا ألبوم الصور ولا أرقامهم.

ـ الألبوم عندي من يوم جوازكم بدفتر التليفونات القديم.

ـ كويس، هاتيه وأنا هضبط موضوع المفاجأة ده، ماتتعبيش نفسك.

ـ اطلعي أودتي، وهتلاقيه في أول درفه من دولابي فوق.

صعدت لغرفة ميرال، ونظرت للخزانة تُفكّر هل كانت تقصد الأولى جهة اليمين أم اليسار؟ رجّحت أنّها تقصد اليسارية؛ لذا اتجهت نحوها فوجدتها موصدة. كادت تخرج لتخبرها لولا أن لمحت المفتاح على خوانة السرير، فتناولته وفتحت الخزانة، وقفت على أطراف أصابعها لتصل للرف الأول، تحسست الأغراض بأناملها حتى وصلت إلى شيءٍ يشبه الدفتر، جذبته فسقطت حقيبة جلدية صغيرة على الأرض، وتناثرت صور وأوراق كانت موضوعة بها، نظرت «صبا» للدفتر، فلم تجده المقصود. زفرت حانقة، تركته على خوانة السرير، ثم جلست القرفصاء تُلملم ما تبعثر من الحقيبة، توقّفت عند إحدى الصور لتتسع عيناها شيئًا فشيئًا، تُفتّش الصور والأوراق بصدمة، والدم يغلي في عروقها، شدّت قبضتها عليهم ثم هبطت للطابق الأسفل، كانت «ميرال» تُقلّبُ قنوات التلفاز بملل، وحينما رأت «صبا» قادمة قالت:

ـ كلّ ده يا بنتي! ده أنا حطاهم في أول درفه.

حاولت أن تتماسك قائلةً:

ـ أصلي لقيت الدرفه مقفولة بالمفتاح.

انتفضت «ميرال» وظهر التوتر على ملامحها:

ـ لا.. لا، مش دي يا «صبا» التانية المفتوحة.

وقفت «صبا» في مقابلتها، أغلقت التلفاز، وعادت تنظر لها صارخةً في وجهها، وقد انتفخت أوداجها، واحمرّ وجهها من الغضب:

ـ عمر آذاكِ في إيه؟ بلاش عمر طيب أنا عملتلك إيه؟ ده أنا بنت عمّك واتربينا في بيت واحد وأكلنا من طبق واحد!، ليه تعملي فيّا كده، وتستكتري عليّا الفرحة؟ جاوبيني.. ليييه؟!

فرّ الدم من عروقها واصفرّ لونها، وقد أيقنت أنّ لعبتها انكشفت، ابتلعت ريقها وتلعثمت، وهي تسأل «أ.. أنا مش فاهمة إنتِ بتتكلمي عن إيه؟!»، أشهرت صورة في وجهها:

ـ عن دي، إيه اللّي جاب صورتها عندك؟ مش دي اللّي خانتني مع عمر، وجت تعيط وتشتكيلي إنه ضحك عليها وسابها عشاني!

ألقت الصورة في وجهها، ثم فتحت إحدى الأوراق:

ـ ودي، مش ورقة الجواز العرفي اللّي وصلتني؟ إيه اللّي جاب نسخة منها في دولابك، مش دي الصور اللّي وصلتني وخرّبت حياتي، وصورة الشيك ده مش اللّي دفعتيه للهانم تمن كسرة فرحة اللّي اعتبرتك أختها!؟

نظرت للأرض خجلًا، ولم تُحرك ساكنًا، فقذفت «صبا» الأوراق والصور في وجهها صارخةً:

ـ انطقي وجاوبيني، ليه عملتي كده؟! لييه؟

ـ كفاية بقى كفاااية،مش هتبطلّي أنانية؟ مش لازم تاخدي كل حاجة، وتعيشي سعادة كاملة.

أَلجمتها الصدمة، فصمتت تنظر لها مُتّسعة العينين فاغرة الفيه..

ـ وإحنا صغيرين كنت بكرهك أوي، ماما كان نفسها تعوّضك عن مشاكل مامتك وباباكِ، وتحسّسك بالحنان، ونسيت إن عندها بنت محتاجة للحنان ده، أَخدتيها منّي لحد ما ماتت، وبعد طلاق مامتك سرقتِ الاهتمام، الكل كان بيشفق عليكِ حتى أخويا «مازن» سرقتيه منّي، كان بيعاملك زي طفلته المُدلّلة، كبرنا وبقيت أنا كمان زيهم بشفق عليكِ لحد ما حبيت عمر، وكان هو فارس أحلامي، وحتى ده خطفتيه منّي، مابقاش شايف غيرك، «صبا، صبا، صبا» إيييييه!! كفاية. هو مفيش غيرك في الدنيا! إنتِ اللّي اضطرتيني أعمل كده، وبعدين محسساني إنك خسرتِ، ما إنتِ برده اللّي فزتِ في الآخر، فزتِ بجوازك من راجل بيعشقك، ومستحمل دلعك، ومعيّشك ملكة، وراجل تاني من وقت ما سبتيه عايش في قوقعة، أحمق وغبي، كلكم أغبيا، ماتلومنيش؛ إنتم السبب في كل اللّي عملته.

تسمعها بصمت، وقفت واستسلمت لسهامها التي بدأت تُصوّبها سهمًا تلو الآخر نحو قلبها، لكنّها لم تعد تحتمل سماعها أكثر من ذلك، ربطت الصدمة لسانها فلم تُعلّق على ما قالت. تركتها وأسرعت نحو سيارتها، انطلقت بها مُبتعدةً عن صدى صوت «ميرال» الذي يُطاردها، تسيل دموعها بلا توقف، وذاكرة أذنها تسترجع لحظة الوداع، ها هي تلتقط صوت عمر يرجوها لتعطيه فرصة الدفاع عن نفسه، نظرت لمكان خاتمه في أصبعها، فوجدت خاتم «مازن» الذي لم تتخيله يومًا زوجًا لها، تحبه بلا شك.. ولكن كأخ أكبر غمرها بحنانه

وأمانه، وبعدما خذلها عمر لم تستطع رفض طلبه للزواج. تمرُّ جلُّ ذكرياتها مع عمر أمام ناظريها، توقّفت بالسيارة على جانب الطريق، وكلما تدفقت ذكرى إلى رأسها ضربت المقْود بقبضتها. تشعر أن سقف السيارة سينطبق على صدرها، فخرجت منها تشهق وتزفر بعنف، نظرت حولها فوجدت الهدوء يعم المكان، مكان لا تعرفه لكنّها كانت بحاجة ماسّة لأن تكون وحدها؛ فلم تشعر بالخوف. أسندت ظهرها للسيارة ووقفت تتأمل السماء صارخةً صرخة مكتومة في دواخلها، صرخ قلبها يُناجي الله، لا تعلم أتتحمل صدمة موت والدها، أم ظلمه لوالدتها، وحرمانها منها!؟ أتتحمل فراق عمر الذي كوى قلبه وقلبها، أم مازن الذي يعشقها وهي لا تملك السلطان على قلبها لتُبادله هذا العشق؟ أم كيف تتحمل صدمتها الحالية فيمن تربّت معها تحت سقف واحد؟! تشعر برغبة في الموت، تريد أن تعتزل الحياة، لم تعد تحتمل رؤية بشر، لن تنتظر للغد ستسافر الآن لصعيد مصر، تحتاج لأن تبتعد عن الجميع؛ ليستعيد قلبها عافيته، لذا عادت للبيت، أغلقت حقائبها وتركت سيارتها فهي تشعر بإرهاقٍ شديد، لن تصمد في القيادة معه هذه المسافة الطويلة؛ لذا استقلت سيارة أجرة إلى محطة الحافلات، ركبت الحافلة فارَّةً من الوجع إلى الوجع، لا مفر من أشباحه التي تسكن تفاصيل حياتها.

***

وصلت أمام بوابة البيت بسيارة أجرة في السادسة صباحًا، طلبت من السائق أن يُطلق بوقَ سيارته فلم يستجِبِ الحارس، زفرت بحنقٍ

هابطةً من السيارة تُنادي بصوتٍ عالٍ «مرغني، يا مرغني».لم تجد إجابة فعادت للسيارة، دفعت للرجلٍ نقوده، وتناولت حقائبها، تابعت السيارة وهي تبتعد، ثم زفرت بغضب وهي تلتفت للبوابة، تطرقها بعنفٍ، وتُنادي الحارس حتى قَدِم يُهرول نحوها مفزوعًا، يفتح البوابة قائلًا- بلهجته الصعيدية:

_ لامؤاخذه يا ست هانم؛ تقلت في النوم، يا ألف نهار أبيض، نورتي بيتك ومطرحك يا ست صبا.

ردّت ترحبيه بابتسامة باهتة، وانطلقت للداخل، فتبعها حاملًا حقائبها حتى باب البيت الداخلي، توقّفت وتناولت منه المفتاح، وضعته بالرتاج، أدارته بتوجس ودفعت الباب برفق، فكأنها فتحت أحد الأبواب المُغلقة في ذاكرتها بعناية، دلفت للداخلِ فالتقط أنفها عطر والدها، تشعر بالدفء الذي كان يجتاحها حينما يضمّها بين ذراعيه، تتأمل المكان حولها بوجوم والذكريات تتزاحم وتتقافز في رأسها، أخرجها من تأملها صوت «مرغني» يسألها.. هل تريد شيئًا، شكرته وطلبت ألَّا يُزعجها أحد، خطا خطوتين نحو الباب، ثم عاد وقد اصطبغ وجهه بالخجل، فسألت:

_ في حاجة يا مرغني!؟

_ أصل يا ست هانم يعني حضرتك هتقعدي قد إيه؟

_ نعم؟!

_ مش قصدي حاجة والله، بس أصل أخت «صباح» الصغيّرة فرحها بعد يومين في أسوان، وكُنّا يعني بنستأذن حضرتك نسافر نحضره، أو أسافر بس أوصّلها هي والعيال وأرجع لحضرتك.

_ لا.. لا، سافروا النهارده، وخليك معاهم ماترجعش، أنا محتاجة أقعد لوحدي، ومش هحتاجلكم في حاجة.

_ ربّنا يباركلنا في حضرتك.

لم تُعقّب، تركته وصعدت لغرفتها، وكُلّما تجلّت أمامها ذكرى في أحد أركان البيت؛ هربت منها، تناولت المِنشفة واتجهت للمرحاض، فتحت الماء وتركته ينساب على جسدها، تقافزت إلى رأسها ذكرياتها يوم كان هناك «عمر» في حياتها، فانسابت دموعها. جلست القرفصاء مُحتضنةً جسدها بذراعيها، وبكاؤها يزداد حتى تحوّل إلى بكاءٍ هستيري. ظلّت على حالها إلى أن هدأت رويدًا رويدًا، وبدأت تتذكر لمَ أتت إلى هنا، فخرجت من المرحاض تُجفف شعرها، بدأت تنشغلَ عن ماضيها بحل اللغز. أخرجت ورقة اللغز من حقيبتها، تقرأها في طريقها إلى غرفة المكتب، أضاءت الغرفة واتجهت نحو التمثال، تفحّصته؛ فلم تجد زرًّا لغُرفٍ سرّية، لا شيء مميز في التمثال. ظلّت تُفتش بالغرفة عن زرٍّ لغرفة سرية حتى أُرهقت، وبدأت تشعر بالنُّعاس فعادت لغرفتها، تمددت في سريرها فأقبل النوم سريعًا يغزو عينيها ويُذهب وعيها، نامت كما لم تنم من قبل.

استيقظت على يدٍ تهز جسدها، فتحت عينيها بهدوءٍ، ثم أغلقتهما مرة أخرى، فعادت اليد تهز جسدها بعنف، وتُنادي اسمها بصوتٍ عالٍ.. كان كفيلًا لأن تهرب بقايا النوم العالقة في عينيها، فتحتهما بفزعٍ لتجد «صباح» زوجة الحارس، والتي حينما رأت الفزع في عيني «صبا»؛ ابتسمت مُعتذرة، ثم سألتها على استحياءٍ.. هل تسمح لهم

بالسفر الآن؟ ولمّا أعطتها «صبا» الموافقة؛ سألتها إن كانت ترغب شيئًا قبل ذهابهم، فقالت:

ـ ناوليني شنطتي الصغيرة اللّي هناك دي، لو سمحتِ.

أحضرت الحقيبة فاعتدلت «صبا» من نومتها تفرك جبهتها بألم، دسّت يدها في جيب الحقيبة الخارجي، وأخرجت مبلغًا من المال، ناولته للمرأة باسمةً بودٍّ:

ـ مبروك لأختك يا صباح.

ـ خيرك سابق والله يا ست صبا، الله يعمر بيتك، ويكرم أصلك يا رب.

ظلّت ترد على دعواتها بابتسامة عريضة حتى آلمها فكّها وازداد ألم صداعها، رحلت المرأة فتنفّست الصعداء، ظلّت شاردة في سريرها حتى سمعت صوتَ بوقِ سيارة. نهضت نحو النافذة وتابعت الحارس وهو يرحل بعائلته، تثاءبت ثم تمطّت براحة مُتّجهةً نحو حقيبتها. أخرجت ورقة اللغز وهبطت لأسفل تُعد كوبًا من القهوة، لمحت طعامًا مُغطًّى بقطعة قماش على منضدة المطبخ؛ فأصدرت معدتها أصواتًا لتُنبهها أنّها لم تأكل شيئًا من البارحة. اقتربت من الطعام، سحبت كُرسيًّا وجلست تأكل بلا شهية فقط تسد جوعها، ترى طيف «زين» جالسًا على الكرسيّ المُتاخم لها، يُطعمها بيده، ويُمسّد شعرها بحنان، تذكر آخر حديث لهما هنا بعد أن أنهت علاقتها بـ «عمر» وأرادت أن تُريح أعصابها بعيدًا عن صخب القاهرة؛ فأتت إلى هذا البيت برفقته، ورغم رفضه لـ «عمر» في بداية الأمر إلّا أن وقتها موقفُه كان مُختلفًا، نصحها بأن تعود لـه ولا

تُكرّر خطأه وتتزوج ممن لم تتآلف روحها معه؛ كي لا تظلم نفسها قبل أن تظلمه. تقلّبت الذكريات في رأسها وعادت لخطاب والدها الأخير وحديثه عن والدتها، انزلقت كُرتا عينيها داخل محجريهما في ندم، مُتذكّرةً كيف كانت تُعاملها بعد خطبتها لـ عمر، تشاجرا كثيرًا بسبَب قسوتها على والدتها وحدّتها في الحديث معها، حاول أن يُرقق قلبها نحو عمّته، ورغم كثرة محاولاته كانت ترفض وبشدة، تسمع الآن جملتها التي كررتها كثيرًا له مُهددةً من الخوض بهذا الموضوع «مش كفاية إني تنازلت وسمحتلها تحضر خطوبتي! ماتخلنيش آخدك بذنبها يا عمر، ولو سمحت الموضوع ده ما يتفتحش تاني»، ابتسمت الآن بسخرية تُتمتم «ذنبها!»، من هو المُذنب هنا؟! ما عادت تستطيع تحديد الضحية من الجلاد، سياط الصدمة تجلدُ ظهرها بعنفٍ؛ لتُشغلها بالألم عن التفكير! ذكرياتها سدّت شهيتها عن الطعام، تركته ونهضت لغرفتها، تُريد الآن محادثة والدتها، تتمنى لو تسمع صوتها؛ فيطمئن قلبها ويصمت أنينه، وضعت الورقة في جيب بنطالها واتجهت نحو الغرفة، لكنّها توقّفت فجأة عند إحدى الغُرف القابعة في نهاية الممر بالطابق الثاني، اقتربت ووقفت تتأملها، فتحركت كُرتا عينيها لأعلى اليمين، وبدأ جبينها في الانكماش تدريجيًّا، بدت وكأنها تستعيد شيئًا من ذاكرتها، اتسعت عيناها وانفرج فوها قليلًا، ورأسها يستعيد لقطة من الماضي، حينما استيقظت وهبطت باحثةً عن والدها، فلم تجده بغرفة المكتب؛ صعدت لغرفته ولم تجده أيضًا، ولّت الغرفة ظهرها وكانت على وشك أن تهبط أسفل؛ لولا أن وجدته يخرج من غرفته، فنظرت له بدهشةٍ سائلة:

ـ بابا، كنت فين؟

ـ في أوضتي.

ـ إزاي؟! أنا لسه كنت بدوّر على حضرتك فيها!

ضحك قائلًا:

ـ يمكن علشان لسه صاحيه مش مركزه بس إيه النوم ده كله!، الطريق طويل آه، بس مش لدرجة إنك تنامي يوم كامل، وكنتِ داخله ع التاني.

حوّط كتفيها بذراعه، ثم بدأ بتغيير الموضوع، اقتربت من باب الغرفة وأمالت مقبضه، فوجدته مُغلقًا بالمفتاح، اتصلت بالحارس و سألته عنه فأخبرها بمكانه وسريعاً أحضرته و فتحت الغرفة، تتأمل تفاصيلها، الأثاثات كئيبة بلا حياة بعد أن رحل، وقعت عيناها على تمثالٍ مماثل للمرأة القابعة بغرفة المكتب، ولكن حجمه أصغر، فابتسمت بانتصار؛ لأنّ ذاكرتها مازالت قوية لتتذكر هذا التمثال رغم أنّها قليلة الدخولَ للغرفة، ولم تره سوى مرتين. تقترب منه وتتجه أصابعها تلقائيًّا نحو الوردة النابتة من ظهر المرأة؛ لتجد أن هناك زِرًّا بالفعل، ارتفع وجيب قلبها وهي تضغط الزر برفقٍ لتسمع الصوت الذي يُصدره المفتاح حينما يدور بالرتاج، ثم بدأتْ المكتبة التي تمتد بعرض وطول الحائط كاملًا في التحرك رويدًا رويدًا. عادت للخلف قليلًا تتأمل المشهد في انبهارٍ وذهولٍ يُخالطهما فرحة الانتصار في حل الجزء الأكبر من اللغز. تقترب خطوتين من الباب، الغرفةُ مُظلمة، اقتربت أكثر ولم تدرِ أن هناك جيشًا من التراب ينتظر الفرصة لفتح

الباب، سُعالٌ مكتومٌ لا ينقطع من صدرها دفعها للخروج سريعًا من الغرفة والتقاط أنفاسها.كمَّمت أنفها بكفّها مُقررة تحدي جيش التراب ومجابهته، تدخل للغرفة مرة أخرى، تتحسس الحائط ربما تجدُ زرًّا لمصدر إنارة يُبدد هذه الظلمة فلم تجد. وفي طريق يدها، وهي عائدة لها مُحبطة، اصطدمت بخيطٍ سميك قليلًا. تحسسته، تعتقد أنّه مفتاحُ مصباح قديم، جذبته لأسفل برفق؛ فأنارت لمبة نيون صفراء صغيرة. تتأمل الغرفة بهدوء، غرفة متوسطة لا ضيّقة ولا واسعة، ربما تُشبه القبو كثيرًا، تمتلئ حوائطها بالرفوف، رفوف تحوي أشياءً قديمة تخص والداها، اقتربت من أحدهم فوجدت ذكرياته مع «صبا»، المرأة التي كانت سببًا في عذاب والدتها، أعادت الأوراق لمكانها بغضب وبدأت تتأمل الأغراض التي يحتفظ بها «زين» في الغرفة، تذكّرت اللغز فأخرجت الورقة من جيبها وبدأت تقرأ، تُحاول فك الشفرة وفهم ما كان يرمي إليه بباقي جُمله، تبحث بلا هدف حتى وجدت دُمية جعلتها تبتسمُ ملء شدقيها، رفعتها عن الأرض مُتذكّرةً كيف كانت رفيقتها الوحيدة والأقرب في طفولتها، ثم اختفت وهي نسيتها في خِضَمّ الحياة، كم اشتاقت لهذه الدمية، ضمّتها إلى صدرها ثم عادت تتأمل فستانها، وتتذكر أنّها من صنعته بنفسها ومساعدة صديقة والدها الشاعرة الفلسطينية، والتي أهدتها هذه الدمية فَسَمَّتها باسمها، حدّثت نفسها «ماذا كان اسمها؟ أها «ريما»، توقفت فجأة عن التفكير ودقات قلبها تتسارع بقوة، نظرت للغز وقرأت « تُذكّرُني دومًا بـ ريما، التي صفعتني في تشرين الأول، فعاقبتها وأسرتها في

ظلمة القبو الأسود، رغم أنّها آلمت قلبي بقبضتها التي شعرت أنها من حديد إلَّا أنّي دفنت في جوفها سرَّ الحياة والنّجاة «تحرّكت كُرتا عينيها لليمين، مُتذكّرةً جملة الصحفي سعد حينما كانوا يحاولون حل اللغز» أوضح حاجة عرفت أوصلها في الكلام ده كله هي «تشرين الأول» يعني بالشهور بتاعتنا كده شهر «أكتوبر»، فردّت سهيلة: «أظن اللّي نركز عليه هو اللّي اسمها «ريما»، عادت تنظر للدمية وكُرتا عينيها ترتفعان لأسفل اليمين، مُستعيدة مشهد الشجار الذي حدث بين أبويها، ترى صورتها وهي تضرب والدها بنفس الدمية؛ ليكف عن ضرب والدتها. لن تنسى تاريخ هذا اليوم، استعادته لتجده بشهر أكتوبر، تمتمت «فعاقبتها وأسرتها في ظلمة القبو الأسود»، نظرت نظرة سريعة على الغرفة، ثم عادت تُتمتم «إلَّا أنّي دفنت في جوفها سرَّ الحياة والنّجاة»، وسريعًا قلبت الدمية على وجهها، رفعت الفستان وفتحت السَحَّاب فوجدت كيسًا، فتحت طرفَه لتجد ما كانت تبحث عنه، قفزت فَرِحةً ثم خرجت بالدمية لغرفة والدها، تتفحص ما وجدته في هواءٍ منعش بعيدًا عن رائحة الأتربة، جلست على مكتبٍ صغيرٍ في غرفته، وأخرجت الكيس من ظهر الدمية، فتحته وبدأت تتفحص ما يحويه، أربع أسطوانات والكثير من الأوراق والصور. وضعت الأسطوانات جانبًا وتفحّصت الأوراق بنظرة سريعة، بعض الأسماء الموجودة كانت تعرفها وبعضها لم تسمع عنه من قبل، شاهدت الصور، بعض منها بعمليات مشبوهة والبعض بحفلاتهم وسهراتهم الخاصة، لابد أن فريق والدها تعبوا كثيرًا؛ فالمعلومات

كافية لإيصال أسماء أصحابها لأحبال المشنقة، رفعت الأوراق لتقرأ جيدًا فسقط منها ظرفٌ صغير، وضعتهم جانبًا وتفحّصت الظرف، مكتوبٌ عليه «خاص بـ إبراهيم» وبه ورقة مطوية، كانت ستتركه جانبًا حتى تُعطيه لصاحبه، لكنّ فضولها دفعها لإخراج الورقة مُبررةً أن والدها بالتأكيدِ سيُخبر إبراهيم شيئًا يخص الأوراق التي أصبحت بحوزتها الآن، فتحت الورقة، وبدأت تقرأ:

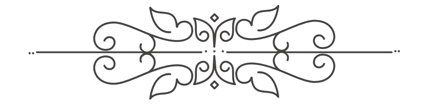
«تلميذي النجيب وابني إبراهيم، لم أستطع توديعكم كما ينبغي فسامحوني، أود أن تُسدي لي معروفًا وقبل أن أطلبه منك سأخبرك بالشيء الذي اكتشفته وأخفيته عنكم، عَلِمْتُ من هو رأس الأفعى وحلقة الوصل بين أفراد «المافيا» خارج مصر وداخلها، إنّه ومع الأسف الشديد..» قرأت الجملة أكثر من مرة وبكل مرة تتسع عيناها أكثر، توقّفت عند اسمه جاحظة العينين، تهز رأسها ببطء يمينًا ويسارًا في عدم استيعاب لما تقرأ، تخدّرت أطرافها وبردت، اضطربت دقات قلبها وتحوّلت لطبولٍ تصم أذنيها، تشعر أن كل شريان في جسدها تفاعل مع قرع الطبولِ، وقرر أن يُكمل السمفونية، فبدأ ينبض بقوة «مازن» ابن أخي وزوج ابنتي الوحيدة «صبا»، نادم أنني سلّمته ابنتي بيدي، لكن هيهات أن ينفع الندم الآن، لا أصدق أن من ربَّيته يُشارك، بل ويُدير جرائم بشعة كهذه، ولقد عَلِمَ أنني افتضحت سرَّه فهددني بصبا، حاولت إنقاذها منه، لكنّه سافر بها إلى باريس مُتعمدًا، وأنا أنتظر عودتها، ربما لا أستطيع اللحاق بها؛ فأنا أعلم جيدًا أن نهايتي قد اقتربت، شممت رائحة الموت في فحيحه مُحذرًا من البوح، لطالما اعتبرتك ابني؛ فاعتبر «صبا» أختك، وأنقذها من قبضته،

ستجد ضمن الأسطوانات أسطوانةً بها جلُّ فضائحه، وبعدما يتم القبض عليه طلقها منه واحْمِها. أعلم أن الحمل ثقيل عليك يا بني؛ لذا أطلب منك أن تخبر «عمر عبد القادر» الضابط الذي ساعدنا في الحصول على ملفاتٍ بأمن الدولة، وهو بذات الوقت ابن خال ابنتي صبا، يحبها وسيحميها، ويساعدكم جيدًا، أوصيك بصبا يا إبراهيم؛ فلا تنسَ».

ابتلعت ريقها، فشعرت أن ثمة أشواك في حلقها، وأحبال تلتف حول جيدها، وتخنقها بلا رحمة، ها هي الدموع تتجمد في عينيها؛ فغبّشت رؤيتها، شهقت بعنف، تشعر أنّها في نفق مُظلم ضيّق تُحاول التقاط الأكسجين بشق الأنفس، تُتمتم غير مُصدّقة «مستحيل»!! أيُعقل أن تلك اليد الحانية تمتد لتؤذي أحدًا، بل وتُدبر لكل هذه الجرائم؟! أيُعقل أن من تحتمي بين ذراعيه من الخوف؛ هو بذاته مصدر الخوف والألم في حياتها؟! وضعت يدها على قلبها، يؤلمها بشدة، وكأن أحدهم يطعنه بخنجرٍ مسموم، انسابت دموعها ساخنة تلفح خديها، وفجأة انتشلها من صدمتها صوتُ ارتطام شيء بالطابق السفلي، فتحت عينيها وخرجت من الغرفة بهدوء، سمعت همهماتٍ ووقعَ أقدام بالأسفل، شهقت فزعة ثم كممت فاها بكفها، عادت للغرفة على أطراف أصابعها وأغلقت بابها بالمفتاح بهدوء، هرولت نحو الصور والأوراق والأسطوانات، أعادتها للكيس ثم وضعته كما كان في جوف الدمية، أعادتها للغرفة السرية وأغلقتها، وقفت تُحاول استرداد أنفاسها اللاهثة، ثم بدأت تبحث عن شيءٍ تحتمي به في الغرفة فلم تجد، خرجت على أطراف أصابعها نحو غرفتها؛ لتتصل

بأحدٍ ينقذها، وحينما اقتربت من الغرفة، فُتح الباب فسقط قلبها بين قدميها، ظهر رجل ضخم الجثة، حاد الملامح، نظرا لبعضهما لثانية مرّت دهرًا، ثم بدأ الهجوم بنفس اللحظة التي سابقت فيها ساقاها الريح هاربةً، حاول رجلٌ آخر الإمساك بها لكنّها استطاعت الإفلات منه. فتحت باب البيت وهرولت خارجًا، المفاجأة شلّت تفكيرها، لا تعلم ماذا تفعل؟! تجري بلا هدف، التفتت للخلف تركضُ بأقصى سرعة فرأت الرجلين يخرجان من البيت مُسرعين خلفها، تذكُر أنّها أخبرت «مازن» يومًا عن أمر البيت رغم تشديد والدها على ألَّا تُخبر أحدًا لكنّه زوجها إن لم تثق بشريك حياتها بمن ستثق إذًا! لابد وأنّه قرأ خطاب والدها وعَلِمَ أنّه يُخبيء كل شيء هنا، أو ربما يراقبها. يا إلهي! لقد أصبحا قريبين منها جدًّا، دخلت وسط الأشجار، الظلام مُوحش يزيد الرعبَ في قلبها والصمت يحفُّ المكان. فجأةً، شقت هذا الصمت طلقاتُ رصاص فصرخت، ومازالت تركض بكل ما أوتيت من قوة، وقفت لاهثةً، نظرت خلفها ثم تابعت الركض حينما لمحت الرجلين اللّذين يحاولان اللحاق بها، ترتعد فرائصها، اختبأت لاهثةً مصدومةً خلف إحدى الأشجار الضخمة، مازالت لا تُصدق ما عَلِمَته اليوم وما رأته للتوّ، تبكي بخوفٍ وألم، ارتفع وجيب قلبها وظلّت تدعو الله أن يُنجيها حينما سمعت وقع أقدامهم تدك الأوراق الذابلة وكأن خطواتهم تدك قلبها، اقترب الصوت منها، هرولت مُسرعةً فسمعوا خطواتها، أُطلِقَت رصاصةٌ في الهواء فصرخت

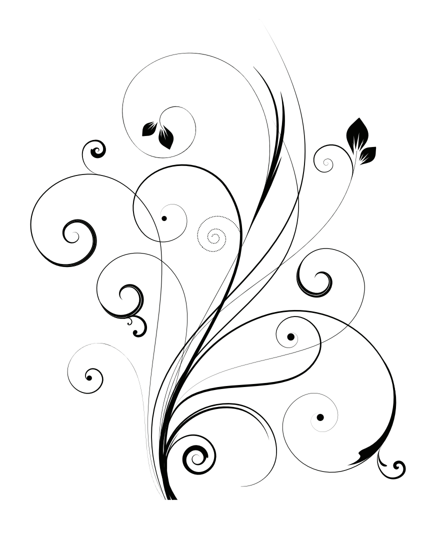
ومازالت تركض، وقعت أرضًا، اقترب أحدهما من الإمساك بها؛ فأمسكت في قبضتها حجرًا، وألقته في وجهه، صرخ مُتألمًا فزحفت واستطاعت النهوض، خرجت من بين الأشجار، وبدون تفكير، هرولت مُرتاعةً نحو الطريق غير عابئة بطلقات الرصاص التي تُلاحقها، فإذا بصوت فرملةٍ، وصرختها الأخيرة، قبل أن تصدمها سيارة مسرعة على الطريق.





من الأفضل أن يكون أمامك أسدٌ مفترس على أن يكون وراءك كلبٌ خائن.

مثل إيرلندي



جالسة بالأرض، تسند ظهرها إلى المكتبة جانب التمثال، وجانبها بعض الكتب الواقعة من أحد الرفوف، والمُجلد الكبير الذي وقع على رأسها للتوّ، وأعادها لصبا القديمة، ملامحُ وجهها مُتقلّصة، ها هي تستعيد ذكرياتها دفعةً واحدة، تضع يدها على قلبها لتُوقف نزيفه ونزيف روحها، رفعت جفنيها بهدوء، ترى الآن الغرفة بعين «صبا» القديمة، نهضت عن الأرض فاختلَّ توازنها. استندت إلى المكتبة ثم خطت نحو المرحاض مُترنّحة، غسلت وجهها وصبّت الماء البارد على رأسها، ثم خرجت والمنشفة على وجهها، الصداعُ مؤلمٌ جدًّا يفتك كل خليّةٍ برأسها، ألقت المنشفة على أحد الكراسي، وكانت تتجه نحو المطبخ؛ لتصنع كوبًا من القهوة حينما تسمّرت فجأة في مكانها غير مُصدّقة ما تراه عينيها! حملقت بريبة، ولا تعلم هل ما تراه حقيقة؟ أم محض تهيؤات!

ـ إيه رأيك بقى في المفاجأة دي!؟

موجات صوته انتقلت لأذنيها تحملُ الذعر، فارتجف جسدها، تأملته جاحظة العينين، شاحبة الوجه، اقترب منها فازداد ارتجاف جسدها، كان على وشك أن يضمّها لولا أن دفعته، وعادت للخلف؛ فسألها مُستنكرًا «ما بها؟»، سألت بصوتٍ مُرتعش تُحاول إكسابه القوة:

ـ عـ.. عرفت مـ.. منين.. منين إنّي هنا!؟

ـ من مامتك.

صرخت في وجهه:

ـ كداااااب، ماما ماتعرفش البيت ده، أنا اللّي للأسف حكيتلك عنه، رغم إن بابا نبّه ماقولش لحد واللّا نسيت؟!

بُهت، وحاول الحفاظ على هدوئه، قائلًا:

ـ إيه ده! هي الذاكرة رجعتلك يا «صبا»!؟

ـ من سوء حظك إنها خلاص رجعتلي يا مجرم.

ـ مجرم؟! «صبا» إنتِ بتقولي إيه؟ مالك!؟

ـ أيوه مجرم، بس حقيقي مش عارفه أقولهالك على إيه واللّا إيه! على أرواح الناس البريئة اللّي سلبتوها؟ واللّا على إنك قتلت أبويا.. عمّك اللّي ربّاك؟ واللّا على إنك سبتني أعيش كل ده فاقدة للذاكرة؟ وبتوهمني إنك الملاك البريء، واللّا يمكن علشان بعدتني عن هنا، وسافرنا بحجة العلاج؟ وده طبعًا السبب اللّي خلّاك تودينى لدكاترة إنت وبس اللّي تعرفهم، وكلهم بيقولوا نفس الكلام، مفيش أمل عشان أهرب للحل الوحيد اللّي سبتوه مُتاح ليّا.. إنّي أعيش إنسانة جديدة من غير ماضي، عروسة مريونيت بتحرك خيوطها في الاتجاه اللّي يعجبك، وصفحة بيضا تكتب فيها اللّي إنت عاوزه وبس! إنت أحقر إنسان قابلته في حياتي.

ـ «صبا» حبيبتي، أنـ...

ـ اخرررس، وماتقولش حبيبتي دي، أنا قرفانة من نفسي أوي؛ إن وضيع زيك يبقى جوزي وأبو بنتي.

ـ «صبا» مش فاهم بتتكلمي عن إيه!؟

_ لأ. إنت فاهم كويس أوي، وده سبب وجودك هنا، جاي تتمم المهمة اللّي رجالتك فشلوا فيها أول مرة، وماتحاولش تنكر، أنا عرفت كل حاجة، وهوديك في ستين داهية.

_ حلو أوي. بما إننا وصلنا للنقطة دي، تعرفي إنك كنتِ هتتقتلي أكتر من مرة، بس أنا حميتك! حميتك لأنك أغلى عندي من روحي.

_ أغلى عندك، واللّا عشان وقتها اكتشفتوا إني فاقدة الذاكرة، ومابقاش فيه خطر مني؟!

_ «صبا» حبيبتي، هاتي الورق اللّي معاكِ، هنحرقه سوا، وأوعدك هبعد بيكِ وببنتنا عن كل ده، أوعدك هننسى كل حاجة سوا.

_ وتفتكر هقدر أنسى صورة بابا وروحه بتطلع وهو بين إيديا؟! تفتكر ده هيغسل دم الأبرياء والأطفال اللّي مغرق إيديك؟ هيمسح دموع يتيمة بتبكي كل ليلة من القهر على حياة بتعيشها بذل وهوان مُجبرة؟ هيرجّع سميحة اللّي قتلتوها وقولتوا انتحرت؟! أنا بكرررهك.

اقترب منها يُحاول ضمّها؛ فهرولت تجاه المطبخ، والتقطت سكينًا، أشهرته في وجهه بيدٍ مُرتعشة مُهددةً:

_ إيّاك تقرّب منّي خطوة زيادة.

توقّف قائلًا:

_ حبيبتي اسمعيني، حُطّي السكينة دي، وخلينا نتكلم بهدوء.

_ مابقاش فيه كلام يتقال خلاص، ارجع ورا ماتقرّبش، بقولّك ماتقرّبش.

لم يعِرِ انتباهًا لتهديدها، اقترب وبحركة سريعة قبض على يدها، وجذب السكين منها، ثم ضمّها إلى صدره، دفعته بقوة وركضت فلحق بها، وحاصر جسدها بينه وبين الحائط، حاولت الإفلات فحبسها بين ذراعيه، ظلّت تضرب وجهه وصدره بقبضتها، قيّد كفّيها بكفّيه، تَعِبَتْ من المقاومة؛ فخمدت ثورتها قليلًا، قال مُستعطفًا:

_ أرجوكِ يا «صبا»، ماتضطرنيش أدوس على قلبي، وأذيكِ.

_ هو إنت لسه ما آذتنيش! علشان كده أول مافتحت عيوني كنت خايفة منك، وماكنتش قادرة بسرعة أثق فيك وأحبك، عرفت مين الراجل اللّي كان بيحاول يقتلني في كوابيسي، عرفت دلوقتي مين أعدا أعدائي، وللأسف هو أقرب حد ليّا.

سكنت، انهمرت دموعها بغزارة فلمّا رآها هادئة، أفلت يدها من قبضته، هذّب غُرّتها، وفي طريقه نحو تقبيلها باغتته ودفعته بكل ما أوتيت من قوة، كانت دفعتها مُفاجئةً له فاختلّ توازنه، وسنحت لها الفرصة لتهرب، ركضت مُسرعةً نحو الباب، فتحته وهرولت للخارج وهو خلفها، دخلت وسط الأشجار، ها هو المشهد يتكررُ مرةً أخرى لكن في وضح النهار. تكادُ هرولتها تقتلع قلبها الآخذة نبضاته في التلاحق بشدة،لم تعد تحتمل، نظرت خلفها فوجدته على مقربة منها، زادت من سرعة ركضها حتى اقتربت من الطريق، أمسك بطرف ملابسها وجذبها نحوه بقوة؛ فتمزقت وأفلتت منه مُسرعةً نحو الطريق، ومازال خلفها، أمسك بها في نفس اللحظة التي صدح فيها صوت فرملة سيارة توقّفت أمامهما فجأة على الطريق.

***

استيقظت الطفلة وظلّت تصرخ باحثة عن أمها، حملها «عمر» بحنانٍ بالغ، وأخذ يُهدهدها ويُهديء من روعها إلى أن استكانت قليلًا. اقترَحت «منى» أن يعودا لصبا، فرفض وآثر أن يُعطياها الفرصة لتُحاول استعادة ذاكرتها، أصّرت أخته ولم يصمد أمام إلحاحها، فأخبرها أنّه سيمر ليطمئن على «صبا» في طريقه لعمله. تركهما، جمع أغراضه وسلاحه ورحل، هو أيضًا ليس مُطمئنًا عليها وحدها، ظلّت نفسه تُنازعه حتى قرر أن يمر عليها أولًا ثم يذهب لعمله، كان في طريقه نحو البيت عندما خرجت امرأة راكضةً من بين الأشجار وخلفها رجل يُحاول الإمساك بها؛ ففرمل عمر سيارته قبل أن يصدمهما، صُدِمَ عندما تبيّن ملامح المرأة ووجدها «صبا» مذعورة ومازن يُمسك بها، هبط من سيارته فوجدت «صبا» طوق نجاتها، حينما رأته زادت ثقةً وقوةً لتستطيع الإفلات من يديه، احتمت خلف ظهر عمر لاهثةً، مازال لم يستوعب وجود مازن هنا، وقد عَلِمَ منها أنه بـ «لندن»! آلمه ذُعرها؛ فسأل:

_ فيه إيه يا مازن، إيه اللّي حصل!؟

ردّ الآخر لاهثًا:

_ ماتشغلش بالك يا عمر، مشكلة بسيطة وهنحلها سوا، تعالي يلّا يا «صبا».

قبضت على سترة عمر من الخلف، ونطقت بحروفٍ مُبهمة من أنفاسها المُتلاحقة:

_ إلـ.. إلحقني يا عمر، ماتسبنيش معاه، هيقتلني.

يسمعها مُتّسع العينين، ولا يستطيع فهم قصدها، لكن ما فهمه أن

«مازن» الآن يُشكِّلُ خطرًا كبيرًا لها، وبدا ذلك واضحًا حينما حاول «مازن» الاقتراب منها؛ فاختبأت مُرتعبة خلف ظهره، دفعه بعيدًا عنها، وقال مُحاولًا امتلاك أعصابه:

_ لو فيه مشكلة حِلّها معايا أنا.

صرخت في عمر:

_ إنت لسه بتتناقش معاه، اقبض عليه بسرعة، المجرم ده هو اللّي قتل بابا، وهو السبب في كل اللّي حصلي.

مازال لم يستوعب ما ترمي إليه، لكنّه وضع يده بهدوء على سلاحه، وقبل أن يرفعه، أخرج مازن سلاحًا من جيب سُترته، وأشهره في وجه «صبا» مُهددًا:

_ نزّل سلاحك ع الأرض.

رفع عمر مُسدّسه بهدوءٍ، وهبط به نحو الأرض واهمًا مازن بالاستسلام، باغته برَكْلةٍ في قدمه جعلت جسده يترنّح، وتخرج من فوهة مُسدسه طلقةٌ في الهواء دفعت «صبا» للصراخ، هرول عمر نحوه قبل أن يستعيد توازنه، وباغته بدفعة أخرى أسقطته أرضًا، انهال عليه باللّكمات، سرعان ما استعاد مازن قوّته وبادله اللكمات، ظلّا يتعاركان، وصبا تُتابعهما مذعورة، لا تدرِ ما عليها فعله. مُسدّسُ عمر تحت قدميها، رفعته عن الأرض بيدٍ مرتعشة، وصوّبته تجاه مازن، كانت على وشك أن تضغط الزناد؛ فتبدل مكان مازن وأصبح في مواجهة المسدس «عمر»، تُحاول التغلّب على تشتُّتها، صوّبت نحو مازن هذه المرة، وبدون تردد ضغطت الزناد مُغمضة العينين، خائفة

من أن تكون قد أخطأت وأصابت عمر، توقّف الشجارُ حينما صدح صوت الرصاصة، لقد أصابت ذراع مازن، جذبه عمر من تلابيبه، رفعه عن الأرض وسحبه مُتجهًا به نحو السيّارة؛ فباغته مازن بطعنة من سكين صغير كان يُخبّئه في ملابسه، أفلته عمر مُتألّمًا؛ فسنحت له فرصة الهروب، صرخت «صبا» جزعة، وأسندت عمر قبل أن يهوي على الأرض، هرول مازن مُبتعدًا عنهما حتى وجد سيارة «نصف نقل» مارَّة من الطريق، فأوقفها وهدد السائق بمُسدّسه الذي التقطه منذ قليل عن الأرض، هبط السائق رافعًا يديه، ولمّا حاول المُقاومة أطلق مازن في صدره رصاصة، واستقلّ السيارة هاربًا، تناسى عمر ألمه، صعد للسيارة وطلب من «صبا» أن تتولى القيادة، وتلحق بالسيارة التي يقودها مازن، وفي طريقهما اتصل بصديقه «سالم» ليُرسل سيارة إسعاف تحمل السائق المُلقى على الطريق، وقوات دعم تُساعده على الإمساك بمازن، قادت «صبا» بأقصى سرعةٍ خلفه، وعمر يُحاول تسديد طلقاته إليه، تبادلا إطلاق النار، صوّب هذه المرة على إطارات السيارة؛ فانحرفت بـ «مازن» وانقلبت من مُنحدرٍ عالٍ، أوقفت «صبا» السيارة، هبطوا منها ليروا ما حدث له، تابعواً سيّارة مازن وقد بدأت الأبخرة تخرج منها، وسرعان ما انفجرت ونشبت النيران فيها. تتأمل السيّارة المُشتعلة بعيونٍ أرهقها الدمع، مازالت لم تستفق من صدمتها بعد، شتت شرودها أنين «عمر»؛ فتذكّرت أنّه مُصاب، أسندته حتى جلس بالمقعد الخلفي للسيارة، وتفحّصت جرحه، حاول طمئنتها وحينما لاحظ لمعة الحب والخوف في عينيها

ابتسم رغم ألمه، رفعت رأسها لتجده يتأملها، نظرتها هذه المرّة مختلفة، الآن يشعر أن الواقفة أمامه «صبا» حبيبته، ليست تلك الغريبة التي قهرته وانتحلت شخصيتها عنوة، عاتبتها عيناه فردّت عيناها بالندمِ والأسف، سألها بصوتٍ يملؤه الفرح:

_ «صبا» إنتِ افتكرتيني؟!

_ وهو أنا كنت نسيتك يا عمر؟! أنا حقيقي آسفة، كل اللّي حصل في حياتنا ده بسبب غبائي وتسرُّعي.

_ مش وقت العتاب، المهم دلوقتي.. قوليلي إيه حكاية مازن؟ وإيه الكلام اللّي قولتيه عنه ده؟ وكان بيطاردك ليه؟!

_ هقولك على كل حاجة، بس لمّا نطَّمّن عليك الأول، محتاجين نرجع بيت الجبل، فيه هناك ملفّات لقضية كان لازم تتفتح من زمان.

قاطع حديثهما وصولُ سيارات الدعم بقيادة «سالم» الذي حضر برفقته سيارة إسعاف حملت «عمر» و»صبا» تُرافقه.

***

تسيرُ في الطرقات هائمةً على وجهها، شاردة بكل ما حدث في حياتها، توقّفت فجأةً لتكتشف أن قدمها جرّتها إلى قبره. وقفت أمام القبر تتأمل اسمه المحفور على لوحة الرخام «المرحوم والمغفور له- بإذن الله- زين العابدين منصور القاضي»، وكفف دمعها فدنت من القبر أكثر، جلست على حافّته جانب اللوحة، تمددت بالأرض فوق اسمه وأغمضت عينيها، فسالت دموعها بغزارة، تدعسُ خدّها

باللوحة أكثر؛ عسى مُعجزة تحدث وتخترقها لترتمي بين ذراعيه، لا تدرِ كم مرَّ من الوقت وهي غافية على حالها، نهضت تفرك عينيها، لا تستطيع نسيان جحوظ عينيه، وجسده المُرتعش بين يديها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، مررت أناملها على القبر، وكأنّما تمسح على شعره، قائلةً:

ـ وحشتني أوي يا بابا، ومش هكدب عليك وأقول إنّي كويسة، أنا من بعدك مرِّيت بأهوال قتلت جوايا حاجات كتيره أوي، مش عارفه هقدر أفوق منها وأنساها إمتى؟! مريت بتجربة قاسية كفيلة تخليني أتمنى الموت جنبك في راحة، مش قادرة أتجاوز صدمتي في مازن، ولا إني عشت كل ده مع مجرم تحت سقف واحد، ولا إن نفس المجرم ده يبقى أبو بنتي، حاولت كتير بس مش قادرة يا بابا، أنا محتجالك جنبي محتجالك أوي.

عَلَا نحيبها للحظات، ثم بدأت تهدأ قليلًا، وتُكمل بصوتٍ مُتحشرجٍ مُتهدج:

ـ أنا خلاص نفّذت وصية حضرتك، القضايا اتفتحت، والمجرمين اتقبض عليهم، كان نفسي أوي أشوف فرحة الانتصار في عنيك وأشوف فرحتك إنت وفريقك بتحقيق هدفكم اللّي تعبتوا علشانه، لكن لا لقيتك ولا حتى لقيت حدّ من فريقك، لسّه في رقبتي وصية بس ماتقلقش هنفذهالك بعد ما أمشي من عندك، أنا عارفة إني اتأخرت فيها.. بس مش عارفة هواجه ماما ازّاي؟! طيب هقولها إيه؟ وهيكونلي عين أقول آسفة؟!

عادت لنحيبها تتأمل القبر بجزع، ألم قلبها يزداد، نهضت مُترنّحة، نظرت للقبر نظرة أخيرة، ثم ولّته ظهرها، كانت في طريقها نحو باب الخروج حينما سمعت صوتًا مألوفًا لأُذنيها، اتجهت نحو الصوت، اقتربت أكثر ودققت النظر؛ فاتسعت عيناها، وتمتمت «مش ممكن».

***

تَجُرُّ قدميها ككهل أهرمته نوائب الدهر، ملابسها السوداء مُغبّرة، برزت عظام وجهها، ملامحها انطفأت وأسرها الحزن والكآبة، وصلت أمام أحد القبور وجلست على حافته، مسحت على اللوحة الرخامية ثم انحنت وقبّلتها، جلست جانب القبر ثم بدأت تَقُصُّ له ما حدث في يومها، وكأنّه يسمعها ويرد عليها، أنهت حديثها ثم تنهّدت وأسندت رأسها على حافة القبر، أغمضت عينيها فبدأ شريط الذكريات يدور، يُقال إن الأيام أفضل دواء للجراح، لكنّ هذا الدواء لا مفعول له مع قلبها المكلوم، كلُّ يوم يتكرر المشهد في ذهنها؛ فتعيش مرارة ما حدث باليوم ألف مرة، ها هي تعود له وترى نفسها جالسة بصالة البيت، تُقلّب قنوات التلفاز. رنَّ جرس الباب فتركت جهاز التحكُّم، عدّلت من وضع حجابها ثم اقتربت من الباب تسأل عن الطارق،لم تجد إجابة، فتحت جزءًا من الباب بهدوء، فوجدت باقة ورد مُلقاة أمامه، ابتسمت فهي تعلم جيدًا صاحبها، فتحت الباب على مصراعيه، وانحنت لتلتقطها فسبقها وانحني مُتناولًا الباقة، راكعًا على ركبتيه، تورّدت وجنتاها وتناولتها منه، قرأت الورقة المدسوسة وسط الباقة «كل عام وإنت حبيبي»، رفعت أحد حاجبيها قائلةً:

ـ بس النهارده لا ذكرى كتب كتابنا، ولاحتى ذكرى أول يوم اتقابلنا فيه!، فما المناسبة يا زوجي العزيز؟!

ـ عدّيني بس كده أمّا أدخل.

دخل وأغلق الباب، ثم قال:

ـ مش مهم يكون فيه مُناسبة، كل يوم في وجودك جنبي لوحده عيد يستحق نحتفل بيه، عمومًا يا ستي النهارده قبضت من شغل جديد مبلغ عمري ما مسكته في حياتي، فلو سمحتِ ادخلي غيّري هدومك علشان هنتعشى بره، ونتفسّح شوية بما إنّ الجيب عمران.

ـ إيه ده هنخرج بجد؟! يعني أنا هطلع الشارع؟!

أومأ فقالت:

ـ بس يا فارس، إنت ناسي إنـ..

قاطعها:

ـ عندك شك إنك متجوزة راجل يقدر يحميكِ!؟

ـ لأ طبعًا مش قصدي، بس..

ـ يبقى مفيش بس، يلّا ادخلي غيّري، وأنا مستنيكِ هنا.

تركته وركضت للداخل، بدّلت ملابسها وهبطت معه، تناولا العشاء بأحد المطاعم، اشترى لها ملابسَ جديدة، حضرا فيلمًا بالسينما، ثم ذهبا في نزهةٍ على «كورنيش النيل»، جلست تنتظر وهو غاب لدقائق، ثم عاد حاملًا بعض «النقانق» بيد، وبالأخرى حلوى «غزل البنات»، التفتت إليه بوجهٍ ضاحك، تناولت ما بيده، وأفسحت له مكانًا جانبها، جلس مُلتصقًا بها، وحوّط كتفيها بذراعيه، قبّلت كفّه الموضوع على كتفها، صمتا لبرهة، ثم قطعت لحظات الصمت قائلةً:

ـ بقالي كتير أوي ما انبسطش بالشكل ده، أنا أصلًا مش مصدقة إنّي شايفة الشارع وقاعدة قُدّام النيل.

ـ خلاص يا حبيبتي، مفيش خوف تاني، وعلى فكرة مدام «صبا» سافرت الصعيد، وإن شاء الله هتقدر توصل للحاجة بسرعة، وهنفضحهم، ونعيش حياتنا بسلام.

رفعت رأسها عن كتفه، نظرت له بقلقٍ، ثم قالت:

ـ بص أنا مش مُتشائمة والله، بس معرفش ليه قلقانة ومش قادرة أفرح، تفتكر فعلًا الحقوق هترجع لأصحابها، وهننتصر ونعيش في سلام؟

ـ أبوس إيديك مش وقت نكد، أو تشاؤم، خلينا نحلم ونعيش على الأمل، أنا واثق في ربنا، الباطل مهما طال حبله قصيّر أوي، مسيره هيتقطع، وبعدين ما تقلقيش، أنا جنبك مش هسمح لأي حد يقرّبلك.

تسندُ رأسها، وتُلقي حملها على كتفه، قائلةً:

ـ إوعى تسيبني لحظة يا فارس، أنا ماليش غيرك في الدنيا.

طبع قبلةً على رأسها، وقال مُطمئنًا:

ـ ماتخافيش، أنا هفضل جنبك لآخر نفس فيّا.

جلسا يتسامران ويبنيان أحلامهما معًا حتى شعرت بالنُّعاس، فنهضا ليُوصلها للبيت قبل أن يعود لبيته، أوصلها لباب الشقّة، ودّعها بقُبْلة حانية طبعها على جبينها، ولّاها ظهره، ثم التفت فجأة وعاد يضَمّها بقوةٍ حتى آلمها، أفلتها مُعتذرًا، ثم ودّعها قائلًا:

ـ هتوحشيني أوي.

_ هلحق أوحشك يا بكّاش، كُلّها كام ساعة النهار يطلع، وألاقيك بتخبّط عليّا بقرطاس الطعمية وكيس الفول.

ابتسم ابتسامة باهتة أقلقتها، ثم ولّاها ظهره ورحل دون أن يتفوّه بكلمة أخرى، أغلقت الباب واتجهت نحو النافذة تُراقب رحيله كعادتها، اقترب من الانحراف والمُضي بشارع جانبي، فهمست «بُصّلي»، وكَكُل مرة تسمع روحه نداءها فتُجيب، التفت ونظر لها والابتسامة لا تُفارق محيّاه، لوّح ثم أكمل طريقه، استيقظت في منتصف الليل فَزِعَةً من كابوس، شيء ما داخلها حثّها على الاتصال بـ «فارس» والاطمئنان عليه، تناولت هاتفها، وطلبت رقمه فوجدت الهاتف مُغلقًا،لم تستطع النوم هذه الليلة، انتظرت الصباح قُرب نافذتها، ولمّا وصلت عقارب الساعة إلى الثامنة وقت قدومه، هرولت نحو باب الشقّة وفتحته فلم يدخل، خرجت تنظر للدَّرَج فلم تجد أحدًا، زفرت بضيق وعادت للبيت تنتظره، وقبل أن تُغلق الباب وجدت «سهيلة» تصعد الدَّرَج، استقبلتها مُرحِّبَةً فنظرت لها سهيلة بتيهٍ لا تدرِ ماذا تقول؟! لاحظت وجومها والقلق البادي على وجهها، فسألت بخوفٍ «مالك يا سهيلة؟»لا تذكر ما قالته تحديدًا، لا تذكر سوى أنّها سمعتها تقول «فارس في غيبوبة في المستشفى»، ثم بعدهالم تعد تسمع أو تشعر بشيء،لم تشعر حتى بقدميها وهما يجُرّان جسدها إلى المشفى، وقفت أمام غرفة العناية المُشددة تنظر بجزعٍ لجسده الموصول بالخراطيم والأجهزة، وقفت جانبها سهيلة تربت على كتفها، وتُحاول طمأنتها، سألتها ما الذي حدث؟ فأخبرتها أنّ

الشرطة وجدته بهذا الوضع على الطريق الصحراويّ، ها هي الآن تجد تفسير كابوسها، ظلّت على حالها قرابة نصف الساعة تتأمله وتُصلّي لأجله. فجأةً، خرجت الممرضة التي كانت تُرافقه صارخةً تُنادي الطبيب، هرولت سُهيلة للداخل، تبعها إبراهيم وطبيبان آخران، دخلوا للغرفة يُحاولون إنعاش قلبه الذي بدأ طريقه نحو السكون وهي واقفة تُراقبهم من النافذة الزجاجية، جسدها يرتجف، مع اهتزاز جسده، تضرب الزجاج بقبضتها وتصرخ «فارس، افتح عيونك أنا هنا، إنت وعدتني إنك مش هتسيبني مهما حصل، وعدتني وقولتلي.. فارس عمره ما بيخلف وعوده، أرجووك، أبوس إيديك قوم، فاااارس»

أصدر جهاز القلب صفيرًا يُعلنُ الوداع الأخير، جحظت عيناها والخط يستقيم، تَوقّف الأطباء يُتابعون أمر الله الذي نفذ، صرخت من الخارج تضرب الزجاج بعنف..

«وقفتوا ليييه؟! الحقوه، فارس بيروح، لأ.. استني عشان خاطري، إبراهيم اعمل حاجة، لطفك يااا الله»

نظرت لها سُهيلة دامعة العينين، وإبراهيم يرفع الملاءة ليُغطّي وجهه، هرعت نحو باب الغرفة، فتحته ودخلت مُسرعةً نحوه، دفعت إبراهيم بعيدًا عنه، وانكفأت تُقبّل رأسه وتهز جسده صارخةً «قووم يلّا يا فارس، أبوس إيديك اتحررك، مش هسمحلك تسيبني، يرضيك أتحرم منّك وأرجع مقطوعة من شجرة تاني!؟ يرضيك أعيش لوحدي!؟ قوم بقى يا فاارس».

تلتفّ حول نفسها كالمجنونة، لمحت جهاز الصدمات الكهربائية، تناولت أقطابه وفعلت مثلما كان يفعل إبراهيم منذ قليل، فاقتربت سهيلة وأخذت من يديها قُطبي الجهاز، شدّت جسدها، فدفعتها بعيدًا عنها، وضمّت جسده بقوة، اقتربت تُحاول رفعها عن جسده؛ فأشار لها إبراهيم أن تتركها لتودعه، ظلّت ضامّة جسده تهزي وتُغمغم بكلماتٍ غير مفهومة، أغمضت عينيها وشدّت ضمّتها عليه حتى ظنّوا أنّها غابت عن الوعي..».

ارتفع نحيبها جانب قبره، تتحدّثُ إليه:

_ أنا زعلانة منّك، مش قولتلك المرّة اللّي فاتت.. اطلب من ربنا ياخدني بقى عشان أعيش معاك؟ فارس، أنا أصلًا مُت معاك، معرفش أنا ليه لسّه فيّا الروح!

أوقف حديثها معه صوتُ إحداهن تهتف «فاتن؟!»، رفعت رأسها، نظرت لها برهة ثم عادت تنظر للقبر صامتةً، نظرت «صبا» لاسم صاحب القبر؛ فشهقت بجزع، ولم تحملها قدمها، جلست جانب «فاتن»، لا تعلم ماذا تقول؟ وكيف تُواسيها؟! ظلّت جالسة جانبها في صمت حتى قطعت الصمت أخيرًا، قائلةً:

_ أنا دوّرت عليكم كتير أوي، اختفيتوا فين؟!

أجابت دون أن تنظر إليها:

_ إنتِ اللّي اختفيتي، وماعرفناش عنّك حاجة بعد ما قُلتِ إنك مسافرة الصعيد.



_ أنا فعلًا سافرت، وقدرت أجيب الأوراق، لكن حصلتلي حادثة، وكنت فاقدة الذاكرة.

_ هه حتى إنتِ! طيب الحمد لله إنك نجيتي مش زي اللّي راحوا.

_ البقاء لله لموت فارس، أنا لسه عارفة حالًا لمّا قريت اسمه ع اللوحة، فين إبراهيم وسهيلة وسعد!؟ حتى عمو سمير اختفى! ده أنا كان نفسي أشوف فرحة الانتصار في عيونكم، إنتِ مش متابعة الأخبار؟ الدنيا مقلوبة، تعبكم ماراحش هدر.

_ مش هتلاقيهم، ثم إن خلاص ماعدش يفيد! هنعمل إيه بالانتقام، تفتكري هيرجّع حد منهم؟!

_ همَّا فين؟

_ صفّوهم واحد ورا التاني.

_ بتقولي إيه؟! ممكن تفهّميني إيه اللّي حصل!؟

_ بدأوا بـ «فارس»، واتقال عادي بتحصل، حرامية طلعوا عليه سرقوه، مخّلوش فيه حتة سليمة، ورموه ع الطريق الصحراوي، مالحقناش نقلع توب الحداد عليه، واتقلبت عربية إبراهيم بيه هو ومراته وراحوا، بعدهم بلطجية طلعوا على سعد عملوله عاهة مُستديمة، وساب البلد بيتعالج برّه، وحالته ميؤوس منها، وعم سمير اختفى فجأة، صفصفت عليّا، وكنت مستنيّة الموت كل لحظة بتمرّ، بس هم اختاروا يعذبوني، مش مكفيهم اللّي عملوه فيّا، تعرفي! أصعب حاجة إنك تفوقي فجأة على آخر حضن لأقرب حد ليكِ، إنّك تضُمّيه وهو في عالم تاني مش في الدنيا،كل حاجة تمر بسرعة أوي

وإنتِ واقفة قصاده، وهو متمدد يبقى نفسك تحضنيه بس بيحول بينك وبين ضمّته النعش، وتكتشفي إن المشهد ده أهون بكتير من اللّي جاي، أهون من إنّك تقعدي قدام قبره تتكلمي معاه وعينك مش قادرة توصلّه ولا قادرة تلمسيه، الحياة صحيح مش بتقف ولا تنتهي عند موت حد، لكن روحنا إحنا هي اللّي بتنتهي، والزمن بيقف عند آخر حضن، وآخر ضحكة، وآخر لمسة. ياريتهم قتلوني بس لأنهم عارفين إن الموت في حياة زي دي مُريح، قرروا يعاقبوني ويوجعوني، قتلوه هو عشان أبقى عايشة ومش عايشة في نفس الوقت. أبقى بتنفس زي البشر، لكن بلا روح، روحي مدفونة ضمّاه، فراق الموت ده بجد أصعب فراق.

لامست كلماتها جرح صبا،لم تتفوّه بكلمة، ظلّت تستمع لهذيانها حتى هبّت «فاتن» واقفةً وقررت الرحيل،لم تتركها «صبا» حتى أخذت عنوانها ورقم هاتفها، تابعتها بألم وهي تسير هائمةً على وجهها، قد تمضي لتدفن أحدهم فتنسى وتدًفن روحك معه، وتعود أنت ببقايا جسدٍ أنهكه الفراق.

***

ذهبت لتسأل عنها فأخبروها أنّها نائمة بغرفتها، تركت طفلتها مع «منى»، ودخلت لوالدتها على أطرافِ أصابعها؛ كي لا تُوقظها من نومها. جلست جانب سريرها تتأملها وهي نائمة، كم تشتاق «صبا» القديمة لهذا الوجه، رفعت يدها وبأناملٍ مُرتعشة مسّدت وجهها بحنانٍ باسمةً، تُمرر أناملها على كل تجعيدةً بوجهها، وتتخيّل

كم عانت وحيدة. فتحت «هدى» عينيها، وحينما رأتها ابتسمت ملء شدقيها، قبّلت «صبا» كفّيها، وقالت:

ـ باقي وصية واحدة من وصايا بابا، ومش عارفة أنفّذها، ممكن تساعديني؟

اعتدلت من نومتها سائلةً باهتمام عن هذه الوصيّة، نهضت «صبا» عن الأرض، وجلست جانبها، ثم قالت:

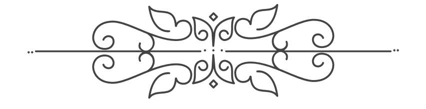
ـ كانت آخر وصيّة ليه إني أطلب منّك تسامحيه على كل اللّي عملوا فيكِ، حضرتك مش محتاجة تحكيلي أي حاجة ولا محتاجة فرصة تدافعي بيها عن نفسك؛ لأنك الضحيّة الوحيدة في كل اللّي حصل، أنا آسفة يا ماما، أرجوكِ تسامحينا أنا وبابا.

التمعت عينا هدى، مرّ أمام ناظريها الآن جلُّ ذكرياتها المريرة مع «زين»، جال بخاطرها حينما كانت تنزوي بغرفتها وتبكي، فتُطيّب «صبا» خاطرها، كم كانت تُهوّن عليها لحظات عذابها!

سمعت صوت «صبا» يتردد في أذنها صارخةً ترجوها ألَّا تتركها وترحل، كانت تتمنى ذاك اليوم لو تضمّها إلى صدرها! شعرت برغبة عارمة في ضمّها، فعلت وفتحت ذراعيها، فارتمت بينهما «صبا» باكيةً، مسحت على شعرها بحنان، قائلةً:

ـ أنا سامحت أبوكِ من زمان يا صبا، سامحته ودعيتله كتير إن ربنا يغفر له ويرحمه، أمّا إنتِ بقى فأنا قلبي مازعلش منك لحظة عشان تطلبي أسامحك يا حتّة منّي، أنا اللّي بطلب منك تسامحيني على كل لحظة احتجتيني فيها ومالقتنيش جنبك.

لم تتوقع أن تُسهّل عليها والدتها المهمّة بهذه السرعة، دفنت رأسها في صدرها فشدّت «هدى»، ضمّتها أكثر، ظلّت كالطفلة بين ذراعيها تسترجعان ذكرياتهما معًا، تارة تضحكان وأخرى تبكيان، ظلّتا هكذا حتى غلبهما النُّعاس؛ فاستعادت «صبا» إحدى عادات طفولتها، ونامت بين ذراعي والدتها في اطمئنان.



وقد يجمع الله الشتيتَيْن بعدما يظنّان كلَّ الظّن ألَّا تلاقيا..

قيس بن المُلوّح



تجلسُ خلف المكتب الصغير القابع في غرفة طفلتها، تأملتها في مهدها، ثم نقلت بصرها للحائط المُقابل؛ فانفرج ثغرها بابتسامة جذلة وهي تتأمل «حائط الذكريات»، داهم رأسها الصداع فتلاشت ابتسامتها وتقلّصت ملامحها، نظرت مليًّا للدفتر القابع أمامها، لا تزال قريحتها تبخل عليها بالكلمات، تشهق وتزفر بهدوءٍ، ثم تُمسك القلم، وتبدأ في الكتابة:

«عَلِمْتُ الصدمة التي أودت بذاكرتي، عَلِمْتُ ما هو الشعور حينما تُطعن ممن كنت تختبيء في أحضانه، أنا آسفة يا صغيرتي؛ لأن مُجرمًا- كهذا- اقترن اسمكِ باسمه».

توقّفت عن الكتابة، نظرت لكلماتها ثم قدَّت الورقة، تراجعت في كرسيها مُمسكةً قمة أنفها بأصبعين، تُريد أن تُخفي حقيقته المروّعة عن ابنتها، قررت أن تمحوه من ذاكرتها، مالت بجذعها قليلًا، تفتح صفحة بيضاء جديدة، وتُمسك بقلمها لتكتب:

«زينتي»، هذه المرة الأولى التي أكتب فيها لكِ بعد عودة ذاكرتي وشفائي من سقمي، أنا وأنتِ الآن نعيشِ في كنف الرجل الوحيد الذي أحببته «عمر» زوجي وحبيبي، أَظُنُّكِ أيضًا ستُحبينه، ولن تجدي أبًا حنونًا مثله، أشعر أن الله يُعوّضني به عن كل لحظة ألم مررت بها، اجتاز بي عالِم الخوف والألم والخداع وأعادني منه امرأة أخرى أُفكر في العالم، وأُعيد تقييم مُسلّماتي من جديد. حبيبتي، أنا الآنــ «توقّفت حينما سمعت صوت عمر يُغلق باب الشقة ويُناديها، أغلقت الدفتر ودسّته في دُرج المكتب، ثم رفعت صوتها مُجيبةً تُخبره أنّها بغرفة «زينة»، طرق البابَ ثم دخل فاستقبلته بابتسامة مُشرقة، دنا

منها وطبع قبلة على جبينها، وأخرى في باطن كفّها، ثم اتجه نحو مهد «زينة»، حملها بين ذراعيه يُلاعبها ويُلاطفها، تستمع «صبا» لقهقهة الصغيرة ضاحكةً، ثم قالت تتصنّع الغضب:

_ يا سلام!، كل ده لـ «زينة» بس، وأنا يتضحك عليّا بقُبلة على الراس، وأُخرى في الإيد مش كده؟

ضحك وهو يدنو منها، يُحيط «زينته» بذراع، والآخر يلفّه حول كتف «صباه» توسّدت صدره ليحتضن رأسها دافنًا أنفه بين خصلات شعرها مُستنشقًا عبيرها العطر، يمسح خده في شعرها بحنان مُتأملًا معها حائط الذكريات، رنّ هاتفه فأخرجه من جيبه، وحينما قرأ اسم المتصل ناولها زينة وخرج من الغرفة لبضع دقائق، ثم عاد قائلًا:

_ حبيبتي، غيّري لزينة هدومها، هنوديها عند عمتي عشان هنروح مشوار سريع، ونرجع ناخدها.

_ خير؟ مشوار فين ده؟!

اقترب، ثم أمسك كتفيها قائلًا:

_ ممنوع الأسئلة، ويلّا عشان ما نتأخرش.

انصاعت لطلبه، بدّلت ملابس صغيرتها وجهّزت أغراضها، ثم بدّلت ملابسها وذهبت معه إلى شقة والدتها، تركوا زينة معها ثم غادروا وكُلّما سألته عن وجهتهما يُجيب بالصمت، نظرت من النافذة في دهشة، قائلةً:

_ خرجنا برّه القاهرة، إحنا رايحين على فين بالضبط؟!

نظر لها رافعًا أحد حاجبيه، مُتصنّعًا الجدّية:

_ أنا خاطفك.

_ يا سلاااام، قول بقى بجد.

أوقف السيارة على جانب الطريق، وأخرج شريطًا أسود من جيب بنطاله، ثم اقترب ليُغطي عينيها، فابتعدت قليلًا قائلةً:

_عمر، إيه الجنان ده! ممكن أفهم في إيه؟!

_ فيه مفاجأة هتعرفيها بالضبط بعد عشر دقايق، ممكن بقى تلفّي عشان نمشي؟

ولّته ظهرها مُتمتمةً «لما نشوف آخرتها معاك»، غطّي عينيها ثم قاد السيارة مُتلهّفًا لأن يرى ردَّ فعلها حينما ترى مُفاجأته، وصلوا بعد عشر دقائق كما أخبرها، صفّ سيارته، أمسك يدها فشدّت عليها وهي تتحسس طريقها بحذر..

_ ها، وصلنا خلاص؟ أشيل بقى البتاعة اللّي عمتلي عيني دي؟

_ اصبري، خلاص أهه، باقي بالتحديد ثانيتين، إحودي بس يمين شوية، أيووه كده، أقفي بقى ومدّيلي إيديك.

نفّذت ما طلبه، وضع شيئًا ما في راحة يدها، حاولت أن تستكشفه فطلب منها أن تظل فاردةً كفّها ثم أمسكه ورفعه لأعلى قليلًا، فشعرت بأنفاسه ولسانه وهو يُداعب كفّها، فغرت فاها غير مُصدّقة، سمعت صوت أسنانه وهو يَدُكّ حبّات السكر، فابتسمت وعلى الفور رفعت الشريط، بدأت الدموع تتجمع في عينيها، صرخت بفرح «أدهم» احتضنت رقبته؛ فصهل وكأنّه يُخبرها كم اشتاق إليها، دفنت رأسها في رقبته، وطفقت تبكي هنيهة، ترفع رأسها وتُربت على منخري الفرس، ثم تمسح على شعره وظهره، دنا عمر منهما مُغرورق العينين،



يربت على ظهرها، التفتت ونظرت له مليًّا ثم ارتمت بين ذراعيه دافنةً رأسها في صدره، تُتمتم «معاك بقيت حاسّة إني امتلكت العالم بعشقك يا عمر». قبّل رأسها فرفعتها ونظرت له بحب، طبع قبلة طويلة بين عينيها فأغمضتهما، واستسلمت للخدر الذي سرى في جسدها،لم تعد تسمع سوى السمفونية التي تعزفها دقات قلبها الآن.. فتحت عينيها حينما صهل أدهم، رفعت أحد حاجبيها، وسألت:

ـ قولّي بقى، إنت كنت دايماً بتوشوشه تقوله إيه!؟ وماتقوليش سر بيني وبين أدهم.

ضحك وأجاب، وهو يُمسد رأس الفرس:

ـ أمممم، هقولك حاجة بسيطة من السر، بس ما تطمعيش في السر كله، كنت دايماً بحكيله عنك، عن نظرة عيونك اللّي حطمت أسوار قلبي، استعمرتيه من غير مقاومة، واتربعتِ على عرش مملكته بدون منازع، لمّا سافرتي زهّقته حكاوي عنّك لأنه كان أقرب صديق ليّا، بحس بأُلفة وسكينة في الساعات اللّي بقضّيها معاه وأحكيله عنك، بقضيها معاه وأكلمه ومش مهم عندي ألاقي إجابة المهم إني مرتاح كده بدل ما أتجنن، لحد ما زهق مني وبقى بيفهمني، ويرد عليا بصهيله، وليلة ما كُنّا هنا وركبيته لأنه ما كنش يعرفك ثار وقتها لما لحقته ومسحت على راسه عرفني من لمسة إيدي فهدي، قولتله إن هي دي حبيبتي اللّي كل ليلة كنت بحكيلك عنها، هي دي الإنسانة الوحيدة اللّي اتمنيت أكمّل حياتي معاها.

التمعت عيناها، اقتربت منه، ووضعت كفّها فوق كفه، وبهدوءٍ انسابت أصابعها تسد الفراغات بين أصابعه ليصنعا قبضة واحدةً

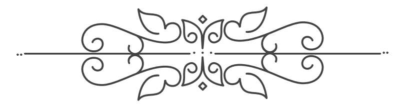
قرّبها من فمه وقبّلها.. امتطى صهوة الجواد ثم مد يده لها لتمتطيه خلفه، غمس بطن «أدهم» بقدمه فانطلق بهما، تفردُ ذراعيها وتُغمض عينيها تاركةً نسمات الهواء تُقبّل وجهها، تشعر أنّها طائرٌ يُحلّقُ في السماء، كادت تسقط فتشبّثت به، ضحك قائلًا:

- أهيمُ بكِ

- ليه دايماً تقولي.. أهيمُ بك؟!

_ لأن الهُيام أعلى من درجة الحب والعشق، ده أنا حتى حاسس إن الهُيام مش مكفّيني وبدوّرلك عن حاجه تعبّر عنّك جوايا.

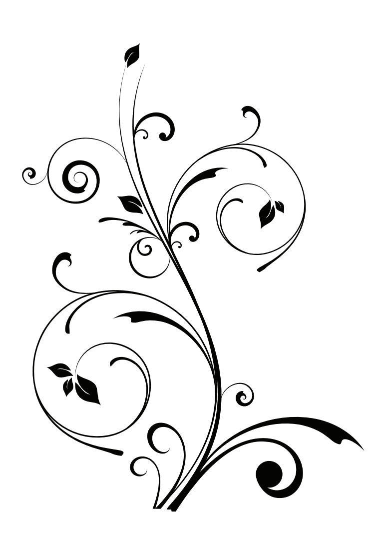
ابتسمت تلف ذراعيها حوله تضمّه من الخلف، وتُحكم ضمّتها، ثم توسّدت ظهره، وتركت إحساس الأمان والاطمئنان يتسرّب ليغمر قلبها وروحها.



بعد عامين..

هناك أوقاتٌ تشعر فيها أنّها النهاية، ثم تكتشف أنّها البداية.. وهناك أبوابٌ نشعر بأنّها مُغلقة، ثم نكتشف أنّها المدخل الحقيقي..

إبراهيم الفقي



تجري خلفها، وكُلّما اقتربت من الإمساك بها، نفذت من بين قدميها ضاحكةً، جلست على طرف سريرها لاهثةً، نظرت للصغيرة بلؤم، ثم تمددت على سريرها وتصنّعت النوم، اقتربت منها بهدوء، ضربت جسدها بقبضتها الصغيرة، وركضت بعيدًا، لكنّهالم تُحرّك ساكنًا. أعادت الكرّة دون جدوى، فاقتربت منها بحذر، حاولت أن تصعد للسرير، أمسكت طرف الملاءة، وظلّت تدفع قدميها، لكنّ مُحاولاتها لم تفلح، نظرت حولها فبَصُرَت وسادة صغيرة، سحبتها، وضعتها تحت قدميها وكررت فعلتها، تشبثت بالملاءة ودفعت قدميها، فنجحت محاولتها هذه المرّة، صعدت للسرير باسمةً بانتصار، اقتربت من والدتها النائمة، أخذت تعبث بجفنيها، تارة تضغط بأناملها الصغيرة، وتارة ترفع غطاء عينيها، اندمجت بلعبتها حتى وقعت في الفخ، قبضت أمها عليها، حاولت الفرار، لكنّها أحاطتها بذراعيها ودغدغتها، فضحكت الطفلة وأعلنت استسلامها، وبحركة انسيابية سريعة اعتادت عليها جرَّدتها من ملابسها، وبدأت معركتها مع هذه المُقاتلة الصغيرة لتُلبسها فستانها، حبستها بين قدميها، وبدأت معركة أخرى مع تمشيط شعرها. وأخيرًا، نجحت في إنهاء مهمتها كاملةً، تركتها تلهو كما يحلو لها، وبدأت تُبدّل ملابسها، ارتدت فستانًا بنفسجيًّا، مشّطت شعرها وعقصته، تناولت شالًا، وكانت ترتديه، حينما اتصل عمر، وأخبرها أنّه ينتظرها بالأسفل. أنهت المكالمة، وشرعت في لفّ الشال حول جسدها باسمةً، لا تُصدق أنّ الكوابيس التي عاشتها في سنواتها الماضية مرّت بسلام، وها هي الآن تعيش بطمأنينة هي وابنتها في كنف زوجها وحبيبها عمر.

مرّ عامان على زواجهما، وهما الآن بالعاصمة الفرنسية «باريس» يحتفلان بعام جديد في حياتهما معًا، ارتدت حذاءها، نظرت في مرآتها نظرة أخيرةً قبل أنً تتناول حقيبتها وتحمل صغيرتها، خرجت من الغرفة ودلفت إلى المصعد. كان هناك رجلان وامرأة، بعد طابقين نزل رجل وامرأة، وظلّ هناك آخر، تعبت «صبا» من حمل طفلتها فأوقفتها بالأرض، نظرت الصغيرة للرجل، وأخذت تعبث بطرف معطفه، وتجذبه، فحملتها «صبا» تعتذر بالفرنسية:

– أعتذر جدًّا، ظنّتك الطفلة والدها.

كانت تُداعب ابنتها، حينما أتاها صوته قائلًا:

_ وليه تفتكرني أبوها! ما أنا أبوها فعلًا!

توقّفت عن مُداعبة «زينة»، وارتفع وجيب قلبها، تُكذّب أذنها، حدّثت نفسها «لا، من المُحال أن يكون هو، لقد احترق مع سيارته، ودفنوا بقايا جثته المتفحّمة، لا.. إنه صوتٌ يشبه صوته، لكن لحظه، ترددت بأذنها جملته «ما أنا أبوها فعلًا» ارتجف جسدها، التفتت نحوه ببطء،لم تتبيّن من ملامحه شيئًا، فقط رجل يرتدي قبعة تُخبئ نصف وجهه، ولحيته الكثّة تُخبّئ النصف الآخر، خلع قبّعته، وابتسم لها بمكر، جحظت عيناها عندما التقت بعينيه الزرقاوين، ها هي ابتسامته الماكرة،ًلم تحملها قدمها كادت تسقط مُتمتمةً «مازن!»، اتسعت ابتسامته، فقبضت على ابنتها برعب وأمسكت هاتفها، ظلّت تعبث بأزراره بيد مُرتعشة،لم تجد تغطية، أسرًعت نحو هاتف المصعد، فأمسك يدها، أًفلتت يدها وابتعدت عنه في أحد الأركان، شعرت الطفلة بخوف أمّها؛ فأخذت تبكي، ضمّتها «صبا» بين ذراعيها تُخبئ وجهها وتدفنه في صدرها،

عبث بأزرار المصعد واقترب منها بقدم عرجاء، فانكمشت على نفسها وضمّت ابنتها أكثر، لا تدرِ أهي تُطمئِّنها أم تُفتّش عن الاطمئنان في ضمّتها! أخرج بخاخةً من جَيب معطفه، رشّ في وجهها، بدأت تترنح، ثوانٍ وأفلتت يداها الصغيرة الباكية، وقبل أن تسقط بالأرض أسندها، وهو يبتسم ويمسح على وجهها.

***

هرول مُبتعدًا عنهما حتى وجد سيارة «نصف نقل» مارَّة من الطريق، فأوقفها، وهدد السائق بمُسدّسه الذي التقطه منذ قليل عن الأرض، هبط السائق رافعًا يديه، ولمّا حاول المُقاومة أطلق في صدره رصاصة فمات من فوره، واستقلّ «مازن» سيّارته هاربًا، وجد أنّ السائق لم يكن وحده كان هناك مُرافقٌ له، فهدده مازن بسلاحه، طاردته سيارة عمر، وتبادلا إطلاق النّار حتى أصابت طلقات عمر إطاراتِ السيّارة؛ فانحرفت نحو مُنحدرٍ عالٍ، انقلبت مرّة فاستطاع أن يخرج قبل أن تُكمل انقلابها بالمنحدرٍ، زحَف مُختبئًا، ورآها وهي تنفجر، لمح «صبا» واقفة تتأمل السيارة المُشتعلة جانب عمر، ظنّوا أن جُثّة المُرافق المُتفحّمة بالسيارة جثته؛ لذا أعلنوا وفاته،لم يعرف أحدًا بأنه على قيد الحياة سوى أخته «ميرال» التي تركت مصر، واستقرّت بـ «لندن» بعد أن عَلِمَت برجوع الذاكرة لـ «صبا».

***

ملّ الانتظار بالأسفل، اقترب من المصعد واستدعاه، قبل أن يدخل ناداه أحد العاملين بالفندق، ودار الحوار بينهما بالفرنسية:

_عُذرًا، السيّد عمر عبد القادر؟

- أجل.

_ أحدهم ترك لكم هذه العُلبة.

_ ما اسمه؟

_ لم يذكر اسمه، قال إنّك ستعلم صاحبها حينما تفتحها.

_ حسنًا، شكرًا لك.

_ على الرحب والسعة.

ضغط زر المصعد، وانتظر صعوده لغرفتهم وهو يتفحّص العلبة، كان على وشك أن يفتحها لولا أن وصل المصعد للطابق المنشود، خرج منه مُتّجهًا لغرفتهم، فتح باباها ولم يجد صبا، بحث عنها في أرجاء الغرفة ولا أثر لها أو لزينة، طلب رقم هاتفها وكان مُغلقًا، فنظر للعلبة باسمًا، يظن أنّها إحدى مفاجآتها، فتحها؛ فوجد هاتفًا محمولًا وورقةً مطوية، وقبل أن يفتح الورقة وجد الهاتف يُضيء مع اهتزاز خفيف، يبدو أن هناك رسالة وصلت للتوّ، وضع العلبة على الطاولةَ وتناول الهاتف، فتح الرسالة، فجحظت عيناه، وبدأت الأرض تميد به، وجد صورةً لصبا فاقدةً للوعي بيدين مربوطتين وفم مُكمّمٍ، جانبها زينة يُسيطر الرعب على ملامحها، ومازن جالسًا جانبهما مُبتسمًا ينظر بمكر، انتفخت أوداجه غضبًا، يُحاول الاتصال بالرقم، ولكنّ الهاتف لا يستجيب، ضرب رأسه بقبضة يده، تذكّر الورقة؛ فعاد للعلبة سريعًا، تناولها بيدٍ مُرتعشة، وفتحها فوجد بالخط العريض:

«اللعبة لسه ماخلصتش.. مازن القاضي»

تمت بحمد الله